مـن روائــع
القصص العالميـة

①

ترجمة

حـصـة إبراهيـم الـعـمـار

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان،

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حصة إبراهيم

من روائع القصص العالمية./ حصة إبراهيم العمار - ط٤. -
الرياض، ١٤٢٩هـ

٣٦٧ص؛ ١٦٫٥ × ٢٤سم ٢مج

ردمك: ٧-٤٣٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٤٤١-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٢)

١- القصص القصيرة أ- العنوان

ديوي ٨٣، ٨٠٨ ١٣٤١/١٤٢٩

رقم الإيداع: ١٣٤١/١٤٢٩

ردمك: ٧-٤٣٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٤٤١-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الرابعة

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـــز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

⋆ الولايات المتحدة:

● **أو. هنري:** O. Henry (١٨٦٢ ـ ١٩١٠)

ـ التوبة المقبولة ١٣
ـ الصائغ اللعوب ٢٥
ـ ورود وحيل وغرام ٣٥
ـ في صالون حلاقة ٤٣
ـ النائبات حين تؤاخي ٥٣
ـ حالة غريبة ٦١
ـ أرغفة العرّافة ٦٧
ـ غرام مجهول ٧٣
ـ رسوله ٧٩
ـ قصة جريدة ٨٥
ـ فيما السيارة تنتظر ٩١
ـ حول الدائرة ٩٩
ـ أكتوبر ويونيو ١٠٧
ـ كفاح المغتربين ١١٣
ـ أفئدة وأيد ١١٩

● **إدجار آلا پو:** Edgar Allan Poe (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩)

ـ الصورة البيضاوية ١٢٥

★ **روسيا:**

● **أنطوان تشيكوف:** Anton Chekov (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤)

ـ الساذجة ١٣١

ـ عملية جراحية ١٣٥

ـ الأب ١٤١

ـ بئر أحزان ١٥٣

● **مكسيم جوركي:** Maxim Gorky (١٨٦٨ ـ ١٩٣٦)

ـ حبيبها ١٦٣

● **ليو تولستوي:** Leo Tolstoy (١٨٢٨ ـ ١٩١٠)

ـ جحيم الغربة ١٧٣

★ **فرنسا:**

● **جي دي موباسان:** Guy De Maupassant (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣)

ـ مجوهرات السيدة لانتن ١٨٧

ـ المنتقم ١٩٩

ـ المهر ٢٠٧

● **ڤولتير :** Voltoire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٩)

ـ الفيلسوف ممنون أو (حكمة الإنسان) ٢١٧

● **الڤونس دوديه:** Alphonse Daudet (١٨٤٠ ـ ١٨٩٧)

ـ الدرس الأخير ٢٢٧

★ بريطانيا:

● **سيريل هير:** Cyril Hare (١٩٠٠ ـ ١٩٥٨)

ـ عمة هيلاري ٢٣٥

● **توماس هاردي:** Thomas Hardy (١٨٤٠ ـ ١٩٢٨)

ـ توني كايتس ـ المخادع الكبير ٢٤١

● **أوسكار وايلد:** Oscar Wilde (١٨٥٤ ـ ١٩٠٠)

ـ أبو الهول الذي لم تكن له أسرار ٢٥٣

★ إيطاليا:

● **أنطونيو فوجازارو:** Antonio Fogazzaro (١٨٤٢ ـ ١٩١١)

ـ وصية الفلاّح ٢٦١

● **جيوڤاني بوكاسيو:** Giovanni Boccaccio (١٣١٣ ـ ١٣٧٥)

ـ الصقر ٢٦٩

★ السويد:

● **أوغوست ستрайندبرغ:** August Strindberg (١٨٤٩ ـ ١٩١٢)

ـ الحب والخبز ٢٧٧

ـ محاولة إصلاحية ٢٨٩

★ بلاد فارس:

● **البحار وتاجر اللؤلؤ ـ مجهول ـ من التراث القديم** ٢٩٥

★ الصين

● **پو سنغ لينغ :** Pu Sung-Ling (١٦٢٢ ـ ١٦٧٩؟)

ـ الكنة الفاضلة ٣٠٧

★ سلوڤانيا:

● **إيڤان كانكر:** Ivan Cankar **(؟ ١٨ ـ ١٩١٩)**

ـ أطفال وشيوخ ٣١٩

★ المجر:

● **كالمان ميكزاث:** Kalman Mikszath **(١٨٤٩ ـ ١٩٢٢)**

ـ الذبابة الخضراء ٣٢٥

★ بولندا:

● **ستفيان زيرومسكي:** Stefan Zeronski **(١٨٦٤ ـ ١٩٢٥)**

ـ نُذُر الشَّر ٣٣٧

★ المانيا:

● **هرمان سدرمان:** Hermann Sudermann **(١٨٥٧ ـ ١٩٢٨)**

ـ اعتراف ليلة رأس سنة ٣٤٧

★ الهند:

● **سومادیڤا من التراث القديم (عاش سنة ١٠٧٠ قبل الميلاد)**

ـ أسطورة ديڤاداتا ٣٥٥

★ بلجيكا:

● **أميل ڤيرهارين:** Emile Verharen **(١٨٥٥ ـ ١٩٢٠)**

ـ ذات ليلة ٣٦١

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

فإنك ستجد عزيزي القارئ بين دفتي هذا الكتاب صورة مصغرّة للعالم بكل ما فيه من آلام وآمال وأفراح وأتراح أبحرت ـ خلال أعوام عدة ـ عبر أثير الفكر وروائع الأدب إلى شتى أصقاع المعمورة، وكان إبحاراً طويلاً طويلاً اجتزت فيه حاجز الزمان والمكان... ستصمّ أسماعكم أصوات الفيلة تفر مذعورة في أصقاع المعمورة... وسترون أبطال قصص أنطوان تشيكوف، ورفاقه في خضمّ معاناتهم وسعادتهم سوف تسمعون أنّات الأسرى والحيارى والمعدمين، ستعايشون الهناء والشقاء والطيبة والمكر والدموع والابتسام والسذاجة والدهاء في حنايا البيت الروسي والأمريكي والأوربي... لسوف تسمعون سنابك خيل رعاة البقر الأمريكيين تحرث أديم التاريخ في سباق متواصل مع الشر والخير للتشبث أردأ ما وَرِثَهُ الإنسان وورّثه... المال.

ستعايشون ذلك كله وأكثر بعد أن ولجت خميلة الأدب العالمي فانتقيت لكم باقةً رائعةً من أبهى وأزهى قصص العالم، أنثرها هاهنا ليضوع عبيرها مسكاً يضمّخ وجودكم متعة ومعرفةً، ولكي تخرجوا من خضم هذه التجربة بخلاصة مؤداها أن الإنسان هو الإنسان أنى كان ... ذات الألم والأمل والترقب والمعاناة بأن النمط واحد غرّب الإنسان أو شرّق، وبأن الغلبة للحق والخير دائماً وأبداً.

حصة إبراهيم العمار

الإهداء

إلى أمي التي لولاها ـ بعد الله ـ ما أبصرت هذا الوجود الذي أجسّد شخصياته وأنماطه..

إلى عبدالرحمن الذي جعلني ـ عبر أسفار عدة ـ أعايش معظم الأقطار التي نبعت منها هذه القصص وليس راءٍ كمن سمع ـ فأثرى بذلك خيالي وعاطفتي... وملأ أيامي سعادة... وألقاً وبهجه.

وإلى إخوتي وأخواتي زهور وزهرات حياتي

سأظل أحبكم

وسأظل ممتنّة لكم العمر كله

التوبة المقبولة

Written by. O. Henry

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

جاء أحد الحراس إلى متجر الأحذية الصغير بالسجن المركزي... حيث كان (جيمي ڤالنتاين) يخيط ـ بهمة ونشاط ـ عدداً من الأحذية.. فرافقه إلى المكتب الرئيس، وهناك سلم آمر السجن (جيمي) خطاب العفو الذي وقعه الحاكم ذلك الصباح، وتلقاه (جيمي) في شيء من الكدر، كان قد أمضى في السجن قرابة عشرة أشهر من أصل محكومية أربع سنوات، ولم يَدُرّ بخلده أنه سيمكث أكثر من ثلاثة أشهر على أكثر تقدير إذ إن معارفه وأصدقاءه كُثُر!.

ـ والآن سيد (ڤالنتاين)! قال آمر السجن سيخلى سراحك صباح الغد... لا تنحرف عن جادة الاستقامة ثانيه... اضبط نفسك وكن رجلاً ذا مبادئ... أنت إنسان نزيه طيب في قرارة ذاتك... لا تعد إلى امتهان كسر الخزانات مرة أخرى وإلا واجهت مصاعب شتى!

ـ أنا؟ قال (جيمي ڤالنتاين) في دهشة ـ ما كسرت خزينة في حياتي!

ـ حقّاً؟ قال آمر السجن ضاحكًا ـ بالطبع لا ـ فلم إذاً حكم عليك؟ أم أن هيئة المحلفين كانت أبعد ما يكون عن النزاهه؟ لا تعدمون أيها المساكين حجة تبررون بها دخولكم السجن، ما سبب ذهابك في مهمة إلى (سبرنغفيلد)؟

ـ أنا؟ رد جيمي بذات الدهشه والبراءه ـ ما ذهبت إلى (سبرنغفيلد) قط!.

ـ أعده إلى زنزانته يا (كولين) ـ قال آمر السجن باسماً وزوّده بملابس خروج مناسبة، وفي السابعة من صباح الغد أحضره إلى المعتقل المؤقت استعداداً للإفراج عنه ـ فكر فيما قلته لك يا جيمي!

في السابعة والربع من صبيحة الغد كان (جيمي) يقف أمام المكتب الخارجي لآمر السجن، مرتدياً بدلة رخيصة وحذاء قاسيًا ذا صرير، وناوله الموظف تذكرة قطار وخمسة دولارات رأى القانون أنها تؤمّن للمحكومين حياة رخاء ورغد، وأعطاه آمر السجن سيجاراً ثم صافحه مودعاً.

وانطلق (جيمي) خارج الأسوار معانقاً شمس الحريه بعد أن ألِف كاتب السجن قراءة تلك العبارة في أوراقه: السجين (جيمي فالنتاين) حصل على عفو من الحاكم.

وتجاهل تجليات الطبيعة حوله... شقشقة العصافير، وتمايل خُضر الأشجار الباسقة، وعطر الزهور يضمّخ أرجاء الكون، فاتجه إلى أحد المطاعم وهناك تذوق مع طعم الحريه دجاجة مشويه وكأساً من العصير أتبعه بسيجار يفضُلُ الذي منحه إياه آمر السجن بدرجة، ومن هناك انطلق إلى محطة القطار... وبادر قبل الصعود إلى وضع قطعة من فئة الربع دولار في يد سائل كفيف.

بعد ثلاث ساعات وصل إلى ولايته فاتجه من فوره إلى مقهى السيد (مايك دولان) فصافحه الأخير وتمتم معتذراً:

ـ معذرة بنيّ (جيمي) كان من المفروض أن نخرجك من السجن قبل ذلك

بكثير على أنه تعيّن وأد ذلك الاحتجاج الذي رفعه حاكم الولاية ـ كيف حالك؟

ـ بخير ـ ألديك مفتاحي؟

وناوله إياه فصعد إلى غرفة تشرف على الجهة الخلفية، وما إن فتح بابها حتى وجد كل شيء كما كان عليه... ولمح زر معطف المحقق ملقى على الأرض إثر العراك الذي دار بينهما يومذاك، والذي انتهى بإلقاء القبض عليه.

وسحب سريرًا جدارياً مطويًا ثم جذب أحد الأدراج الخفيه وأخرج منها حقيبة غطاها الغبار سرعان ما فتحها وظل يحدق بعشق ووله في محتوياتها. كانت تضم أروع عدة سرقة في شرق البلاد! طقم كامل صنع من أفضل أنواع الفولاذ وعلى أحدث، طراز وكان من بين العدة قطعتان صممهما (جيمي) بنفسه، وبلغ مجمل ما أنفقه على ذلك كله سبعمائه دولار لا تنقص سنتيماً يتيماً!

بعد نصف ساعة نزل (جيمي) واتخذ طريقه عبر المقهى أسفل المبنى، وكان يرتدي ملابس أنيقة ويحمل حقيبته التي بدت جديدة بعد أن نالها كثير من التلميع:

ـ هل أخذت كل شيء؟ سأله (مايك دولان) بلطف.

ـ أنا؟ رد (جيمي) بخبث مصطنع وخفة دم متناهية... لا أفهم ما تعنيه، إنني أمثل شركتَيّ البسكويت المدمجتين (شورت سناب) و (فازلد ويت)، وأثملت تلك المقولة (مايك) إلى حدٍ اضطر معه (جيمي) إلى احتساء كأس من المياه المعدنية الممزوجة بالحليب، إذ إنه ما عاقر أم الكبائر قطّ.

بعد أسبوع من إخلاء سبيل السجين (٩٧٦٢) وقعت سلسلة من السرقات في الولاية... سرقات دقيقة متقنة، ولم يكن هناك ثمة دليل يرشد إلى

مرتكبها... جرت أولاً سرقة مبلغ ثماني مئة دولار، ثم تبعت ذلك عملية سرقة تلك الخزانة التي قيل إنها (حصينة لا تُقهر)، حدث ذلك بعد أسبوعين من العملية الأولى، وظفر السّارق بما مجموعه ألف وخمس مئة دولار، أما الوثائق المهمة وقطع الفضه فلم تُمسّ! ذلك كله أوقد بريق الطمع في أعين مصطادي الأحمر الرنان، إذ إنه بعد ذلك بقليل تمخضت أريحية خزانات أحد البنوك العريقة في (جفرسون سيتي) عن كرم لا مثيل له إذ قذفت فوّهتها بخمسة آلاف دولار! وحدا ارتفاع معدل السرقات بالمحقق (بن برايس) إلى صرف جل اهتمامه بالأمر لكشف الغموض المتفشّي، وشرع يقارن الأدلة فاتضح له أن أسلوب السرقة في جميع الحالات كان واحداً وسُمع وهو يقول:

ـ هذا من صنع (جيمي ڤالنتاين) لقد عاد إلى ما كان عليه بُعيِّدَ الإفراج عنه، تأملوا كيف جذب مفتاح الخزنه هذا بخفةِ سحبِ جذور فجل من أرض أغرقها المطر، لا يملك غيره المقابض القادرة على تطويع ذلك، ثم انظروا إلى ما يتمتع به من دقة ونظافه... ولم يكن بحاجه إلى إحداث أكثر من ثقب واحد... نعم أظن أنه المطلوب ولسوف يمضي في السجن هذه المرة مدة طويلة!

كان المحقق (بن برايس) مضطلعاً بكافة أساليب (جيمي ڤالنتاين) فيما يختص بأساليب السطو... قفزات طويلة، وهروب سريع، ولا شركاء في الصنعة... على أنه كان من عشاق العشرة الطيبة والإحسان، وسرى في الولاية خبر مفاده أن المحقق اللامع (بن برايس) قد تكفل بقضية السرقات هذه وبتتبع مرتكبها حتى إلقاء القبض عليه، فأفرخ روع ذوي الخزانات الملأى.

ذات ظهيره.. كان (جيمي ڤالنتاين) يحمل حقيبته بعد إذ ترجّل من إحدى

سيارات الأجره في بلدة (إلمور) التي تبعد عن (أركنسو) بخمسة أميال، وبدا كما لو كان شابّاً رياضيّاً مرحاً عاد لتوه إلى منزله من الكلية... سار (جيمي) صوب الفندق برشاقة حينما لفتت انتباهه شابة تعبر الشارع مرت بجانبه ودخلت باباً كتب عليه (بنك إلمور) ونظر (جيمي) إلى عينيها واستحال على الفور شخصاً آخر ـ وأرخت أهدابها في خفر لوّن خديها ببدايات حمرة الشفق ـ كان من النادر رؤية شبان في (إلمور) بذات الأناقة والجاذبية اللتين كان (جيمي) عليهما.

ولمح (جيمي) صبيًا يلهو على عتبات المصرف، فشرع يداعبه ويسأله عن البلدة وساكنيها مانحاً إياه قطعاً نقدية بين ـ الفينة والفينة ـ من فئة العشرة سنتيمات... ولم تمض فترة وجيزة حتى غادرت الفتاة إياها المصرف ملقية على الشاب ذي الحقيبة نظرة كبرياء لا مبالية ثم مضت .

ـ أليست تلك السيدة (پوللي سيمسون)؟ سأل (جيمي) الفتى بمكر.

ـ كلا! رد الفتى: إنها الآنسة (آنابل آدامز) ووالدها هو مالك هذا المصرف.

ما الذي أتى بك إلى (إلمور) ـ أهذه سلسلة ذهبية سأشتري كلباً سيدي ـ ألديك مزيد من تلك القطع النقدية؟ إنثال سيل الأسئلة من فم الصبي.

توجه (جيمي) إلى فندق (بلانترز) وسجل إقامته تحت مسمى (رالف سبنسر) ثم اتكأ على حافة منضدة الاستقبال وأخبر الموظف بأنه قد وفد إلى (إلمور) بحثاً عن موقع مناسب لعمله المتعلق بصناعة الأحذيه... ثم استطرد في حديثه فسأله عن وضعية ذلك... مدى إقبال الناس على شرائها وما إذا كانت هناك نية لافتتاح متاجر جديدة في هذا المجال.

وأُخذ موظف الاستقبال بمظهر (جيمي) وحسن تصرفه ... بأناقته التي أعادت له ذكريات شبابه حين كان مثالاً يحتذيه بنو بلدته في كيفية انتقاء الملابس العصرية... وبدلاً من الانسياق وراء استشراف كنه الكيفية التي ربط بها (جيمي) ربطة عنقه بتلك الطريقة السهلة الممتنعة شرع موظف الاستقبال يجيبه عما سأل، فأكدّ له أن البلدة بحاجة إلى افتتاح محل أحذية فعّال يغطي النقص في هذا المجال، إذ إن الأحذية كانت تباع في المتاجر الكبرى فقط، وأكد له ضرورة تخصيص متاجر تعنى بذلك، مؤكدًا له أن الإقبال ـ إذا ما تم ذلك ـ سيكون كبيراً. وطفق يمتدح البلدة وأهلها الطيبين. وشكره السيد (سبنسر) (جيمي) ثم أفاده بأنه سيمكث بضعة أيام يدرس الوضع خلالها، وحين عرض عليه الموظف استدعاء صبي كيما يحمل حقيبته إلى غرفته أبى قائلاً بأنه سيحملها بنفسه إذ إنها ثقيلة بعض الشيء.

وبقي (رالف سبنسر) تلك الشخصية العنقائيه التي انبثقت من رماد (جيمي ڤالنتاين)، ذاك الذي أشعل حب مفاجئ ضرامه... بقي في مدينة (إلمور) وافتتح متجراً للأحذية نما وازدهر.

وعلى الصعيد الاجتماعي لقي ذات النجاح، فكان له أصدقاء ومعارف كثر... أما على صعيد العاطفه فقد نال ما تمنى... تعددت لقاءاته بالآنسه (آنابل آدمز) وبدا مفتوناً بها مشدوداً إليها أكثر فأكثر.

في نهاية العام كانت محصلة (رالف سبنسر) كالتالي: حظي باحترام مجتمعه، وازدهرت تجارته، وتمت خطبته إلى (آنابل)، وكان مقرراً أن يتم الزواج خلال أسبوعين. كان والدها راضياً عنه، أما هي فقد وازى أعجابها بخطيبها افتخارها به، وعامله الجميع كأحد أفراد العائلة تماماً.

وذات يوم حـرر (جـيـمي) رسـالة إلى أحـد أصـدقـائه الخلّص في (سـانت لويس) أخبره فيها عن حياته الجديدة، عن نجاحاته وخطبته (لأنابل)، عن كلفه بهـا وأنهـمـا على وشك الزواج، عن اعـتـزامـه اعـتـزال حـيـاة الماضي الملطخـة بالسـرقة بعد إذ أغناه الله، وعن نيته فيـما يختص باعتـزامه الانتقال إلى جهة بعيدة بُعيد زواجه... جهة لا تطاله فيها قضايا قديمة تتصل بتاريخه الماضي الملطخ بوحل السطو... واختتم رسالته بالاتفاق معه على أن يلتقيا في موضع حدده كيما يسلمه التركة... حقيبة تحوي تلك العدة العجيبة القادره على فتح أعتى الخزانات.

بعـد أن أنهـى (جيـمي) كتـابة رسـالتـه تلك ـ ليلة الإثنين ـ كـان المحقق (بن برايس) يتجـول عبر مدينه (إلمور) في عـربة خفيفـة... وشرع يطوف هنا وهناك حتى وجد ضالته. عبر الصيدليه المقابلة لمحل أحذيه (سبنسر) أبصر (رالف سبنسر).

ـ إذًا فـأنت تزمع الزواج من ابنة صـاحب المصـرف ياجيـمي ـ هـمس (بن) لنفسه بهدوء... لستُ متأكدًا من ذلك.

في صـبيحـة اليوم التالي تناول (جيـمي) إفطاره لدى عـائلة خطيبته وكان ينوي التوجه إلى أفضل ترزي لتفصيل بدلة زفافة وشراء هدية لآنابل.

تلك كانت المرة الأولى التي يغادر فيـها (إلمور) بعد عـام من العيش الرغد فـيـهـا... وأكـد لنفـسـه بـأن الزمـان قـد طوى كل مـا يدعـو للقلق من إمكانيـة مطاردته بعد أن توقف نشاطه (السطوّي) لما يزيد عن العام تقريباً.

بعد الإفطار اتجهت العائلة بمجملها إلى وسط البلدة. رب الأسرة وابنته وخطيبها (جيمي) وكريمته الأخرى وطفلتاها.

ومر الجميع على الفندق الذي لا يزال (جيمي) يقيم فيه وسارع إلى التوجه لغرفته فأحضر منها حقيبته القديمة واتجه الجميع إلى المصرف حيث وقفت العربة التي كان مقرراً أن تنقل (جيمي) إلى محطة القطار، وداخل مبنى البنك... اتخذوا طريقهم صوب الخزانة الرئيسة وكان (جيمي) ضمن ذلك الوفد، ولم لا وقد اعتبر في عداد العائلة... كان صهر المستقبل الذي يلقى ترحيبًا أنى حل وارتحل.

وفاض قلب (آنابل) بفقاقيع وردية دغدغت أحاسيسها وهي ترتدي القبعة التي أهداها (جيمي) على أنها أطلقت صيحة استغراب حينما حاولت رفع الحقيبة:

ـ يا إلهي كأنما ملئت قوالب من ذهب!

ـ أجل ـ رد جيمي في هدوء ـ إنها تحوي كثيراً من مواد طليت بالنيكل لاستخدامها في صنع الأحذية، إنني على وشك إعادتها رغم حاجتي إليها على أنني ارتأيت أنه لابد من الاقتصاد في الصرف هذه الأيام.

كان مصرف (إلمور) قد زوّد للتو بقبو جديد وخزانة قوية. وشد ما كان مالك المصرف السيد (آدمز) فخوراً بها مما حدا به إلى إطلاع الجميع عليها. كان القبو صغيراً نوعاً لكن بابه كان من النوع الحديث.

وتم تصميمه كيما يغلق بثلاثة مزاليج من الفولاذ الصِّرف تفتح سويّاً بمقبض وحد وبمؤَقّت زمني للغلق. وشرع السيد (آدمز) يشرح في نشوة تفاصيل ذلك للسيد (سبنسر) الذي كان ينصت بأدب دون أن يخامر ذاته عميق اهتمام، أما الطفلتين (مي) و (أجاثا) فلم تسعهما الفرحة وهما تنعمان برؤية ذلك الحديد اللامع الصقيل والساعة العجيبة والأزرار المتعددة.

وفيما كان المالك ومن معه منشغلين بذلك تهادى إلى المصرف المحقق (بن برايس) الذي أفاد الموظف بأنه لم يأت إلا انتظاراً لصديق، كان يقول ذلك وهو يسترق بين أعمدة الدرابزين النظر إلى الداخل، وفجأة ندّت عن المرأتين بالداخل صرخات حادة وجلبة! فقد تسللت الطفلتان ـ في غفلة من أعين الرقباء ـ إلى المنطقة المحظورة وعمدت كبراهما ـ بدافع اللهو ـ إلى إغلاق باب قبو الخزينة على شقيقتها ثم سارعت بالعبث بالأزرار والأرقام السريه لفتح الباب كما رأت السيد (آدمز) يصنع.

وكالملدوغ حاول المصرفي العجوز فتح الباب دونما أمل:

ـ لن نستطيع فتح الباب إذ إن الساعة والأرقام السرية لم تبرمج بعد ـ قال في جزع ولهفة.

وعلا صراخ والدة (أجاثا) السجينه... كان صياحاً هستيرّياً يمزّق نياط القلوب.

ـ صمتاً ـ قال السيد (آدامز) رافعاً أصبعاً راعشة ـ انتظروا دقيقة ثم نادى (أجاثا) بصوت مرتفع ولم يكن بمقدورهم بعد ذلك أن يسمعوا شيئاً غير صراخ خافت محموم مكتوم لطفلة بالداخل.

ـ أيا حبّة القلب ـ صرخت أمها الملتاعة ـ ستموت رعباً افتحوا الباب... اكسروه ـ قالت مُعْوِلةً ـ أيها الرجال أليس بمقدور أحدكم أن يفعل شيئاً؟

ـ أقرب حداد يقطن بلدة (ليتل روك) القصيّة أنه الوحيد الذي قد يستطيع فتح الباب ـ قال السيد (آدمِز) ـ والرعشة تزلزل كلماته ـ يا إلهي.. ما الذي بمقدورنا أن نعمله يا (سبنسر) ـ ليس هناك هواء كاف بالداخل لها تلك المسكينة!

وشرعت أمها تطرق الباب بعنف بيديها، فيما اقترح أحدهم استخدام (الديناميت) ـ وحدقت (آنابل) بعينين واسعتين في (جيمي) ... وبدا أنها رغم عذاباتها لم تفقد الأمل بعد... ليس هناك في الوجود طرّاً ما يوازي الثقه غير المحدودة التي تستشعرها المرأة حيال قدرات من تحبّ!

ـ أليس في مقدورك عمل شيء (يارالف) قالت لخطيبها ـ حاول رجاءً!

ونظر إليها (جيمي) نظرة ودّ رقيقة انبلجت من عينيه، سابقة البسمة التي انفرجت عنها شفتاه بذات الحب والرقة والثقة بالذات:

ـ (آنابل) هبيني تلك الزهرة على معطفك؟

وبالكاد صدقت ما سمعته على أنها سارعت إلى نزعها من زرها فأعطته إياها وكان ما حدث مؤشراً لبداية تحول (رالف سبنسر) إلى شخصيته الأولى (جيمي). وسرعان ما شمّر عن ساعديه وأمر الجميع بالتنحي عن الباب.

وعمد إلى حقيبته ففتحها ثم انهمك في عمله إلى حد نسي معه وجود البقية، وطفق يصف أدواته اللامعه مطلقاً صفيراً خافتاً مرحاً كعادته كلما استغرقه عمل ما، وظل الجميع يحدقون فيه بصمت عميق مأخوذين بما يرونه.

خلال دقيقه كان مثقاب (جيمي) يقوض الباب الفولاذي برشاقه وبعد عشر دقائق سقط المزلاج فسجل بذلك رقمًا قياسيًا جديداً في كسر الخزانات... وسارع إلى الباب ففتحه وسقطت (أجاثا) في أحضان أمها... كانت سليمةً إلا من هلع مزّق كيانها الغضّ!

وارتدى (جيمي ڤالنتاين) معطفه ثم سارع إلى الباب الخارجي مروراً بالدرابزين، وخيل إليه في سياق ذلك أنه يسمع صوتاً من البعيد البعيد يناديه

على أنه ما التفت، وعلى الباب كان رجل ضخم الجثة في انتظاره .

- أهلاً (بن برايس) قال (جيمي) بذات الابتسامة الغامضة:

هيا بنا! قال مستسلماً.

على أن المحقق فاجأه بتصرف غريب حين قال: أنت مخطئ يا سيد (سبنسر) لا أظن أني أعرفك من قبل هيا فالعربة التي تزمع الانطلاق بها لا تزال أمام البنك! عندها استدار المحقق وانطلق تاركاً إياه في حال سبيله.

الصائغ اللعوب

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

عن كتاب « O.Henry. Collected Stories »

سوف لن تعثر على اسم (توماس كيلينج) في دليل مدينة (هيوستن) والذي يفترض أن يكون مدونًا به لولا أن السيد «كيلينج» قد أنهى أعماله فجأةً منذ شهر أو ينيف وانتقل إلى جهة أخرى.

كان قد قَدِمَ إلى (هيوستن) ففتح فيها مكتب تحريات صغير، ثم كشف النقاب عما يقدمه من خدمات بطريقة متواضعة، ولم يبلغ به الطموح حد منافسة وكالة (بنكدتن)... سَلَكَ.. ـ عوضاً عن ذلك ـ دروباً أقل وعورة وخطراً.

إذا ما رغب صاحب عمل في استكشاف خبايا كاتب متجره كان السيد (كيلينج) في الخدمة دائماً... وكذا كان إما ارتأت إحدى الزوجات إبقاء عين مفتوحة على زوجها الذي غمرته سعادة مفاجئة استوجبت معرفة مصدرها إذ لا أمان مع الحياة، وسوء الظن من حسن الفطن أحياناً.

وكان (كيلينج) رجلاً هادئ الطباع مجتهداً، مُنظِّرا، رزيناً... ظل ردحاً من الزمن يقرأ أعمال (غابوريو) و (كونان دويل) يحدوه أمل مشرق في تسنّم مراتب عليا. وشغَل ـ قبل مجيئه ـ منصباً لا بأس به في أحد مكاتب التحريات الكبرى في شرق الإقليم، على أن ندرة الحوافز والترقيات دفعته إلى النزوح إلى غَرْبه حيث تتوافر فرص أكثر لممارسة النشاط.

وكان قد تجمّع له على امتداد السنين مبلغ تسعمائة دولار أودعها لدى أحد تجار مدينة (هيوستن) بعد أن قدم له خطاب تعريف من أحد أصدقائه.

واستأجر مكتباً في شارع مغمور فَدَلى منه لائحة تعريفيّة بمهامه قبل أن يدفن وجهه في مجلدات قصص (شرلوك هولمز) شخصية التحريات التي أبدعها (كونان دويل) وظل ينتظر إطلالة الزبائن.

بعد أيام ثلاثة من افتتاح المكتب ـ والذي لم يكن به سواه ـ وَفَدَ زائر.

كانت شابة في السادسة والعشرين ـ على ما يبدو ـ وكانت رشيقة طويلة نوعاً... أنيقة الملبس ـ ورمت بحجاب شفاف فوق قبعة سوداء من القش وهي تجلس بخفة على الكرسي الذي قدمه المخبر لها. صوتها كان رقيقاً، أما وجهها فدقيق الملامح.. كانت جذابةً حقاً... على أن عينيها الرماديتين كانتا تدوران بسرعة فتعكسان بذلك مزاجاً عصبياً متوتراً بعض الشيء.

ـ جئت لرؤيتك ياسيدي!

ـ قالت بصوت عذب... حزين نوعاً... رخيم... رنّان ـ وتابعت: ولأنك غريب غير معروف ـ وذلك ما دعاني إلى المجيء هنا كيما أكاشفك بقضية داخلية أقضّت مضجعي ـ أريدك أن تراقب تحركات زوجي... ورغم إحساسي بالمهانة لاطلاعك على ذلك إلا أني أجد نفسي مضطرة له... ما عاد زوجي الذي أعرفه... ومشاعره الدّفاقة المضمخة بعبير الشوق قد تبدلت نحوي.

قبل زواجنا كان على علاقة عاطفية وثيقة بشابة تنتمي لعائلة كان يقطن لديها... على أن خمس سنوات قد مضت الآن على زواجنا السعيد... ثم جاءت تلك (الأخرى) إلى مدينة (هيوستن)... لدي من الأسباب ما يحملني على

الاقتناع بعودة ما كان بينهما من وشائج وأواصر؛ ولذا فإني أريدك أن تراقب حركاته وسكناته فتوافيني بما يستجد حينما أعود إليك في مكتبك في موعد سأضربه لك. اسمي هو السيدة (ر) وزوجي شخصيّة معروفة! إنه صاحب محل مجوهرات صغير في شارع .... سأدفع لك بسخاء نظير أتعابك ـ إليك عشرين دولاراً مقدماً.

وتناول المبلغ منها في رتابة من يفعل ذلك طوال الوقت... وكأنّ تحصيل المال ـ في مهنته ـ كان شيئاً مألوفًا غاية.

وأكد لها بأنه سيبذل ما في وسعه، ثم طلب منها موافاته بعد يومين الساعة الرابعة عصراً.

وشرع في إجراء تحرياته فقصد متجر مجوهرات الزوج، ثم دلف إليه بداعي إصلاح زجاج ساعته.

كان السيد (ر) في حوالي الخامسة والثلاثين، وبدا هادئاً جاداً متزناً.

أما متجره فكان صغيراً بعض الشيء، لكنه كان حافلاً بالعديد من المجوهرات. ساعات وألماس، وصف عريض من الأحجار الكريمة. واتضح له... في أعقاب إجراء مزيد من التحريات أن السيد (ر) كان عاقلاً لا يعاقر الخمرة ولا يبرح منضدة حانوته.

وظل السيد (كيلينج) يتسكّع قرب المتجر لعدة ساعات كوفئ بعدها برؤية شابة ترتدي ملابس براقة... عيناها كانتا سوداوين، أما شعرها فكان فاحماً كالليل البهيم.

واقترب التحري (كيلينج) من الباب أكثر، متلصّصاً كيما تتاح له معاينة ما يحدث بالداخل.

واتجهت الشابة بثقة ـ صوب ـ السيد (ر) فاتكأت على طرف المنضدة وشرعت تتحدث معه ببساطة وعفوية، ونهض لمرآها فشرع يتجاذب معها أطراف حديث خفيض قبل أن يضع في يدها شيئاً من النقود ـ التي سمع رنينها ـ وتخرج الشابة مغادرة المتجر.

وما إن حل الموعد المضروب حتى كان التحري في مكتبه... ولما سألته موكلته عما إذا كان قد توصل إلى ما يؤكد شكوكها... نقل إليها ما رآه.

ـ إنها هي بعينها! ـ هتفت السيدة حينما نقل إليها أوصاف الشابة التي ولجت المتجر ـ تلك الوقحة الصفيقة! كيف تواتيها الجرأة... إذاً (فتشالِز) يعطيها نقوداً! أيظن أن ذلك سيمر دون حساب وعقاب؟!.

وفركت السيدة عينيها بمنديل أخرجته فاستشعر نحوها كثيراً من الشفقة ورثى لحالها:

ـ سيدة (ر)! ـ قال «المخبر» ـ إلى أي مدى تريدين أن أذهب في استقصاءاتي؟.

ـ أريد أن أرى بأم عيني ما يرجح شكوكي، كما وإني بحاجة إلى شهود كيما أرفع دعوى بالطلاق... لن أستطيع الاستمرار على حالتي هذه... إنها حياة لا تطاق!

وأعقبت ذلك بأن نفحته عشرة دولارات!

في الجلسة التي تلت ذلك... لما وفدت السيدة (ر) لتسمع ما توصل إليه... وافاها بتقريره... قال:

ـ تذرعت اليوم بحجة واهية لزيارة المتجر... وكانت تلك الشابة هناك... على أنها لم تمكث طويلاً، وقبل أن تمضي سمعتها تقول له: «سوف نتناول العشاء في أحد المطاعم ثم نعود إلى هنا كيما تنهي تصميم «البروش» الألماس الذي تعكف على إعداده راهناً لنتسامر حيث يخلو الجو لنا بعد انقطاع وفود الزبائن».

وواصل المحقق حديثه فقال: أعتقد أن هذه فرصة ثمينة لك كيما تقفي بنفسك على ما يجري بين زوجك ومصدر هيامه وإلهامه وأحلامه!

ـ الوغد! صرخت السيدة (ر) وعيناها تومضان ببريق عجيب!

لقد أخبرني بأن لديه الليلة ما يشغله! تلك هي المسألة إذاً!

وهذا ما يمضي وَقْته فيه!

ـ أرى أن تختبئي داخل المتجر كيما تطَّلعي على ما سيحدث ثم تستدعين شهوداً بعد أن تجابهي زوجك إثر ضبطه متلبساً بالجرم المشهود!

ـ عين الصواب ما ارتأيت. هناك شرطي مكلف بحراسة المنطقة المحيطة بالمتجر تعرفه عائلتنا... وستكون مناوبته موافقةً لذلك الموعد المشؤوم... سأتربص بهما إذاً داخل المتجر وعندما أشعر بأنّي قد سمعت ما يدعم شكوكي فسوف أستدعيك والشرطي لتكونا شاهدي القضية!.

ـ سوف أتحدث إلى الشرطي بهذا الخصوص وأرجو أن تبكري الليلة بالمجيئ كيما نعد الكمين لها! ليكن ذلك قبيل حلول الظلام.

وبحث التحري عن الشرطي حتى عثر عليه، وشرح الأمر له، فقال حامي العدالة والأمن:

ـ هذا غريب... لم أعهد السيد (ر) لعوباً على أنه لا ينبغي الحكم على الناس ظاهراً! حسناً فزوجته ترغب في ضبطه بموقع الجريمة وهي ترغب في الاختباء داخل المتجر! لِنَرَ... هناك غرفة خلف المتجر يحتفظ فيها بالحطب والكراتين الفارغة والباب بين المتجر وتلك الغرفة مغلق، على أنك إن استطعت إدخالها عبره فسيكون بإمكانها الاختباء في مكان ما.

أكره التدخل في مثل هذه الأمور على أني متعاطف مع السيدة (ر) فقد عرفتها منذ الصغر.

عند الغسق... جاءت الزوجة... كانت ترتدي زيّاً عاديّاً أسود وتعتمر قبعة مستديرة داكنة فيما غطى حجاب رقيق وجهها.

ـ سوف لن يعرفني (تشارلي) إما وقع بصره عليّ ـ قالت ـ!

وتوجهت إلى المتجر برفقةِ التحري فوقفا في الشارع المواجه له، وعند الثامنة جاءت الشابة المنتظرة فدلفت إلى المحل الذي سرعان ما لفظها والسيد (ر)... متجهين إلى موعد العشاء المضروب ـ أغلب الظن ـ.

وأحس التحري بارتعاشة في ذراع السيدة!

ـ الوغد!... ويظن أني أنتظره في سذاجة بالبيت! يالغدر الرجال، وقادها السيد (كيلينج) إلى ممر يفضي إلى الفناء الخلفي لمتجر المجوهرات وكان الباب الخارجي غير مغلق فولجا عبره.

ـ هناك منضدة كبيرة بالداخل لها غطاء فضفاض، سأختبئ تحتها كيما أتمكن من سماع كل كلمة يتلفظون بها.

وأخرج السيد (كيلينج) مجموعة من المفاتيح الرئيسية استطاع أحدها فتح الباب المفضي إلى المتجر خلال دقائق معدودة.

ـ سأحكم رتاج هذا الباب من الداخل، أما أنت فإني آمل أن تجدّ في طلب زوجي ورفيقته حتى إذا ما تبعتهما عائدين فبكر بالمجيء واطرق الباب ثلاث مرات كي أعلم بقدومهما... فأصغي لحديثها قبل أن أفاجئهما... على أنه ينبغي أن تكون متواجداً آنذاك سيد (كيلينج) إذ إني لا أعرف ما يخبئه القدر! من يدري فقد يعتديان عليِّ بعد انكشاف أمرهما!

وانسل المخبر خارجاً فتبع المجوهراتي وفتاته. واكتشف سريعاً بأنهما قد طلبا عشاء في مطعم هادئ... وتباطأ في مشيته جيئةً وذهاباً حتى فرغا فسبقهما إلى المتجر وطرق الباب ـ كالمتفق ـ ثلاث طرقات.

بعد دقائق عدة دخل التاجر والشابة إلى معرض المجوهرات... وتسلل نور المتجر المتوهج إلى ناظريّ المحقق عبر صدع في الجدار أعقبه سماع حديثهما المألوف على أنه لم يتمكن من معرفة ما كان يدور بينهما فما ميّز الكلمات!

واتجه إلى الشارع فراقب من هناك ما يحدث داخل المتجر فبصر بالصائغ منكبًا على عمله والحديث بينه ورفيقته سجال.

ـ سأمهلهما قليلاً! قال المحقق قبل أن يشرع في التجوال بتؤدة هنا وهناك.

كان رجل الأمن يقف في إحدى الزوايا .

وأخبره التحري بأن السيدة (ر) بالداخل وبأن الأمور تسير وفقاً للخطة المرسومة.

ـ سأتجه إلى خلفية المتجر كيما أشهد وقوع الضحية في الكمين المنصوب!

وألقى الشرطي نظرة إلى الداخل فقال:

ـ يبدو أن كل شيء على ما يرام... أين ذهبت تلك المرأة الأخرى؟

ـ هناك إنها تلك التي تجلس بجانبه!

ـ أنا أتحدث عن (الأخرى) تلك الدخيلة التي اصطحبها السيد (ر) إلى العشاء.

ـ وأنا كذلك! قال المخبر.

ـ يبدو أن في الأمر التباساً ـ قال الشرطي ـ أتعرف هذه السيدة التي تقف مع السيد (ر)؟

ـ إنها تلك التي عزمها على العشاء!

ـ بل إن هذه هي زوجة السيد (ر) ـ أنا أعرفها منذ خمسة عشر عاماً!

ـ إذاً فمن ....؟ شهق المحقق وهو يقول ذلك وتابع: ارحمنا يا رحمن! فمن تلك المختبئة تحت المنضدة إذاً؟

وهرع إلى باب المتجر فقرعه بشدة ـ وهرع السيد (ر) إليه مفزوعاً ففتحه وما إن فعل حتى اندفع الشرطي والمخبر إلى الداخل!

ـ بسرعة! ابحث تحت المنضدة! صرخ التحري.

ورفع الشرطي غطاء المنضدة فسحب فستاناً أسود وخماراً أسود وشعراً مستعاراً له ذات اللون!

ـ أهذه زو.. زو.. زوجتك؟ سأل التحري مشيراً إلى ذات العينين السوداوين إلى جانبه... والتي كانت قد فغرت فاها دهشةً... وهي ترمق ما حولها بعين مكذب لما يحدث!

ـ بالتأكيد! على أني أريد تفسيراً لما يجري إن سمحتما!

ـ فتش متجرك وابحث في حقائبك سيدي ـ قال الشرطي وقد شرعت تفاصيل الحقيقة المرة تلوح له!

بلغت تكاليف الساعات والخواتم الألماسية المسروقة ثمانمائة دولار دفعها التحري كاملة صبيحة اليوم التالي!

وتم إيضاح الحقائق طرًّا لتاجر المجوهرات تلك الليلة، أما التحري فانهمك في معاينة صور لبعض المطلوبين للعدالة... وتوصل أخيراً إلى الصورة المطلوبة فأوقف بحثه المحموم وشرع ينتف في حنق شعر رأسه!

تحت صورة لرجل جذاب... دقيق الملامح... دُوِّنت هذه العبارات الوصفية: (جيمز ميجلز)، فلان الملقب بسميون الماكر، فلان الملقب بالأرملة النائحة، فلان الملقب بجيمي لص المنازل الحقير، المحتال والسارق المعروف... مشهور بالتنكر بزي النساء... خطير جداًّ ومُقْنِعٌ تنطوي على الجميع ألاعيبه... مطلوب في (كانسس سيتي)، (أوشكش)، (نيوأورلينز)، و (ميلواكي)!

هذا ـ يا سادة ـ هو ما حدا بالسيد (كيلينج) إلى عدم الاستمرار في عمله كرجل تحريات في «هيوستن»!

ورود وحَيلٌ... وغرام

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

قذف (راڤنيل) الرحالة الشاعر الفنان بالمجلة على الأرض، فقفز من هول ذلك (سامي براون) كاتب السمسار والذي كان مستنداً إلى النافذة مبحراً في عوالم أخرى!.

ـ ما الأمر (راڤينل)؟ سأله، أعاد النقاد إلى شن هجوم لاذع على إنتاجك ثانية؟

ـ قضت الرومانسية نحبها ـ رد بهدوء... وعندما يتحدث بتلك النبرة فإنه يعكس جديةً لا يتطرق إليها شك، وعاد فالتقط المجلة ثم نشر أوراقها في يأس.

ـ لا يخفى هذا العبث السائد على أبسط المحافظين أمثالك يا سامي، تأمل هذه المجلة التي طالما ازدانت صفحاتها بإنتاج ثر لفطاحل الأدب مثل (پو) و (لويل) و (ويتمن)...

انظر إلى ما تحويه راهناً: تقرير عن مستودعات الفحم في السفن الحربية، وعن فنون إعداد سجق الكبد، وقصة عن فتاة أمضت أسبوعاً عملت فيه جاسوسةً متخذةً من الخياطة ستاراً يحجب ذلك، وقصة سخيفة أخرى لا تقل سطحية عن ذلك، إلى جانب مقال عن الاستراتيجية الحربية موضَّحة ببضع مقاطع من أسطول «الأرمادا» الإسبانيّ... وأخيراً تسع عشرة صفحة من هراء دبّجه طاقم التحرير في الإشادة باتساع رقعة توزيع مطبوعتهم المبجّلة...

ولى زمن الإبداع يافتى وما حوته المجلة هو خير شاهد على احتضار الرومانسية.

واسترخى (سامي براون) على المقعد الجلدي المحاذي للنافذة المفتوحة.. كان أنيق الملبس حقّاً... بدلة ذات لون بني فاتح، تتخلله مربعات واضحة للعيان ناسبت لون أطراف السيجار المتدلي من جيب صدريته، أما لون حذائه فبني فاتح ارتدى تحته جوارب رمادية، فيما استقرت ربطة عنقه الزرقاء وقد وشّاها دبوس اتخذ نقوش فراشه فردت جناحيها فتجلت روعة ألوانها، وكان وجهه مستديراً متورد الخدين يريح النظر فكأنك تعرفه منذ أمد بعيد، على أنك إن حدقت النظر في عينيه فلن تعثر أبداً على ملاذٍ لغرام مهاجر!

وكانت نافذة شقة (راڤينيل) تطل على حديقة عتيقة تحوي أشجاراً وأزاهير شتى، وتظلل أحد جوانبها، فيما كان يفصلها عن الشارع سور من الطوب، وأما ما واجه النافذة فبيت قديم غطت معظمه أشجار كثيفة، كان كقلعة حصينة محاصرة بالحشائش والغبار، على أن مالكه المسنّ القاطن فيه لم يكن ليبعيه أبداً.

واعتاد (سامي براون) أن يأتي لزيارة شقة صديقه عدة مرات كل أسبوع، إذ إنه كان من أعضاء نادي الشاعر رغم أن التجارة قد قسّت طبعه وكادت تحيد به عن رقة الشعر وعذوبته وتهذيبه. ما ذرف على الرومانسية المحتضرة دمعة واحدة إذ إن عمله ككاتب سمسار ما كان ليتيح لغير رنين النقود أن يطربه. وكان يهوى الجلوس على ذلك المقعد الجلدي بجانب النافذة، ولم يكن ذلك ليضايق (راڤنيل) الذي أحب فيه حسن إصغائه وطابع الحداثة في سماته، كان باختصار خير أنموذج لكبش الفداء.

- سأخبرك عما حل بك - قال (سامي) بكل ذكاء السماسرة -

لقد رفضت المجلة نشر بعض أشعارك وهذا ما كدرك!.

- حدسك هذا ما كان ليخيب لو أنه كان في (وول ستريت) أو ضمن حملة لترؤس جمعية نسائية - قال (رافئيل) بهدوء - إليك بقصيدة لي - إن جازت التسمية - ضمن هذا العدد من المجلة.

- اقرأها عليّ! قال (سامي) وعيناه تتبعان سحابة دخان حلقت مغادرة المكان عبر النافذة المفتوحة إذ نفثها لتوه.

وفتح (رافئيل) المجلة ثم شرع يتلو ما أبدعته قريحته:

(الوردات الأربع)

❖ إحدى الورود قد جدلتُها أنا...

في ليل شعرك الطويل...

بيضاء كانت... سامقه

تحكي علو قدرك...

❖ وثانية.. أنت التي وضعتها بشعرك

حمراء كانت... تروي خروج حبنا إلى الحياة

❖ وثالثة! قد اقتلعتها من الجذور

وردة شاي كانت

ترمز للموافقة...

❖ ورابعة.. أهديتِها إليّ في خفر...

لكنها كانت مليئة بكل شوك... الذكريات

ـ رائع جدّاً! قال (سامي) بإعجاب.

ـ هناك خمسة أبيات أخرى ـ قال (راڤنيل) بذات الهدوء السافر.

ـ فلنسمع البقية إذاً ـ قال في لهفة ـ

لكن (راڤنيل) ما زاد على أن وضع المجلة جانباً.

ـ حسناً، قال (سامي) بمرح نؤجل ذلك إذاً إلى المرة القادمة، سأذهب الآن.. لدي موعد في الخامسة تماماً.

وألقى نظرة أخيرة على الحديقة الظليلة الخضراء ثم غادر المكان مطلقاً صفيراً هزليّاً ساخراً للحن مُعْوَجّ!.

عصر اليوم التالي كان (راڤنيل) يهذب أحد أبيات قصيدة سونية حين أطل من النافذة فلاحت له من بين الأشجار نافذة البيت العتيق لذاك البارون الذي أبى أن يبيعه فظل وفيّاً للذكريات... وهناك رأى فتاة أحلامه وملكة أشعاره.. كانت تطل منها وقد ارتدت رداءً أبيض... بدت شابة عذبة كقطرة ندى جميلة رشيقة، كتلة من الياسمين البري، يهدهد النسيم أعطافه في خميلة يانعة ملهمة، كقصيدة شاعر في زهرةٍ عبقرية الشذى... كانت تلك هي المرة الأولى التي تقع عينا (راڤنيل) عليها، فأثملته نشوة النظرة الأولى، وتمهلت قليلاً ثم اختفت مخلّفة حسرة في فؤاده وبضع مقاطع من دندنة حالمة ابتلعها هدير السيارات وجلبة المرور وكأنما كان ذلك الطيف قد بُعث كيما يتحدى تعلق الشاعر بالرومانسية، وتفانيه فيها، وعقاباً له على إيغاله في تفنيد

الجمال والصبا، فقد اخترق كيانه وتغلغل في أعماق روحه وهجاً لا ينطفئ... ملك عليه فؤاده ومشاعره بسرعة البرق... أجل ـ ناجى نفسه ـ ما تعدى الأمر دقائق معدودة تغيرت فيها ذرات وجوده فهو إنسان آخر... وحتى تلك العربات الثقيلة التي مرت بجوار بيتها كانت كأنما هي تعزف لحنًا وترياً عريضاً شجيّاً في منظومة العاطفة ذاتها، وبدا له صراخ باعة الصحف الصغار كما لو كان شدو بلابل، ورأى نفسه فارساً مغواراً يصول برمحه وسيفه في أرجاء الحديقة باحثًا عن مبارز!

كذا تتبدى الرومانسية بين غابات من الحديد والإسمنت، أما هي فقد تاهت بين أصقاع المدينة وكان لابد من إطلاق صافرة الإنذار للعثور ثانيةً عليها.

في الرابعة عصراً أطل (راڤنيل) ورمى ببصره عبر الحديقة ليستقر على نافذة أحلامه، فلاحت له أربع ڤازات أطلت من كل واحدة منها وردة متفتحة كبيرة بهية المنظر ساحرة... بيضاً كن وحمراً! ورآها وقد انحنت عليهن بكل جمال الشباب وعنفوان الحسن، رافعةً نظرها بين الفينة والأخرى.. صوب نافذته في نظرات حالمة... حزينة. وحينما أحست بأنها قد أثارت اهتمامه الرزين تلاشت ثانية تاركة رموزاً فوّاحة على حافة النافذة، وعبيراً في ثنايا فؤاده... رموزاً فواحة! استعاد تلك التسمية ثانية ـ ما أغباني وإذْ لم أفطن لذلك! قال لنفسه لقد قرأتِ قصيدته (الوردات الأربع) فاخترقت طيات فؤادها، وما أزهارها تلك سوى رد (رومانسي) من جانبها... أجل لابد وأنها قد علمت بأن الشاعر (راڤنيل) يقطن غير بعيد عنها في الناحية الأخرى من الحديقة، ولابد أنها قد رأت صورته في المجلة كذلك، إذ لا يمكن تجاهل تلك الرسالة الرقيقه المتواضعة التي بعثت بها ضمناً إليه.

وإلى جانب آنية الزهور لمح (راڤنيل) إناء وُضعتْ فيه نبتة ما وسارع ـ دونما خجل ـ بإحضار منظاره المقرب سابراً غور ما زرع في الوعاء فعرف فيه (جوزة الطيب الحمراء) وبحدس الشاعر سارع إلى كتاب (لغة الزهور) باحثاً عن دلالة لذلك فقرأ عبارة «أنتظرُ لقاءً» وكاد الشوق يبحر به إلى عوالم من الأمل المرتقب فالرومانسية لا تعمل على دفعات، بل إنها تمنح ما لديها طرّاً ـ قال في نفسه ـ ... إنها تستقرّ في مدخنتك منتظرةً منك أدنى إشارة. وابتسم (راڤنيل) وفم الشاعر يفتر عادة عن ابتسامة إما شعر بأول دلائل الانتصار، وفكر كم هي رقيقة الحس، شاعرية النبض، إذ ابتكرت فكرة الأزهار تلك، ثم عن له أن يحتال للقائها وخطبتها بعد أن أعطته الضوء الأخضر.

ودخل (سامي براون) يسبقه صفيرٌ وصفقُ أبوابٍ... اعتاد (راڤنيل) ذلك منه. ونظر الأخير إليه فلمح في كاتب السمسار ذي الوجه الطفولي، والهندام الأنيق خير مرافق للضيف الجديد لشقته، لكن (سامي) رنا إلى الحديقة الظليلة عبر الكرسي الجلدي الذي جلس عليه ثم نظر إلى ساعته قبل أن يهب في عجلة من مكانه.

ـ يا إلهي ـ قال بانزعاج ـ الرابعة والثلث يجب أن أذهب فلدي موعد في تمام الرابعة والنصف.

ـ فلماذا أتيت إذاً؟ سأله (راڤنيل) في دعابة ساخرة ـ إذا كان لديك موعد؟ ظننتكم أهل المال والأعمال حريصين على كل دقيقة.

وتوقف (سامي) في خجل قبل أن يصل إلى الباب ثم قال:

ـ الحـقـيـقـة يا (رافنيل) إنـي لم أعلم بأمـر هذا الموعـد إلا الآن... هناك غندورة لطيفة في ذاك المنزل العتيق المقـابل لشـقـتك ـ أنا مـتيم بهـا ونحن في واقع الأمـر مـخطوبان رغم مـعـارضـة والدها. بإمكانـي رؤية نافـذة (أديث) من هنا. إنها تعطيني إشارة عندما تزمع الذهاب للتسوق، وقد أشـارت اليوم إلى إنها تود أن تلقاني في الرابعة والنصف. وربما كان من الواجب إبلاغك بالأمر قبل ذلك على أني قد رجّحت بأنك ستفهم. إلى اللقاء!

ـ وكيف تستقبل تلك الإشـارة الدلالية منها ـ سـأله (رافنيل) وابتسـامتـه تفقد بريقها شيئاً فشيئاً.

ـ عبر الورد... دليل العشـاق ـ رد سـامي فيـمـا يشـبـه الحلم الغـافي في أحضان السعادة المطلقة ـ أربع منها اليوم وذلك في لغتنا يعني الساعة الرابعة في زاوية شارعي (برودواي) و (الثالث والعشرون).

ـ ولكن... كـانت هنـاك جوزة الطيب الحـمـراء ـ تابع (رافنيل) في إصـرار عنيد ملاحقاً دون أمل خيط ولهه المنساب.

ـ أوه ذاك يعني والنصف.

ـ صاح سامي من نهاية القاعة ـ أراك غداً!

مغامرة في... صالون حلاقة

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

حينما ولج (ساعي البريد) إلى دكان الحلاقة بالأمس ما كان هناك مقعد شاغر! عج المحل بالزبائن فتنفس الساعي الصعداء، إذ خيل إليه ـ لوهلة ـ أنه بمأمن من الحلاق وشفرته الرهيبة، على أن الأخير فطن إلى وجوده فألهبه بنظرة حادة استقرت عليه.

ـ دورك بعد هذا ـ أشار إلى سيئ الحظ الذي أسلمه رأسه. ورمقه ثانية بنظرة حارقةٍ يتطاير من أرجائها الشرر، فما كان من الساعي المسكين إلا أن غاص في كرسي سُمِّر إلى الجدار وسحابة من يأس مستحكم تكتنف كل ذرة في فؤاده، وأدرك أنه قد أُسقط في يده، وبأنه قد سعى إلى حتفه بظلفه!

بعد عدة ثوان تعالت جلجلة ودمدمة قذف خلالها بالزبون الذي كان على كرسي الحلاقة، والذي ما إن أيقن بالسلامة حتى ولى هارباً... والعامل الأفريقي يعدو خلفه بمقشّته المدببة الأطراف.

فأما ساعي البريد فقد ألقى نظرة طويلة صوب ضياء الشمس وعلق على ربطة عنقه ورقة صغيرة تتضمن عنوانه إذا ما حصل له مكروه، ثم توكل على الله فجلس على كرسي الحلاقة يائساً مستسلماً!

ورداً على نظرة التساؤل الحادة التي رمقه الحلاق بها أفاده بأنه لا يرغب في أن يحلق له، على أنه تلقى نظرة أخرى ملؤها الازدراء واللاتصديق!

وأمال الحلاق الكرسي، ثم عمد إلى رغوة الحلاقة فمزجها، وما إن شرعت الفرشاة في عملها قافزة بين ثنايا وجهه المذعور يمنة ويسرة وشمالاً وجنوباً ملغيةً حواسّه طرّاً حتى غاص في مقعده منهاراً، ولم يُعِدْ إليه وعيه سوى صوت تلك الآلة الفولاذية التي كان الحلاق يجرف الرّغوة بها ثم يمسحها في كم قميص الساعي!

ـ بات امتطاء الدراجات الهوائية الشغل الشاغل للجميع الآن!

لسوف يصعب على النخبة قصرها على طبقتهم... ليس بالإمكان منع الناس من ركوبها والشوارع ملك للجميع كما تعلم... أنا شخصيّاً لا أرى ضيراً في تلك الهواية التي تتسع دائرة شعبيتها يوماً بعد يوم... حتى يستيقظ الناس يوماً والنساء يمخرن بدراجاتهن عباب الطرقات العامة... من يدري!

إنه تمرين جيد لهن، ولسوف تعوض تلك المزيّة بشاعة الشكل الذي ستبدو إحداهن عليه وهي تقود دراجتها كقطيع من القطط المتصارعة فوق حبل غسيل. على أني أعجب من صبرهن على ما يلاقينه في خضمِّ تقليدهنّ للرجال، أليس بإمكانهن امتهان الرياضة دون الظهور بذلك المظهر الخشن غير اللائق بما حباهن الله من أنوثة ورقة؟! لو أخبرتك بما فعلته إحداهن منذ بضعة أيام فلن تصدقني!

وحدق على إثر ذلك زبونه بنظرة رهيبة جعلت المسكين يصارع الاختناق تحت طبقات من رغوة كثيفة هازًّا رأسه مؤكدًا تصديقه المطلق للخبر المنتظر.

ـ تمّ استدعائي إلى بيت في شارع (مككيني) فحملت عدة الحلاقة واتجهت إلى العنوان المطلوب، وكان ثمة شابة مليحة تجول بالدراجة أمام البوابة مرتدية تنورة قصيرة وجوارب طويلة وسترة رجالية كتلك التي يرتديها معشر الذكور!

وطرقت البـاب، ففتحـوا وأدخلوني إحدى الغرف، ولم تمض فترة حتى جاءت فتاة الدراجة إياها... وأعقب ذلك دخول سيدة خمّنت أن تكون والدتها ـ باشِرِ الحلاقة ـ قالت الشابة: وليكن ذلك مرتين على التوالي لا تتأخر فلدي ارتباط!

وصعقت لهول المفاجأة!

ـ تابع الحلاق ـ على أني تمالكت نفسي فأخرجت عدة الحلاقة. كان جليّاً أن تلك الشابة تتحكم في أمور البيت دون منازع. وهمست والدتها في أذني بأن ابنتها من تلك الفئة التي ترأس جماعة طلابية تطالب بتحرير المرأة وأن تمكنها من إطالة شاربها قد أتاح لها مكان الصدارة عليهن، واسترخت الشابة في مقعدها فأقفلت عينيها، أما أنا فغمست الفرشاة في معجون الحلاقة ثم مرّرته برفق على شفتها العليا وما إن فعلت حتى قفزت من مقعدها في غضب صاعق مفاجئ تطاير شرره من عينيها.

ـ كيف تجروء على إهانتي ـ قالت كزوبعة جارفة وكأنها توشك أن تلتهمني!

اترك المكان فوراً ـ اخرج من هنا. صاحت مستشيطة.

وألجمت المفاجأة لساني ثم عدت فخمنت أنها طائشة متهورة فجمعت على عجل عدتي واتجهت صوب الباب الذي ما إن وصلت إليه حتى عاودني شيء من حضور الذهن فقلت لها:

ـ أنا متأكد آنستي أني لم أفعل ما يوجب الغضب، إنني أتصرف كشخص مهذب متى استدعى الأمر ـ كيف أهنتك؟

- غادر! - كررت وضبابات من مواقد الغضب الغالية بمرجل ذاتها لما تزل تلقي على محيّاها بظلالها إنّ بإمكاني تمييز القبلة المتسللة!

وهكذا فقد غادرت المكان. ما رأيك؟ سأله الحلاق بعد أن دفع بأصبعه كمية لا يستهان بها من معجون الحلاقة في فم الساعي!

- يخيل إليّ... أنه من الصعب بمكان تصديق قصة كهذه!

قال الساعي بعد أن استدعى كل ما يملك من شجاعة.

وتوقفت يد الحلاق عن العمل فجأة ثم رمق فريسته بنظرة خبيثة حوت ضراوة هدوء ما قبل العاصفة جعلت الأخير ينتفض فَرَقاً ويسارع إلى قول:

- على أنه من الجليّ أنها حدثت كما قلت.

- لقد وقعت أحداثها فعلاً - قال الحلاق - باستطاعتي إثبات ذلك... أترى ذلك الإبريق الأزرق على الرفّ؟ الثالث من اليمين؟ حسنًا إنه الإبريق الذي حملته معي ذلك اليوم - أعتقد أنك الآن قد صدّقت ما قلت.

- وما دمنا في معرض الحديث عن الرؤوس الصلعاء - قال الحلاق رغم أن أحداً ما نبس ببنت شفة عن الرؤوس الصلعاء فقد تذكرت قصة ذلك الرجل الذي خدعني هنا في (هيوستن).. أنت تعرف أنه ما من شيء - غير الله - بقادر على إعادة الشعر إلى رأس أصلع... كم من الأدوية تباع إذكاءً لذلك الأمل على أنه لا يمكن إنبات جذور ماتت وشبعت موتاً.

جاء رجل إلى دكاني الخريف الماضي وطلب مني أن أحلق له. كان رأسه أصلع أملس ككوب شاي، ولم يكن بإمكان مستحضرات العالم إصلاح الحال. كان الرجل غريباً بالنسبة لي لكنه أخبرني أنه يدير مزرعة في أحد أطراف المدينة.

وجاء إلى المحل مرتين ثم فاجأني في الثالثة برغبته في أن أعيد الشعر إلى رأسه.

وتوقف الحلاق عند ذلك عن الكلام المباح، ثم عمد إلى رفٍّ أحضر منه شريطاً لاصقاً للجراح قبل أن يحدث بذقن الساعي جرحاً غائراً ألصق عليه قطعة منه وتابع:

ـ حينما يطلب الرجل محلول شعر في دكان حلاقة فمن السهل أن يحصل عليه. بإمكانك تركيب مستحضر يظل الإنسان يستخدمه لفترة طويلة قبل أن يكتشف عدم جدواه... ويظل يتردد إبان ذلك عليك لتحلق له ذقنه، لقد أوهمت زبوني أن الدواء الذي وضعته له كفيل ـ إما واظب على استعماله ـ بإنبات الشعر في أملس الرؤوس.

لقد جلست فامتشقت ورقةً وقلماً وكتبت له وصفة أخبرته أن بإمكانه الحصول عليها من أقرب صيدلية تتولى تركيبها... وأمرته ألا يخبر أحداً بمحتوياتها لأني بصدد استصدار شهادة ملكية تحفظ حق تصنيعها لي، هكذا قلت له.

كانت الوصفة تحوي أشياء عدة غير ضارة: أملاح وزيوت اللوز وماء الورد وعناصر أخرى كتبت ذلك كله بشكل عشوائي لم أكن معه لأتمكن بعد مرور نصف ساعة من استحضار المواد الموصوفة ثانيةً! ودفع الرجل لي دولاراً ثم اتجه بها صوب إحدى الصيدليات.

وجاء إلى دكاني للحلاقة مرتين ذلك الأسبوع مؤكداً أنه يواظب على استعمالها ثم توقف عن المجيء لمدة أسبوعين وفاجأني بحضوره ذات ظهيرة معلقاً قبعته فور دخوله!

وصعقت حينما نظرت إلى رأس يعلوه أنعم وأغزر شعر رأيته... مستحيل! ـ قلت في نفسي أن يكون هذا الرأس بعينه هو ذلك الذي كان قبل أسبوعين أصلع كأكرة باب ! وأكد لي أنه غاية في السرور وأن سعادته بشعره الجديد لا تُضاهى وعصرت ـ وأنا أحلق ذقنه ـ فكري محاولاً تذكر بعض ما كتبته من محتويات تلك الوصفة العجيبة فما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وأُسقِط في يدي... إذ إني كنت على ثقة بأني قد وقعت بمحض الصدفة على تركيبة تعيد الشعر للرأس الأصلع... تركيبة قد تعود عليّ بمليون دولار لو تمكنت من استحضار عناصرها ـ تركيبة قد تدرّ علي أكثر ما يدره منجم ذهب! وقررت استرجاع تلك الوصفة منه؛ لذا فقد قلت له وهو يهم بترك المحل... بلهجة عادية: لا تخامرها رنة اهتمام:

ـ بالمناسبة سيد (بلنكت) لقد أضعت كتاب الوصفات الطبية وحيث أنّ علي تحضير زجاجتين منه فإني آمل أن تعطيني تلك الورقة التي دونتُ لك الوصفة فيها، أود استنساخ صورة لها ما دمت هنا.

ويبدو أن القلق ساعتها كان بادياً عليّ إذ إنه احتواني بنظرة طويلة غرق بعدها في ضحك عميق وقال:

ـ أقسم بالله إنك لا تحتفظ بوصفة لها، وإنك إنما كتبت عناصرها بشكل عشوائي فأصبت مستحضرًا عبقريًا دون أن تدري ـ لا ريب وأني سأربح الملايين من ورائها.

سأكلف أحد المعامل بإنتاج كميات كبيرة منها.

وشرع الرجل في مغادرة المحل فناديته ثانية وانتحيت به ركناً قصيّاً أمضيت فيه نصف ساعة معه... محاولاً إقناعه ببيعها لي ـ الوصفة أقصد ـ

وبعد طول جدل وافق أن يتخلى لي عنه مقابل مائتين وخمسين دولاراً أدفعها له نقداً. وهرعت إلى المصرف من فوري فسحبت جميع ما ادخرت لبناء بيت جديد، عندها سارعت بدفع المبلغ له فأعطاني الوصفة العجيبة بدوره ووقّع على تنازل كامل لي بالحقوق ذات الصلة، كما وافق على التوقيع على اعتراف منه ـ كمجرب فعلي ـ بالنتائج المذهلة لها. خلال أسبوعين فقط من بداية الاستعمال.

وبدا الحلاق في امتطاء الاكتئاب والحزن الغاضب فأدخل أصابعه في ياقة الساعي بحدة تمزقت معها فتحة الزر الذي انطلق كصاروخ عبر الباب عابراً الرصيف إلى الطريق العام.

ـ في اليوم التالي شرعت في تنفيذ تلك المهمة ـ تابع الحلاّق ـ فعبأت في «واشنطن» طلباً بحق ملكية وصفتي تلك، واتفقت مع إحدى الصيدليات الكبرى في «هيوستن» لتتولى تسويق منتجي، وبريق الثروة المتوقعة يكاد يذهب ببصري وبصيرتي، ثم قمت بتخصيص إحدى الغرف لتركيب ذلك الدواء إذ إني لم آمن عليه أن يسرق إذا ما قامت الصيدلية بتجميعه، ودفعت به إليهم فوضعوا الملصق عليه بعد أن قاموا بتعبئته في زجاجات أنيقة.

وتفرغت لذلك كلياًّ حتى إني تركت عملي بدكان الحلاقة، وكان السيد (بلنكت) قد زارني مرتين أو ثلاثاً فلاحظت أن شعره لم يتوقف عن النمو. ولم تمض فترة حتى تمكنت من إعداد ما قيمته مائتا دولار على أن يوافيني السيد (بلنكت) يوم السبت كيما يقدم شهادته المتفق عليها لأقوم بدوري بطباعتها على دوريات ومنشورات أغرق المدينة بها، وكنت أنتظره في غرفتي التي ركّبت المستحضر فيها الساعة الحادية عشرة من يوم السبت حينما فتح الباب ودخل السيد (بلنكت)! كان غاية في الانفعال والغضب:

ـ اسمع ـ صاح قائلاً ـ ماذا دهى محلولك الجهنمي؟

ورفع قبعته فلاحظت أن رأسه كان أصلع لامعاً كبيضة من الصيني.

ـ لقد سقط عن بكرة أبيه! قال بصوت أجش. كان ينمو بشكل طبيعي حتى صباح الأمس حيث بدأ في التساقط إلى أن غدا بلقعاً كصحراء قاحلة هذا الصباح. ما فائدة دوائك؟

ـ سألني بغضب ـ إن كان يطيل الشعر ليسقط بكامله لاحقاً!

ـ ناشدتك الله سيد (بلنكت) ـ قلت متوسلاً ـ ألا تتحدث عن ذلك وإلا خربت بيتي. لقد استثمرت جميع ما أملك في هذا الدواء وعليّ أن أستعيد نقودي. ادل بشهادتك كما اتفقنا لقد أعطيتك مائتين وخمسين دولاراً.

لكنه كان غاضباً جداً وهددني بأنه سيشهر بي كمحتال ولم يلجم ثورته سوى مائة دولار وافق أن يأخذها مقابل صمته، وخرجت فاستدنت المبلغ ودفعته إليه، عندها قام بتحرير شهادة ذيلها بإمضائه وغادر المكان.

ـ وهل وفقت في بيع مستحضرك؟ سأله الساعي بنبرة رقيقة حرص ألا تستفزه ـ على أن الحلاق رمقه بنظرة احتقار وسخط قبل أن يقول بمنتهى السخرية:

ـ أجل... بالطبع نفذت الكمية بكاملها. وتوقف قبل أن يقول متهكماً ـ ما بعت منه سوى خمس زجاجات، جاء مشتروها بعد شهر لاسترداد ما دفعوه... ما نمت شعرة واحدة في رأس أي منهم ـ.

ـ وكيف تفسر نمو الشعر إذاً في رأس السيد (بلنكت) ؟

سأله ساعي البريد.

ـ وكيف أفسّر ذلك؟

ـ كرر الحلاق السؤال بنبرة خطيرة مرعبة جعلت الساعي يرتعد فرقاً ـ كيف أفسّر ذلك سأقول لك كيف:

ذهبت يوماً إلى أقصى المدينة حيث يقطن السيد (بلنكت) وسألت عنه.

ـ أيٌّ سيد (بلنكت) تريد؟ سألني رجل أطل من البوابة.

ـ هيا! دع المزاح! السيد (بلنكت) الذي يقطن هنا.

ـ لقد رحل كلاهما.

ـ ماذا تقصد (بكليهما)؟ قلت... ثم أعملت الفكر فسألته:

ـ صف لي الأخوين (بلنكت).

ـ إنهما (كفوله) قسمت نصفين ـ كانا توأمين متشابهين إلى درجة بات من المستحيل معها التميز بينهما مظهراً أو صوتاً، الفارق الوحيد بينهما هو أن أحدهما كان يتمتع بشعر كثيف، فيما كان رأس الآخر أصلع كبيضة دجاجة.

ـ وهكذا ـ قال الحلاق ساكباً سائلاً لزجاً داخل قميص الساعي ـ هكذا أفسر ذلك! كان (بلنكت) الأصلع يأتي يوماً، ويفد أخوه ذو الشعر يوماً آخر دون أن أتمكن من التمييز بينهما على الإطلاق.

عندما انتهى الحلاق من عمله... لاحظ ساعي البريد أن الأفريقي كان يترصد بمكنسته المدببة له، فما كان منه إلا أن فرّ عبر الباب الخلفي قبل أن يتسلق جداراً من الطوب فتبتلعه إحدى الحارات الجانبية.

النائبات... حين تؤاخي

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

عَبْرَ النافذة... ولج اللص إلى الغرفة سريعاً ثم تأنّى!

تلك الأناة كان مصدرها قناعة ذاتية لديه مؤدّاها أن اللص الذي يحترم مهنته... يأخذ ـ كمبدأ ـ وقته قبل أن يأخذ أي شيء آخر.

كان البيت مسكناً خاصاً، وبنظرة سريعة إلى هيئة الباب الخارجي وذاك اللبلاب المتطاول الذي ما عرف مقص المزارع منذ فترة أدرك اللصُّ أن صاحبة المنزل كانت تسترخي في إحدى الشرفات المطلة على المحيط محدِّثةً صاحب يخت متعاطفٍ... حَسَنَ الإصغاء كيف أنها لم تجد بعد من يتفهم رقة قلبها ووحدة روحها وعنوان أحاسيسها.

وأنبأه النور المتسلل من النوافذ الأمامية بالطابق الثالث، بأن رب البيت قد آب إليه، بأنه عما قريب سيعمد إلى النور فيطفئه قبل أن يخلد إلى نوم عميق... كان فصل الخريف... زمناً وروحاً حيث يزهد سيد البيت في حدائق السطح وروعة التصميم الهندسي، ويظل يتوق لعودة إلفه وخدين روحه... زوجته الحبيبة.

وأشعل اللص لفافة تبغ فأبرز وهج القدّاحة الخاطف ملامحه الناتئة. كان ينتمي إلى الفئة الثالثة من طبقة اللصوص وهي فئة لم يُعترف بعد بها أو يرخّص لها.

لقد أحاطتنا الشرطة علمًا ـ من واقع التجربة ـ بالنوع الأول والثاني منهم إذ إنّ بالإمكان تصنيفهم عطفاً على نوع ياقاتهم، فالذي يضبط متلبّساً بجريمة السرقة دون ياقة هو من أردأ الأنواع على الإطلاق وأكثرها انحلالاً ودونية.

أما النوع الآخر ـ ذو الياقة أعني ـ فغالباً ما ينظر إليه على أنه من الموسرين، شخص جدير بالاحترام حقاً، نهاراً هو لا يتناول إفطاره إلا بكامل بدلته الأنيقة، حتى إذا ما جن الليل ونفث المساء أدخنته السوداء عاد إلى مهنة السطو المشينة، كخفافيش الظلام!

ولهذا النوع من اللصوص زوجة في كل ولاية وخطيبة بكل مقاطعة وله كذلك نفوذ إعلامي لا يحد، تعززه التأكيدات المستمرة الواردة من العديد من النساء اللواتي تم لهن الشفاء على يديه بعد الجرعة الأولى من علاج وصفة لهن، بعد أن أضنتهن مراجعة الأطباء المَهَرة دون جدوى!

كان لصنُّا يرتدي سترة زرقاء وهو كما أسلفنا... من النوع الثالث الذي يصعب تحديد فئته... كم ستحتار الشرطة في تصنيفه لو شاء له حظه العاثر أن يقع في يدها.

وشرع صاحبنا في التجوال خلسة كيما ينفّذ مهمته التي جاء من أجلها.

لم يكن يرتدي قناعاً أو أحذية مطاطية كاتمة للصوت كلا... ولم يكن يحمل فانوساً داكناً، لكنه كان يخبئ بجيبه مسدساً من عيار ٣٨، ويلوك بشراهة قطعة لبان بنكهة النعنع الفلفلي، وكان أثاث المنزل ملفوفاً بأغطية لحفظه من تسلل ذرات الغبار إليه، أما آنية الفضه فقد كانت محفوظة في خزانات بعيدة المنال.

ونظر اللص إلى ما حوله... لم يكن يتوقع تغيراً في مجرى الأحداث، وحصر جلّ تفكيره في هدفه الوحيد... الغرفة العليا ذات الإضاءة الخافتة حيث يغرق رب المنزل في نوم عميق بعد جهد يوم مضن أمضاه في امتياح عزاءٍ لروحه جراء ما يشعر به من فراغ رهيب وشوق لشريكة حياته لا يحَد!

ربما عثرتُ على بعض المال... ساعة يد ثمينة... قلم مرصع بالمجوهرات أو ما أشبه ذلك ـ قال لنفسه ـ إذ سهّل صاحب المنزل مهمته بترك إحدى النوافذ مفتوحة على مصراعيها!

وفتح اللص بلطف باب الغرفة المضاءة، وعلى السرير كان رب البيت يغيب في متاهات المنام وتناثرت ـ على التسريحة ـ حاجيات كثيرة.. ساعة ورزمة فواتير... مفتاح... وسيجارات دُقّت أعقابها، ربطة شعر حريرية وردية.. علبة مسكّن فوّار لم تُفتح بعد أن ابتاعها المسكين درءًا لأوجاع الصباح.

وخطا اللص صوب «التسريحة» ثلاث خطوات وفجأة تمتم المستلقي ببضع كلمات حادة و... فتح عينيه واندسّت يده اليمنى تحت الوساده على أنه أبقاها هناك!

ـ ابق ساكناً! قال له اللص بلهجة تقليدية تحاديثة هادئة. إذ إن لصوص الفئة الثالثة لا يهمسون!

ـ ونظر المواطن الجاثم في سريره إلى نهاية ماسورة المسدس المستديرة فما تحرّك!

ـ ارفع كلتا يديك!

ـ صاح اللص به.

ـ كانت لحية المسكين قصيرة مدببة مازج سوادها شيء من الشيب كلحية طبيب أسنان ماهر... وبدا الرجل ثابت الجنان، أبيّاً... واثقاً من نفسه... و... مشمئزاً. وجلس في سريره رافعاً يده اليمنى فقط!

ـ ارفع اليسرى ـ كرر اللص توزيع الأوامر ـ قد تكون ثنائي اليدين فتطلق عليَّ النار بيسراك! بإمكانك أن تعدّ إلى الرقم اثنين. هيا ارفع الثانية قلت لك.

ـ لا يمكنني أن أرفع الأخرى! أجابه الرجل بأسارير مكفهرة.

ـ ما بها؟ استفسر اللص.

ـ روماتيزم في الكتف!

ـ أهو من النوع الملتهب؟

ـ أجل! وقد تغلغل الالتهاب فيها.

ولثانية أو اثنتين بقي اللص واقفاً وفوهة مسدسه مصوبة نحو اليد العليلة لضحيته... وتسللت نظراته هنيهة إلى الغنيمة المتناثرة على صفحة التسريحة... على أنها عادت محرجةً كيما تستقر على الرجل أمامه، فيما علت وجهه كذلك تكشيرة مفاجئة!

ـ لا تقف هكذا مستعرضاً تعابير وجهك ـ قال المواطن له بمزاج متعكر ـ إن كنت قد أتيت بقصد السرقة فسارع بإنهاء ما وفدت من إجله. أمامك بعض الحاجيات هنا وهناك! هيّا!

ـ معذرة صديقي! قال اللص متبسماً، على أني لم أكن أتوقع أن أصادف ضحية (روماتزم).. إذ أني؟ وهذا المرض صديقان لا يفترقان، لقد أصاب يدي اليسرى. لو كان اللص شخصاً آخر لطرحك أرضاً حينما رفضت رفع يدك!

ـ وهل يلازمك الروماتيزم منذ مدة طويلة؟ سأله الرجل.

ـ منذ أربع سنوات على أني أعتقد أن من يصاب به سيلازمه طول العمر.

ـ ألم تجرب زيت ذاتِ الأجراس؟ سأله الرجل باهتمام.

ـ بل استهلكت من ذلك عدة جالونات، ولو أن الحيّات التي استخدمت زيتها قد مُدّت كحبل لبلغت كوكب زحل ولسمع صليل أجراسها سكان (ڤالباريزو) في آنديانا.

ـ يتداوى بعض المصابين بحبوب (التشيسلم) ـ قال الرجل!

ـ محض هراء ـ استعملت ذلك لمدة خمسة أشهر فما استفدت، على أني قد ارتحت قليلاً حينما استعملت خلاصة «الفينكلام» وأنواع أخرى، لكني أعتقد أن ما أفادني حقّاً ـ بعد الله ـ هو كستناء الحصان الذي كان في جيبي دوماً.

ـ وهل يزداد الألم صباحاً أم مساء؟ سأله الرجل.

ـ بل إنه لا يداهمني إلا مساء... حينما أكون مستغرقاً في العمل. هيه... انزل يدلك... لا أظنك...، قل لي هل جربت دواء (بليكوستاف)؟

ـ أبداً! أخبرني... هل يداهمك الألم في هيئة نوبات أم أنه مستمر؟

وجلس اللص على حافة السرير فأراح مسدسه على ركبته المثنية وأجاب: بل إنه يتنقّل كما يحلو له ـ وهو يفاجئني في أحلك الأوقات حينما أكون منهمكاً في عملي، حتى إني قررت اعتزال سرقة الطوابق الثانية لأني غالباً ما كنت «أتورط» مع تلك النوبات إبّان انشغالي... اسمع... لا أظن أن الأطباء مُلمّون بكيفية علاج تلك الحالة؟

ـ نحن في العذاب يا رفيقي صنوان ـ رد الرّجل ـ لقد صرفت ما ينيف على ألف دولار دون فائدة، تُذْكَرُ ما زالت الآلام الممضة كما هي همٌّ بالنهار وعذاب بالليل وأرق ـ أتتورم يدك؟

ـ آن الصباح... وحين تنذر السماء بمطر...!

ـ وأنا كذلك ـ رد الرجل ـ حتى إن بوسعي معرفة الوقت الذي ستصل فيه موجة رطوبة بحجم غطاء مائدة الطعام قادمة من «فلوريدا» إلى «نيويورك» يقفز الألم ساعتها على امتداد ذراعي اليسرى كنوبة حادة... ممضة من ألم الأسنان!

ـ ذاك هو الجحيم بعينه ـ لا تسلني يا رفيقي ـ علّق اللص.

ـ أنت محق تماماً! أجابه الرجل.

ونظر اللص إلى مسدسه ثم غيّبه بتلقائية في جيب معطفه قبل أن يقول بتبرّم:

ـ ألا أخبرني أيها الشيخ هل جرّبت (الأبودلدك)؟

ـ هراء... قال الرجل غاضباً ـ لا يتعدّى مفعوله دَهْنَ الذراع بزبدة مطعم!

ـ بالتأكيد! قال اللص ـ لا يصلح إلا كعلاج لخدوش القطط!

أظنّ أن خير علاج لذلك هو شيء من الشراب المنعش الصحّي تأثيره حسن فيما يختص بحالتينا!... ارتد ملابسك وهيا بنا... آه ها قد عاودتني نوبة الألم ثانية! قال متأوهاً!

ـ لأسبوع خلا ما كنت قادراً على ارتداء ملابسي دون مساعدة... كان الألم رهيباً... على أني أخشى أن يكون الخادم قد خلد إلى النوم!

ـ هيا أنا سأساعدك على ارتدائها.

على أن موجةً مباغتة من تلك الآلام التقليدية داهمت الرجل.

ـ فجأة فما زاد على أن مسّد لحيته المدببة التي احتلّ المشيب نصف أرجائها.

ـ أمر غير عادي ـ قال!

ـ إليك بالقميص ـ قال له اللص ـ مناولاً إياه إذ سقط منه ـ أعرف رجلاً قال أن مرهم (الأمبري) قد أفاده كثيرًا بعد أسبوعين فقط من الاستعمال حتى أنه بات قادراً على إحكام ربطة العنق « المنزلقة» (رغم صعوبة ذلك) بكلتا اليدين!

وفيما كانا يتوجّهان صوب الباب... توقّف صاحب البيت فجأة وهم بالعودة إلى التسريحة:

ـ كدت أنسى أن آخذ نقودي ـ نقودي ـ وضعتها على التسريحة ليلة أمس و...

على أن اللص جذب بمرح كمّه الأيمن!

ـ هيا ـ قال آمراً ـ دع النقود كما هي ـ أَحْمِلُ كامل القيمة... ألا قل لي... هل سبق أن جرّبت (نبات المشتركة «الهاماماليس») وزيت «الغُلطيرة المسطحة»؟

حالة غريبة

A Strange Case

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

عندما التقى أحد مراسلي جريدة (البوست) ذات ظهيرة صديقه ـ وكان طبيباً في مقتبل العمر من مدينة « هيوستن» ـ اقترح عليه أن يتوجها إلى مقهى قريب يتناولان فيه شيئًا من شراب الليمون عله يطفئ بعضاً من وهج الظمأ ولظى الصيف المتأجج، ووافق الطبيب فاتجها إلى هناك واتخذا لهما مكاناً في ركن هادئ قصي تتدلى فوقهما مروحة كهربائية، وبعد أن دفع الطبيب ثمن الشراء أدار المراسل دفة الحديث صوب طبيعة عمل صاحبه سائلاً إياه عما إذا كانت قد قابلته أثناء عمله حالات طبية غريبة.

ـ نعم بالطبع ـ رد الطبيب حالات كثيرة لا تتيح لي ضوابط المهنة إفشاءها... على أن هناك حالات لا تتضمن سرية خاصة لكنها غاية في الغرابة... كتلك التي مرت بي منذ أسابيع قليلة... ودون ذكر أية أسماء سأروي لك ماحدث:

ـ بالتأكيد تفضل بذلك إن سمحت ـ قال المراسل ممّنياً النفس بوجبة صحفية دسمة تولمها الجريدة لقرائها ـ وتابع: وسوف نطلب إبّان ذلك مزيداً من شراب الليمون.

وبدت الجدية على ملامح الطبيب الشّاب فيما يختص بذلك العرض على أنه وافق بعد أن بحث في جيبه فوجد ربع دولار.

ـ منذ أسبوع تقريباً كنت جالساً في مكتبي متطلعاً إلى مقدم أي مريض عندما طرق سمعي وقع أقدام رفعت على إثره نظري فوقع على شابّة جميلة، وخطت نحوي في أغرب طريقة يمكن لفاتنة أن تمشي بها!

كانت تترنّح وتتعثر متمايلة يمنة ويسرة حتى تمكنت في النهاية وبعد جهد جهيد من الوصول إلى الكرسي الذي قدمته لها، وكان وجهها غاية في الجمال إلا أن خطوط الكآبة والأسى كانت مرتسمة عليه لما تزل.

ـ أيها الطبيب!

ـ قالت بصوت عذب رخيم يعكس ألماً ممضّاً دفيناً أرغب في استشارتك بخصوص حالتي الغريبة ولسوف أضطر إبان ذلك إلى إزعاجك بسرد تاريخ عائلتي الطويل الأليم المضرج بالمآسي الدامية.

ـ سيدتي قال الطبيب ـ كلي آذان صاغية ووقتي تحت تصرفك فهاتي ما لديك إذ إن كل معلومة ستفيدني بإذن الله في رسم التشخيص الملائم لحالتك.

وشكرتني بابتسامة مسحت لوهلة خطوط الأسى المرتسمة على ملامحها:

ـ كان أبي أحد أفراد عائلة (آدامز) المنتمية إلى ولاية (تكساس)... قد سمعت عن عائلتي لاريب.

ـ قد يكون الأمر كذلك ـ أجبتها ـ على أن عائلات كثيرة تتسمى بلقب (آدامز) ولذا...

وقاطعتني بإشارة من يديها ـ لا يهم ـ فاسمع حكايتي إذاً: منذ نصف قرن شب نزاع بين عائلة جدي (الآدامز) وعائلة عريقة أخرى من (تكساس) كذلك تدعى (الردموند) ولو أن المعارك التي نشبت بين العائلتين وما جرى من سفك للدماء دوِّن لملأ مجلدات عدة، لقد أعاد ذاك النزاع قصة الوقائع الطاحنة التي جرت بين ولايتي وست ڤيرجينيا و (كينتاكي)... ماضٍ لطخته حروب الانتقام والثأر والحقد الجارف ـ ولو أن أحد أفراد العائلتين التقى شخصاً من العائلة الأخرى لأطلق النار عليه للتوّ سواء أكان ذلك وغريمه يتناول وجبة في أحد المطاعم... من وراء سور... أو حتى في دار العبادة لا يهم... أبعاد الزمان والمكان ثانويّة، إما ظفر أحدهما بالآخر، ما كان للحقد المتأصّل بين العائلتين حد... تسميم آبار وإبادة مواش، وإذا ما التقى اثنان فإن واحداً منهما فقط سيغادر المكان! حتى الأطفال ـ أيها الطبيب ـ زرعوا الحقد والكراهية في قلوبهم، حتى إذا ما شبوا عن الطوق وآن الحصاد استشرت الضغينة والقتل والفساد ورفعت كل طائفة بيرق القتال!

وظلت الحال على ما هي عليه مدة ثلاثين عاماً، وأتى المسدس والبندقية على السواد الأعظم من أبناء القبيلتين حتى لم يتبق منهما ـ منذ عشرين عاماً ـ سوى شخصين!

فرد من كل قبيلة: (ليمول آدامز) و (لويزا ريدموند) كانا في ميعة الصبا وشرخ الشباب وربيع الحسن التقيا فأذكى الغرام ضرام الوجد في قلبيهما، ونسيا ما كان بين عائلتيهما من أحقاد، وتزوجا فأسدلا الستار بذلك على فصل لا يوصف من الكبرياء والخيلاء والأحقاد وسفك الدماء على أن ذلك كله... ويا للأسى ـ سيدي ـ قد أصاب كبداً غضة بريئة. كنت أنا ثمرة ذلك

الزواج إذ إن دماء القبيلتين المتنافرتين المتمثلة في أبي وأمي لم تمتزج في عروقي... كنت طفلة عادية... لكن جمالي كان باهراً!

ـ واضح ذلك تمام الوضوح سيدتي ـ قاطعتها.

وتضرج خداها بحمرة الخجل وهناً على أنها تداركت نفسها وعادت لتقول: ما إن كبرت حتى اضطرمت في ذاتي نيران متأججة وحروب طاحنة واهتز لها كياني أيها الطبيب. كل خاطرة أو حركة أقوم بها تقابلها أخرى تعاكسها وتضادها تماماً! أنا على يقين أن ذلك كله هو نتيجة حتمية للعداء الموروث المنساب في عروقي مع ذرات دمي المائج الذي ينتمي إلى قبيلة (الآدامز) فيما ينتمي النصف الآخر مني إلى قبيلة (الردموند) وتخيّل سيدي: لو أني هممت بإلقاء نظرة على شيء ما لاتجهت إحدى عيني صوب شيء آخر، ولو أني هممت برش قليل من الملح على البطاطا لتطوعتِ الأخرى برش شيء من السّكر! وكلما امتدت يدي إلى البيانو لعزف إحدى روائع «بيتهوفن»... سارعت اليد الأخرى بنقر... إحدى المارشات العسكرية ما كانت الدماء المختلفة لتتمازج في أوردتي، وكثيراً ما كنت ألج محلاً لبيع المثلجات فأطلب بوظة بنكهة الفانيليا فيما يهتز جسدي مناشداً إياي أن أختار نكهة الليمون، وعندما يحين المساء ويرخي الليل سدوله أعمد إلى ارتداء ملابس النوم فيما يؤرقني شعور مضاد... مهيباً بي أن أرتدي ملابس الخروج وأعتمر حذائي! هل مرّتِ بك حالة غريبة كهذه أيها الطبيب؟

ـ مطلقاً ـ أجبتها ـ إنها بالفعل حالة فريدة من نوعها ـ ولكن ألم يتح لك التغلب على تلك الظاهرة المزعجة؟

ـ بلى سيدي ـ بعد كثير من المران الدؤوب الطويل. على أن مشكلتي الآن تتمثل في الناحية الحركية من الجسد فقط، إذ إن الجزء السفليّ من جسدي لا يتطابق مع ذاته... فلو أني همت بالمضيّ في اتجاه ما لأطاعتني إحدى الجهتين فيما حاولت الأخرى السير في الاتجاه المغاير وربما يعود السبب في ذلك إلى أن نصفي ينتمي إلى عائلة (الآدامز) فيما ينتمي الآخر إلى عائلة (الردموند)... تلك سيدي هي مأساتي وقد انحصرتْ ـ بحمد الله ـ في كونها مشكلة حركية فقط على أني أجد التوافق الجسدي الكامل حينما أقود الدراجة، إذ إن الجهة اليمنى تكون مغايرة للأخرى ترتفع هذه فتنخفض تلك... هل مررت سيدي الطبيب بحالة كهذه؟ لقد رأيت كيف كانت مشيتي وأنا أدخل عيادتك... فهل من علاج ناجع؟

ـ إنها لمن غرائب الحالات حقاً، سأدرس وضعك وإذا ما أتيت لزيارتي في العاشرة غدًا فسوف أصف لك بإذن الله علاجًا ما! ونهضتْ فأعنتها في مشيتها العجيبة ـ حتى أوصلتها عربتها الجاثمة أسفل العيادة.

وبقيت أقلب الفكر ذاك اليوم بكامله فيما عساي أقدمه لها من عون طبي وبقيت ساهراً ليلتي أستجلي الآراء واستشير المختصين فيما يسمى بالخلاع ـ ذاك الاختلال المعروف في الجهاز العصبي ـ الحركي وآفات العضلات فلم أحظ بما يبدد التساؤل، والعجب وعنّ لي أن أتمشى قليلاً سعياً وراء نسمة باردة تطرد الكلل والملل.

ومررت على متجر لصديق ألماني أحببت أن أستشيره في الأمر وكنت قد رأيت في حظيرته غزالين على شجار دائم فسألته عنها وأفادني بأنه لم يتمكن من زرع الألفة فيما بينهما؛ ولذا فقد أفرد لكل منهما مكاناً مستقلاً عن الآخر

وبذا أنهى حالة تناطحهما المستمر، وخطرت لي فجأة فكرة لمعت في خاطري لمعان البرق في عاصفة صيف مطيرة. في العاشرة من صبيحة اليوم التالي كانت الشابة في مكتبي ومددت لها الوصفة الطبية، ولما قرأتها بدت سحب الكدر على محياها فلم ألمها!

ـ جربيه سيدتي!

ووافقت على ذلك، وبالأمس فقط رأيتها تخطر في الشارع المقابل كأحلى الغواني... مشيتها كانت رشيقة مستقيمةً لا يتخللها عوج أو التواء.

ـ ترى ما الذي حوته الوصفة؟ سأله المراسل.

ـ طلبت منها فقط أن ترتدي الزي المعروف بالبلمر ـ إنه زي مكون من تنورة قصيرة وبنطال فضفاض طويل تلبسه النساء عند الرياضة، أجابه الطبيب الشاب ـ أفهمت؟ قمنا بعزل الأعضاء المتنافرة التي ينتمي كل منها إلى عائلة مختلفة وبذا قضينا على أصل الخلاف، فشفيت المريضة ـ ولله الحمد ـ ولكن مهلاً... شارفت الساعة على السابعة والنصف أنا على موعد معها في الثامنة تماماً... لقد... لقد وافقت على أن تحمل اسمي أقصد... أننا سنتزوج قريباً على أن هذا الخبر ليس للنشر أتسمع؟

ـ طبعاً... طبعاً ـ قال المراسل ـ ولكن ما رأيك في مزيد من شراب الليمون...؟

وقاطعه الطبيب الشاب بعد إذ هبّ واقفاً: كلاً... كلاً شكراً.

عليّ أن أذهب الآن سأراك بعد عدة أيام.

أرغفة العرّافة

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

ذاك المخبز الكائن في أعلى المنعطف أتدرون لمن هو؟ إن مالكته هي الآنسة (مارثا ميكام) وهو ذاك بعينه!... أجل هو المخبز الذي تصعد له بدرجات ثلاث ثم... تدغدغ مسامعك دقات الجرس ساعة تفتح بابه.

والآنسة (مارثا) في الأربعين من عمرها... وتملك رصيدًا مصرفيًا يبلغ ألفي دولارًا ولها سنّان اصطناعيان وقلب رحيم، على أن هناك الكثير ممن تزوجوا وهم أقل حظاً ومالاً منها.

وكان يتردد على مخبزها رجل يفد مرتين أو ثلاثًا كل أسبوع فبدأت تميل إليه. كان في منتصف العمر وله نظارات... ولحية داكنة شذّبت بعناية، أما إنجليزيته فتعتريها لكنة ألمانية واضحة، ورغم رثاثة ملابسه فقد كان يبدو أنيقاً دائمًا مظهرًا ومخبرًا.

لقد اعتاد أن يأتي فيبتاع رغيفين فقط ولا شيء أكثر، وكان رغيف الخبز الطازج بخمسة سنتات أما البائت فاثنان بخمسة، وذات يوم لاحظت الآنسة (مارثا) بعض البقع الملونة على أصابعه فأيقنت بأنه كان فنانًا... وفقيرًا معدماً! لا ريب وأنه يقطن في غرفة متواضعة فيظل المسكين يرسم ويرسم ويقرض خبزاً بائتاً ويظل يحلم بطيّبات مخبز الآنسة (مارثا) ـ فكرت ـ.

وعندمـا كـانت هي تجلس إلى إفطارها الدسم تعـبـر جـسـر الآهات والتنهدات وهي تحلم بفنان مـهـذّب يشـاركـهـا إياه بدلاً من قـضـمـه كـسـرات يابسات بغرفته الحقيرة... لقد كان للآنسة (مارثا) كما ـ نما إلى علمك ـ قلب رحيم رقيق.

وأرادت يومًا أن تتأكد من صحة نظريتها التي استنبطتها لدى مرأى يده وقد بقّعتها الألوان والتي تتلخص في أنه لابد من طائفة الفنانين، فأحضرت من غرفتها يوماً صورةً ابتاعتها بثمن بخس ووضعتها على أحد الأرفف خلف منضدة الأرغفة... وكانت تحوي منظراً ساحراً لقصر رائع تحيط به المياه من كل جانب، وقد توسطت زرقتها قوارب «الجندول» الفينيسية وامتدت من إحداها يد لسيدة تشق عباب الماء. وحوت الصورة كذلك مشاهد تأخذ بمجامع القلوب لزرقة السماء وندف الغيوم تصطبغ بأرجوان الشفق... والألق يضيء جوانب الغلس حتى ليكاد المشهد أن ينطق بحسن ما فيه، ولم يكن من الصعوبة بمكان لفنان ـ كائناً من كان ـ أن يلحظ تلك الصورة.

بعد يومين جاء الزبون مجدّداً.

ـ رغيفين من الخبز البائت من فضلكِ! ـ قال ـ ثم تابع :

ـ إنها صورة فاتنة سيدتي! وكانت تلفُ له الرغيفين لما تزل فسألته في مكر: حقّاً؟ إنني أقدر الفن و ـ وكاد زمام الأمر يفلت من يدها فتقول ـ والفنانين ـ على أنها تداركت نفسها فقالت: «واللوحات الفنية» إذ إنها تذكرت بأن الوقت لا يزال مبكراً لمكاشفته بذلك. وسألته في دهاء النساء:

ـ أتعتقد بأنها لوحة جميلة؟

ـ أجل فيما عدا منظور القصر إذ إنه ليس في موقعه الصحيح!

طاب صباحك! وأخذ رغيفيه ثم انحنى مودّعاً وغادر المكان.

أجل لابد وأنه فنان لامع!

ـ قالت في نفسها وهي تحمل اللوحة فتعيدها إلى غرفتها ـ وناجت نفسها: عيناه كم كانتا دقيقتين ساحرتين... يا لذياك الوميض الخافت الحنون ينبعث منّهما خلف زجاج نظارته، وياله من عبقري واسع الأفق بعيد النظر... وإلا فكيف استطاع تحديد الخطأ في الصورة بهذه الدقة والسرعة ويعيش على رغيف جاف؟! حقّاً إن العبقرية لا تظهر إلا بعد حين.

ـ قالت الآنسة (مارثا) لنفسها ـ حري أن يدعم ذلك النبوغ ألفا دولار ومخبز، وقلب رحيم ودود.

وظل يتردد على مخبزها فتطربه كلماتها العذبة ولا يبتاع سوى رغيفين بائتين... ما اشترى يوماً حلوى أو كعكاً أو فطيراً أبداً، وخفق قلبها يوماً حينما خيّل إليها أنه قد أضحى هزيلاً محطم النفس محبطاً، فحدثتها نفسها بأن تضيف شيئاً إلى بضاعته البخسة الهزيلة علّ ذلك يسد رمقه ويعيد إليه رونقه، إلا أنها لم تجرؤ على مكاشفته بذلك! كانت تعرف كبرياء الفنانين، وأصابها تحول عجيب فجأة فداومت على ارتداء صدرتها الحريريّة المنقّطة، ثم شرعت في طبخ وصفات من بذور السفرجل والبوركس بغرفتها الخلفية؛ إذ إنه تردد أن لذلك مفعول السحر في تحسين البشرة وتطريتها.

وذات يوم جاء زبونها كعادته فوضع الخمسة بنسات على الطاولة، وفجأة دوت في الشارع جلبة وضوضاء على إثر مرور عربات المطافئ وهرع الزبون

يستجلي الخبر فانتهزت الآنسة (مارثا) فرصة خروجه! فتحت رغيفيه بسكين الزبدة... ووضعت فيها كمية لا بأس بها من الزبدة قبل أن تضغطها بعناية، وعندما عاد كانت قد لفتهما له، وتبادلا حديثًا وديًا، غادر الزبون المخبز بعده وقلبها يخفق بلوعة الوجد كجناحي طائر أطلق سراحه بعد طول أسر، وظلت تسأل ذاتها في حيرة فلا تحير جواباً أكانت شجاعة وهي تدس له الزبدة في الرغيف؟ وكيف سيقابل ذلك؟ تراه سيغضب... أم يحزن أم...؟ وظل ذلك التساؤل شغلها الشاغل سحابة نهارها... شرعت تجترّ مشهد اكتشافه لما فعلت! وردة فعله حيال ذلك، ورسمت سيناريو لتلك اللقطة... رأته بعين خيالها وقد وضع ريشته وملَوَنة فيما توسطت اللوحة الساحرة ـ التي يرسمها بمنظور دقيق ـ حامل اللوحة! منظر كامل دون شك لا يرقى إليه نقد أو تقييم!

ـ ناجت نفسها وهي في خضمّ يم أحلام اليقظة الباسمة لما تزل تبحر ـ عندها ـ تابعت تحليلها الذاتي ـ ستمتد يده بعدها إلى رغيفه الناشف فيما تمتد الأخرى إلى كوب الماء ولسوف يقسم الرغيف ثم... آه... ياللمفاجأة التي ستكون بانتظاره حينما يكتشف ما بداخله، وتوغّلت في كهف التخيلات يهدهدها الترقب والوجد قبل أن تعيدها إلى أرض الواقع فجأة جلبة وضوضاء وصوت اقتحام غاضب للمخبز، وهرعت تستجلي الخبر فبصرت بشاب يدخن غليوناً... ولم تكن قد رأته من قبل، وشخص آخر عرفت فيه على الفور فنّانها الذي هامت به وجداً. وكان وجهه أحمر! بدا جليًا أنه كان يتميز من الغيظ... وقد أمال قبعته إلى الخلف أما شعره فبدا أشعث مجعداً فكأنما غلى به ما تحته، ورفع قبضتيه فجأه فلوّح بهما في وجه المسكينة (مارثا) أجل... في وجه الآنسة (مارثا) قبل أن يدمدم بعبارات ألمانية... طويلة... ثقيلة وحاول الشاب الآخر سحبه عن موقع الأحداث!..

ـ لن أذهب قبل أن أجابهها بما ارتكبته ـ صرخ غاضباً وجعل من منضدة الآنسة (مارثا) طبلاً جهيراً مجلجلاً.

لقد أفسدت كل شيء! ـ صاح في وجهها وعيناه الزرقاوان تلمعان خلف نظارته ببريق عجيب ـ بفضل فضولك وتطفلك البغيض... أيتها... القطة العجوز!

واستندت المسكينة ـ تحت إعياء الصدمة ـ إلى الرف خلفها واضعة يدها على صُدرتها الحريرية المنقّطة. وتقدم الشاب فسحب رفيقه الغاضب من ياقته.

ـ هيا: لقد أسمعتها ما فيه الكفاية... وجرّه حتى أخرجه من المخبز ثم عاد إليها فقال:

يجدر بي أن أطلعك سيدتي على سبب تلك الثورة كان ذلك صديقي (بلمبرغر)! إنه مصمم معماري ونحن نعمل في مكتب واحد، لقد ظل يعمل جاهداً ولثلاثة أشهر لتصميم مبنى جديد للبلدية وذلك في ظل مسابقة رصدت لها جائزة قيّمة، لقد انتهى من تحبير الخطوط يوم أمس، وكما قد تعلمين فإن الرسام يبدأ تصميم مخططه الهندسي بالقلم الرصاص وحينما ينتهي فإنه يمسح خطوط الرصاص برغيف ناشف إذ إن ذلك أفضل بكثير من استعمال المحاة... ولقد اعتاد أن يتباع الأرغفة الجافة من هنا واليوم... تعلمين سيدتي... يبدو أن الزبدة لم تكن مناسبة... و... حسناً... يبدو أن مخطط السيد (بلمبرغر) لم يعد صالحاً لشيء... اللهم إلا إذا ارتأت إدارة السكة الحديد استعماله للف الشطائر المعروضة للبيع على متن القطار.

وعادت الآنسة (مارثا) إلى غرفتها الخلفية فخلعت صدرتها الحريرية المنقطة وارتدت حلتها الصوفية البنية العتيقة ثم عمدت إلى مزيج بذور السفرجل والبوركس فألقت به من النافذة ليستقر في حاوية الفضلات!

غرام مجهول

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

بدا أول النجوم بزوغاً باهتاً واهناً وهو يرقب الكون تحته من عليائه، فيما شمخت جبال الألب معانقة عنان السماء وقد تدثرت قممها بثلوج كثيفة، واتشحت سفوحها بسمرة تزداد كلما دنت من الأرض.

وشرع شاب قوي الجسم، واثق الخطوة، يصعد الطريق مرتدياً زي صياد ظباء... وبدا محياه الوسيم وقد لوّحته الشمس بسمرة محببة. كان رشيق الخطوات ينطق ناظراه بالصراحة والصدق وسلامة الطوية، وكان يدندن بمقاطع من أغنية صيدٍ باقارية، فيما كانت يده تطبق على زهرة برية بيضاء اقتطفها من حافة الوادي، وفجأة تسمّر في مكانه وماتت على شفتيه حروف الأغنية حينما عبرت الطريق أمامه فتاة في زي فلاحة سويسرية. كانت تحمل دلو ماء صغير ملأته من النبع القريب لتوها. كان شعرها الكثيف منسكباً على كتفيها كشلال تبر انساب في دعةٍ حتى عبر خط خصرها الرقيق، ولمعت عيناها ببريق الشفق المتغلغل في قنوات السماء، فيما تسللت من بين شفتها نصف المفتوحتين ابتسامة كشفت عن أسنان ناصعة البياض، وكأنما جذبتها قوى غامضة، تسمّر كل منهما في مكانه لا يحيد عن الآخر بنظره، على أنّ الصياد تقدم بشجاعة منها قبل أن يلمس في رقة ريش قبعته وينحني لها احتراماً محييًا إياها ببضع كلمات ألمانية، وردت الفاتنة تحيته بصوت أرعش خجل نبراته، على أن بابًا فتح لكوخ بين الأشجار لم يكن من قبل واضحاً

للعيان، وارتفعت على إثره أصوات شتى اصطبغ في أعقابها خدا الفتاة بحمرة قانية، وخطت عائدة من حيث أتت.. لكنها التفتت إليه فجأةً فرمقته بنظرة طويلة ثابتة كأنما لتختزن صورته في فؤادها العمر كله، فتحتضنه داخل أجفانها، وشعرت وهي ترنو إليه بأنها تعرفه منذ أمد بعيد بعيد.. وتقدم منها بضع خطوات ثم أشار إليها بيده في توسل أن لا ترحلي، إلا أنها نظرت بوجد إليه ثم أخرجت من صدرها بضع زهرات (جنتيانا) الزرقاء فرمت بها إليه، والتقطها بخفة قبل أن تقع، ثم تقدم بدوره صوبها ووضع في يدها زهراته البرية فدستها بسرعة في صدر فستانها قريباً من قلبها، وعدت عائدةً كظبي رشيق... إلى مصدر الأصوات المختلطة. وظل الصياد في مكانه... لا يبرحه لوهلة، ثم شرع في استئناف سيره صاعداً النهر ببطء أكثر، وبدا كمن فقد عزيزاً، فماتت على شفتيه أهازيج أغنيته النشوى آنفاً، المفعمة بأريج السعادة والمرح وخلو البال، وكان وهو يسير يضغط بأزاهيرها على شفتيه بين الفنية والأخرى.

***

أُعدت العدة لزواج القرن... وكان كل ساكن يحلم بأن تصله بطاقة دعوة لحضوره.. كان العريس ينتمي إلى إحدى أكثر العائلات وجاهة... آل (ڤان وينكلر) ويتسنم منصباً مرموقاً، وأما العروس فساحرة الحسن مكتملة الجمال... وبمهر بلغ خمسة ملايين دولار! وكانت ترتيبات الزواج قد جرت فيما يشبه الصفقة التجارية، ما كان للعاطفة والحب أي دور فيها مقايضةٌ محضة! وطلب سريع رضيت به دون جم اكتراث!

وتذكرت كيف التقت عائلتاهما قبل عام في أحد منتجعات سويسرا... وبالأحرى كيف تم الاندماج بين عائلة آل (ڤان وينكر) وثروة آل (ڤانس)، كان مقرراً أن تقام مراسم الزواج بعد العصر.

وأمر العريس (بيلام ڤان وينكلر) بأن توقد نار في مدفأته العتيقة رغم الدفء الغامر، وما إن تم له ذلك حتى جلس على حافة منضدة الكتابة وشرع يلقي في النار بخطابات قديمة لف بعضها بأشرطة وردية، وكان يبسم هازئاً من آن لآخر وهو يشاهد ألسنة اللهب تزدرد ما تبقى من حواف كل خطاب، أو يلمح وردة قديمة جافة بين طيات الرسائل، وقد يجد قفّازًا معطراً أو خصلة شعر مذعورة. أما آخر ما قدمه للنار المتأججة أمامه فكان ضمة جافة من زهرات (جنتيانا) الزرقاء، وتنهد (ڤان وينكلر) وزايلت الابتسامة محياه، ومر شريط الذكريات بباله فتذكر كيف كان العام المنصرم في ثلة من صحبه... والشفق يطرز منحدرات جبال الألب... كانوا في قمة السعادة والنشوة... لاهين عابثين غير عابئين بشيء... وكان يرتدي زي صياد ظباء... ثم أطلت من خياله كالغيث في مهامه، البيداء العطشى صورة تلك الصبية الفلاحة بعينين جذبتاه فسمرتاه، وسحرتاه فأطارتا عنه لذيذ النوم ردحاً من زمن... كيف رنت إليه ثم رمت له بباقة من زهر (الجنتيانا) الزرقاء، لو أنه لم يكن ينتمي لآل (وينكلر) بكل ما يحمله هذا اللقب من تبعات - قال لنفسه - لتبعها وخطبها لنفسه فتزوجها، إذ إن طيفها لم يفارق ناظريه وفؤاده مذ رآها تلك الليلة الشفقية إلا أن قيود العائلة والمجتمع قد حرّمت عليه الزواج منها وبينهما ذلك الفرق الشاسع... على أن زواجه سيتم بعد العصر - ذكّر نفسه - من ابنة تاجر الحديد المليونير. وألقى (بيلام ڤان وينكلر) بباقة الزهرات الزرقاء في النار ثم

دق الجرس مستدعياً خادمه الخاص. هربت العروس آنسة (أوغوستا ڤانس) من جمهرة قريباتها بعد أن سئمت ضجيجهن وصراخهن المزعج فاحتمت بمخدعها الهادئ ولم تكن لديها رسائل تحرقها أو ماضٍ تدفنه، فأما والدتها أم العروسة فكانت في أوج سعادتها إذ إن ملايين العائلة قد بوأتهم مكان الصدارة باقترانهم بعائله آل (وينكلر).

كانت مراسم حفل زواجها من (بيلام وينكلر) ستقام بعد عصر ذلك اليوم، وغابت في لجة من أحلام اليقظة فتذكرت رحلة قامت بها مع عائلتها قبل عام إلى أوربا، ثم توقف تفكيرها عند جزء من تلك الرحلة الماتعة حين أمضوا أسبوعاً في كوخ متسلق جبال سويسري على أعتاب جبال (الألب)... واسترجعت بسعادة يشوبها الحزن ذلك الحلم حين عبأت جردلها من نبع قريب وكرّت راجعة، وكانت يومها ترتدي ـ على سبيل الدعابة ـ زي فلاحة استعارته من ابنة صاحب الكوخ، وعكست لها مرآة خيالها صورتها ذلك اليوم وكيف بدت ساحرة الجمال فيه وقد انساب شعرها شلال تبر غطى كتفيها وتجاوز خصرها الرقيق، كيف صادفت في طريقها إبان قفولها عائدة شاباً قوياً وشته سمرة جذابة، كان يرتدي زي صياد ظباء... كيف التقت عيناهما فتسمرت نظرات كل منهما على الآخر، ثم لاحت من ذاكرتها التفاتة إلى باب كوخهم الذي فتح فجأة فتعالت منه أصوات شتى تناديها، ولم تستطع تجاهل ذلك، فخفّت راجعة إلى مصدر الصوت بعد أن قطعت باقةً من أزهار (الجنتياتا) الزرقاء كانت معلقةً على صدرها فرمت بها إليه، وسارع هو بالتقاطها قبل أن تلامس الأرض، ثم دس بدوره في يدها زهرة برية كان قد اقتطفها من حافة الوادي. من يومها ـ اعترفت لنفسها ـ ما برحت صورته خيالها، لقد شاء الله

أن يلتقيا بذات الزمان والمكان على أنها وهي الثرية ذات المهر الذي بلغ خمسة ملايين دولار ما كانت لترتكب حماقة بزواجها من أحد صيادي جبال الألب العاديين!

ونهضت الآنسة (ڤانس) ففتحت علبة مجوهرات ذهبية كانت فوق منضدة العطور، وأخرجت منها زهرة بريه جافة سحقتها بين أصابعها حتى استحالت فتاتاً، ثم دقت الجرس مستدعيةً خادمتها فيما كان ناقوس الزواج يدق مؤذناً ببدء مراسم حفل الزفاف المنتظر.

رسُـــولـــه

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

لم يكن الموسم أو الساعة بالذي اعتاد المنتزه استقبال زبائنه فيه! من المحتمل إذاً أن تكون تلك السيدة التي اتخذت لها مقعداً بمحاذاة أحد الممرات قد خضعت لنزوة عابرة تستشرف من خلالها أطياف الربيع الآتي وغلالات حزن شفيف تلقي بظلالها عليها.

وظلت قابعة لا تبرح مقعدها... كانت قتامة ذلك الأسى الدفين الذي صبغ محياها حديثة عهد، إذ إنها ما غيّرت من جمال ملامحها ورونق بشرتها الفتيّة وذلك التقوس العنيد الذي يحدد شفتيها!

واقتربت منها خطوات شاب اخترق الممر المرصوف المؤدي إليها. كان فارع الطول يتبعه صبي يحمل حقيبته، وحالما وقع نظر الشاب على المرأة اصطبغ وجهه بلون الأرجوان، ثم... عاد إلى شحوبه ثانية... وكان وهو يحث الخطى إليها ينعم النظر إلى وجهها ومزيج من الألم والأمل والقلق يعتمل في فؤاده كبركان يوشك أن يقذف حممه... كانت ياردات قليلة تفصله عنها، على أنه ما قرأ في ملامحها ما ينبئ بأنها قد أحست بمجيئه!

وجلس هو الآخر على كرسي تفصله عنها خمسون ياردة... فجأة. أما فتاه فأسقط الحقيبة وشرع يحدق في سيدة بعينين لماحتين... تطل الدهشة من أهدابهما! وأخرج الشاب منديلاً مسح به جبينه الوسيم... كان المنديل أنيقاً وصاحبه كان بهي الطلعة وسيماً لا تمل العين مرآه، وقال لفتاه:

ـ أريدك أن تحمل رسالة لتلك الشابة التي تجلس هناك، قل لها: إني في طريقي إلى المحطة كيما أغادر إلى (سان فرانسيسكو) حيث أنضم إلى بعثة صيد متجهة إلى (ألاسكا)... وقل لها بأني وقد حرّمت عليَّ التحدث أو الكتابة إليها ما وجدت وسيلة غير هذه استثير بها ما عرف عنها من عدل وإنصاف عطفاً على ما ربط بين قلبينا من وشائج سامية في رغد الماضي وسلسبيل زلاله الذي طالما أترعنا به أقداحنا ما سمحت لنا الأيام، قل لها... قل لها يافتى بأن اتهام إنسان ونبذه دون إعطاء سبب لذلك أو سماع حجته هو أمر مناقض تماماً لطبيعتها التي ما تطرق إليّ يوماً شك في كمالها ونبلها، قل لها إني قد أُرغمت على إيصال كل ذلك أملاً في إحقاق الحق... هيا وانقل لها ذلك.

ووضع الشاب في يد الفتى قطعة نقدية من فئة النصف دولار، فنظر الصبي إليه نظرة ماكرة شعت بين ثنايا وجه ذكي متّسخ، ثم انطلق يعدو. ودنا من الشابة يعثر الوجل والشك خطوه، على أن الإحراج كان عنه بمنأى. ولمس قبعة امتطاء الدراجات التي يرتديها، فرمت الشابة إليه بنظرة خالية من أيّ معنى.

ـ سيدتي! ـ قال لها الفتى ـ ذلك الفتى الجالس على الكرسي الآخر حمّلني رسالة إليك! إن لم تكوني تعرفيه وكان ذلك تطفّلاً من جانبه فما عليك سوى إخباري، ولسوف أستدعي الشرطة في غضون دقائق ثلاث، أما إذا كنت تعرفينه فسوف أفضي إليك بالرسالة التي حملني إياها.

ـ رسالة؟ قالت الفتاة بصوت عذب رخيم غلّفته رنة سخرية ـ وتابعت: سطر جديد في ملحمة الفرسان، لا شك لقد كنت على صلة بذاك الذي بعثك وبذا تنتفي الحاجة إلى استدعاء الشرطة... أفصح عما بعثك به وحاذر أن ترفع صوتك خشية أن تلفت الانتباه إذ ليس في المنتزه سوانا!

ـ أوه! ـ قال الفتى هازّاً منكبيه ـ تعلمين سيدتي ما أرمي إليه، طلب مني أن أخبرك بأنه يزمع التوجه إلى (سان فرانسيسكو) لينضم إلى بعثة صيد تغادر إلى (ألاسكا) ـ ويقول بأنك قد أمرته بألا يبعث إليك بخطابات وردية، وألا يدنو من سور حديقتك... وبأنه قد اضطر إلى هذه الوسيلة ـ بإرسالي إليك ـ سعيًا وراء نيل عدلك ومرضاتك... بأنك قد أدنته دون إبداء سبب لذلك... بأنك قد ألقيته في اليم مكتوفاً وحذرته من الابتلال بالماء.

وأذكى ذلك الأسلوب شيئاً من الاهتمام الذي شع كوميض الأمل في عينيها، وطفقت تنظر إلى أعلى نصب تذكاري احتل إحدى زوايا المنتزة ثم قالت:

ـ قل لسيدك الجالس هناك بأنه لا حاجة لي بأن أعيد على مسامعه سرد المثل والمبادئ والأخلاقيات التي أؤمن بها، فهو على علم بذلك، ولم يتغير شيء في هذا السياق... على أن ما يعنيني في قضيتنا هذه جملة وتفصيلاً هو مبدأ الإخلاص والصدق... قل له بأني قد درست قلبي، بأني قد سبرت غوره فألممت بنقاط القوة و... الضعف فيه، وذلك ما دعاني إلى عدم الاستماع إلى رد سيدك في هذا السياق، سواء أكان ذلك كتابةً أو مشافهةً... أنى كانت طبيعة ذلك الرد التبريري... إنني لم أُدنِه استناداً إلى كلام سمعته عنه أو شك حام حوله؛ ولذا لم أوجه له أصابع الاتهام جهاراً فهو أدرى منى بما اقترفت يداه... على أنه إذا كان مصراً على سماع طبيعة ما ارتكب ـ رغم علمه به ـ فسوف أسمح لك بنقله إلى أسماعه.

قل له بأني قد دخلت البيت الزجاجي من الخلف تلك الليلة كيما أقطف وردة لأمي، فوقعت عيناي على مشهد غريب!... رأيت سيدك والآنسة (آشبورين) في وضع مريب جعلني أترك المكان... والوردة ومُثُلي وغاياتي طرّاً... قل له ذلك!

وطوى الغلام الأرض طيّاً، حاملاً الرسالة إلى مولاه حتى حاذاه، فرمقه الأخير بنظرات شوق وترقّب وفضول. وشعت عينا الفتى بفخر من أثبت كفاءةً في أداء ما أنيط به.

ـ قالت الفتاة بأنها قد ضبطتك متلبساً بالجرم المشهود ممسكاً بإحداهن في المُستنبت الزجاجي... بأنك قد صدمتها... وإن عليك الآن آن تسارع إلى وجهة سفرك!

وندّ عن الشاب صفير خافت فيما لمعت عيناه بخاطر مفاجئ، وأدخل يده في الجيب الداخلي لمعطفه فأخرج منه مجموعة خطابات اختار منها واحداً سلمه إلى الفتى ونقده دولاراً كاملاً أخرجه من جيب (صديريته) وقال له:

ـ أعط السيدة هذا الخطاب وقل لها أن تقرأه ففيه تفسير يوضح ما التبس... قل لها: إنها لو مزجت مبدأ المثالية الذي تؤمن به وتدعو إليه بشيء من الثقة لأمكن تجنب الكثير مما كدر الخواطر من معاناة وشك وألم... أخبرها بأني لم أخن العهد... بأن شعار الإخلاص والولاء الذي طالما رفَعَتْهُ علياً ما تغيّر أو تبدل، وبأني... أنتظر ردها!

ومرة أخرى... شخص الرسول أمام السيدة:

ـ يقول سيدي بأنك قد أخذته بجريرة لم يرتكبها، وتسرعت في الحكم عليه... إليك بما يثبت براءته لا شك! اقرئي هذا الخطاب!

عزيزي الدكتور (أرنولد):

جمّ الشكر أزجيه لك على مبادرتك الإنسانية المتمثلة في إسعاف ابنتي إبان الضائقة الصحية الطارئة التي ألمّت بها مساء الجمعة الماضي حين

فاجأتها تلك الأزمة القلبية بمشتل السيدة (والدرون)... ولو أنك لم تكن هناك للإمساك بها حين انهارت، وتقديم المساعدة الطبية لها لربما كانت في عداد الأموات لا قدّر الله.

لسوف أكون مسروراً إن تفضلت بزيارتنا والإشراف على حالتها.

المخلص،،

(روبرت آشبورتن)

وبرفق طوت الشابة الخطاب ثم أعادته إلى الغلام الذي قال:

ـ إن سيدي ينتظر الجواب! ما عساه يكون؟

وشعّت عيناها فجأة ببريق ساحر... أخّاذ... نديّ:

ـ قل للجالس هناك على المقعد الآخر ـ قالت ضاحكة مستبشرة ـ بأن فتاته لا تزال تريده زوجاً.

قصة جريدة

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

في تمام الثامنة صباحاً... كانت تحتل مكاناً بارزاً على أحد أرفف الصحف في «كشك» السيد (جوسيبي) والذي كان بدوره وبكل ما جبل عليه من مكر ودهاء يتسكع في الزاوية المقابلة تاركاً لزبائنه حرية اختيار ما يروق لهم من مطبوعات، متبنّياً ـ دون شك نظرية الإناء المكشوف.

وكانت تلك الصحيفة ـ على وجه الخصوص طبقاً لسياستها وتصميمها ـ تقوم مقام المربي والدليل المرشد والمؤشر الاقتصادي والمستشار العائلي والمرجع والرفيق الملازم. ومن بين مقالاتها الافتتاحية الممتازة كانت هناك ثلاث انُتقيت بعناية، صيغت إحداها بلغةٍ سهلة وأسلوب نيّر سلس... وكانت موجهة إلى عموم المعلمين والآباء تستنكر فيه بشدة ظاهرة إيذاء الأطفال والمتمثلة في تطبيق أسلوب العقاب البدني على أجسادهم الغضة البريئة!

فأما الافتتاحية الثانية فكانت اتهاماً وتحذيراً شديد اللهجة وُجّه إلى زعيم عمالي متهور يوشك أن يوقع أتباعه في متاهات إضراب مقيت لن يؤدّي إلا إلى مزيد من المتاعب والهموم!

أما المقالة الافتتاحية الثالثة فقد كتبت بأسلوب لبق بليغ تحث الشعب فيه على تقديم الدعم الكامل لأفراد الشرطة كيما يتمكنوا من أداء الدور المنوط بهم، والمتمثل في حماية أفراد المجتمع والحرص على راحتهم وسلامتهم.

وكانت هناك إلى جانب ذلك العديد من الزوايا الشيقة كعمود: «من القلب إلى القلب» والذي قدم المحرر عبره نصيحة قيّمة إلى أحد القراء، وكان قد طلب المشورة بعد أن أضناه البعد وتركه جفاء الخطيبة دامع العين كسير الفؤاد معنّى، أمضه الوجد، ولوعة الفراق! بين له المستشار العاطفي كيف يداوي الجراح ويعيد إلى ضفافه من كانت له الداء والدواء!

أما صفحة (جمالك) فقد حوت ردّاً على سؤال وجهته شابة رغبت في إجابة شافية تستطيع من خلالها أن تنعم بعينين براقتين وخدين في جمال حديقة ورد وبشرة صافية في رقة الحرير!

وكانت هناك أيضاً فقرة خاصة تحوي إشارة مميزة وجهت من قارئ إلى آخر... كانت رسالة قصيرة جاء فيها:

عزيزي (جاك):

سامحني، لقد كنتَ على حق. قابلني في زاوية (ماديسون) في تمام الثامنة والنصف من صبيحة يومنا هذا ـ سنغادر ظهيرة اليوم ذاته.

التوقيع: تائبة

في الثامنة صباحاً أتى إلى ركن الصحف شاب مضنى معذّب... شارد النظرات تائه الفكر وضع قطعة نقود وسحب نسخة من الجريدة ذاتها... من (كشك) (جوسيبي)... وبدت عيناه لطول السهر الذي أخّر استيقاظه كبئر أحزان ليست تنضب. ثمة مهام كثيره كانت تثقل كاهله... مكتب يتعين أن يصله قبيل التاسعة ولحية تنتظر دكان الحلاقة وكوب قهوة فيما بين هذا وذاك.

وخرج من دكان الحلاقة فحث الخطى كمطارد، ثم ألقى على الجريدة نظرة سريعة قبل أن يحشرها بسرعة في جيبه. وفي الشارع التالي سقطت منه ساحبة معها قفازيه الجديدين. ولم يلحظ اختفاءها إلا بعد ثلاثة شوارع فعاد ثانية وأبخرة الغضب تخمد ما تبقى في ناظريه من جذوة الحياة.

في الثامنة والنصف تمامًا كان يمر بجانب الجريدة والقفازين لكنه تجاوزهما بشكل غريب، وأمسك فجأة براحتين صغيرتين، وظل يحدق في لوعة وهيام ـ في عينين عسليتين ـ فاض من أحداقها بحر من الأشواق ـ والسعادة تعزف في فؤاده أروع السيمفونيات: بعد إذ التقى زوجة المستقبل.

ـ عزيزي «چاك» ـ قالت ـ كنت أعلم أنك ستكون هنا في الموعد المحدد.

ـ ليتني أعرف ما رمت إليه ـ قال في نفسه ـ لكن... لا شيء يهم... لا شيء يهمّ.

وهبّت من الغرب فجأة ريح قوية حملت الجريدة ففتحتها وأطارتها مسقطة إياها على فرس جفول في شارع جانبي ـ رُبطت إلى إحدى العربات ـ وكانت معقل آمال ذلك الشاب الذي كان يتمنى الظفر بمثلها كيما يقدمها هدية إلى من فتنته وزرعت في قلبه مرّ الآهات والتنهدات مقنعة إياه بدخول قفص الزوجية طواعيه.

وسقطت الجريدة الطائرة على وجه الفرس الجفول، فدب في قلبها الذعر وعدت لا تلوي على شيء، ثم علا صهيل وصليل حديد عربتها، وزادت في عدوها المحموم حتى اعترضتها حنفية إطفاء الحريق بعد أن اجتازت أربعة شوارع فلعبت الأخيرة دورها في تلك المسرحية الهزلية.. ارتطمت العربة بها فتكسرت أشلاء انتثرت، واستقر الحوذي على الرصيف إلى جوار بيت شيد من طوب بنّيّ.

على أنه يجب ألا ننسى في خضم تلك الأحداث جريدتنا الغراء وما كان من أمرها، إذ إنها عندما أُجْفِلَتْ الفرس واصلت تحليقها حتى مرت بجوار شرطي اعتقلها بتهمة تهديد سلامة المرور وأمن المواطن... وبأصابعه الكبيرة البطيئة سوّى صفحاتها المبعثرة فقرأ عنواناً جاء فيه:

(حملة تقودها الصحف لدعم حماة الأمن)!

وثنى الشرطي (برايان) الجريدة فدسها في يد صبي كان يعبر الطريق. كان اسمه (جوني) وقد حمل الجريدة معه إلى منزله، وهناك كانت أخته (جلاديس) والتي سبق وأن بعثت إلى صفحة جمالك في الجريدة نفسها منذ أسابيع عديدة طالبة موافاتها ببعض اللمسات الجمالية ولما تأخر الرد داخلها اليأس فتوقفت عن شراء الصحيفة. كانت (جلاديس) ذات بشرة شاحبة وعينين معتمتين أطفأ اليأس فيهما جذوة الحياة، وعكست تعابيرها كل معنى للإحباط. لكنها بعد قراءة الجريدة استحالت فتاة أخرى... ربطت أجزاء من الصحيفة التي جلبها أخوها إلى فستانها فأحدثت حفيفاً رقيقاً، كذلك الذي يحدثه مس الحرير الدمشقي إما خطت غانية ميّاسة القد به... واتجهت (جلاديس) صوب مصففة الشعر، وفي طريق عودتها التقت بإحدى صديقاتها.. سمراء تقطن في الشقة السفلى فتميزت الأخيرة غيظاً وكمداً... كان الحفيف الرقيق الذي أحدثه سير (جلاديس) لا يصدر إلا من قماش باهظ الثمن من أرقى الأنواع... وعندما غادرتها... كانت الغيرة تقرض أطرافها... وتمتمت جراء ذلك بكلمات تفيض حقداً وحسداً وكمداً قارصةً بأسنانها شفتيها دون وعي.

وسارت (جلاديس) في خيلاء بعد إذ أمدتها خبيرة زاوية جمالك بلسمات جمالية لا تقدر بثمن - ليتها تراني - قالت في نفسها.

كلمات خبيرة الزاوية كانت تتضمن نصيحة خلاصتها أن غرس المشاعر المضمخة بعبير المحبة وصدق الأحاسيس تجاه الآخرين يزيد في جمال المرء، ولا عجب في ذلك، فإن ما يسكب في القلب تعكسه الملامح، وتلك كانت الوصفة السرية.

أما ذلك الزعيم العمالي المتهور فكان والد (جوني) و (جلاديس)، وأما ما كان من أمره فإنه لمح الجريدة التي ألقت بها ابنته ولم يلحظ لسوء الحظ تلك المقالة التي تندد باعتزامه قيادة تلك المظاهرة.

إلا أنه كان شغوفاً بحل الكلمات المتقاطعة، فاقتطعها وانتحى جانباً فاستل قلماً شرع يحل به رموزها.

بعد ثلاث ساعات من الانتظار الممل قرر بعض أصحابه الذين أمضّهم ترقبه في المكان المحدد لانطلاق المسيرة التظاهرية ـ أن يطرحوا فكرة المظاهرة جانباً فيلجؤوا إلى التحكيم، وهكذا كُفُوا شرها.

عندما عاد (جوني) من المدرسة اتخذ ركناً قصيًا وأخرج من ملابسه بعض قصاصات من الجريدة كان قد أخفاها في الأماكن الأكثر تضرراً من العقاب البدني الذي تلقاه ذلك اليوم في مدرسته. كان طالباً في إحدى المدارس الخاصة، إلا أن ثمة مشكلة كانت لديه مع أحد مدرسيه، على أن تلك المقالة المندِّدة بمشكلة الضرب في المدارس قد أحدثت بعد ذلك تأثيراً كبيراً في النهج التربوي المتبع بمدرسته.

وبعد ذلك كله فهل يتأتى لأحد إنكار أثر الصحافة في حياة الفرد؟!!

فيما... السيارة تنتظر

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

فيما كان الشفق ينثر حمرته الشفافة الشاعرية على مدارج السماء جاءت ثانية على عجل... ذات الرداء الرمادي وتوجهت إلى ركن هادئ في ذاك المنتزه الساكن البهي... وجلست على أحد المقاعد الخشبية ثم شرعت تقرأ كتاباً تَعَيّن أن تنهي قراءته في نصف ساعة.

وعودًا على بدء نقول بأنها كانت ترتدي رداء رماديّاً عادياً لدرجة أخفت ملامح دقة التصميم وروعة الزيّ.

وكانت تلبس قبعة نسوية أسبلت عليها خمارًا شفافاً غطّاها وامتد ليحجب محيّاً شع من خلاله متوهجاً بجمال هادئ... لاهٍ... غافل!

كانت قد أتت إلى نفس المكان... بذات الزمان... يوم أمس والذي قبله وثمة شخص كان يعرف ذلك. ذاك الشاب الذي كان على علم بما سلف... طفق يحوم حول المكان... آملاً أن يسعده الحظ فتسنح له فرصة لبدء حوار معها... وما تخلى عنه... إذ إنها في خضم قلب إحدى الصفحات سقط الكتاب من يدها فجأة متجاوزاً موقع صاحبته بما ينيف عن الياردة، وبنهم فوري سارع الشاب إلى التقاطه وإعادته إلى صاحبته بذات السيماء الشائعة في المتنزهات العامة... مزيج من الشهامة والأمل... ورام مدخلاً إلى ذاتها فعلّق على حال الطقس السائد ـ وهو موضوع تنسب إليه اليد الطولى ـ مع

شديد الأسف ـ فيما يكتنف هذا العالم من كدر وبؤس ـ ثم وقف ـ في قلق ـ على مشارف الأمل واليأس ينتظر مصيره المحتوم.

وطافت به عيناها بشيء من اللامبالاة... مجرية مسحاً شاملاً على زيه البسيط في أناقة... وعلى ملامحه التي ما قرأت في أعطافها تعبيراً مميزاً.

ـ بإمكانك الجلوس ـ إن أردت ـ قالت بصوت عذب رخيم رنّان ـ أنا أريدك حقاً أن تجلس، انسكبت جُلّ صبابة النور وما عاد فيَّ بُلْغَةٌ تعين على القراءة، أفضل الحديث معك.

وبكياسة ولطف جلس إلى جانبها غير مصدق كيف تهادت به مراكب النجاة إلى شواطئ الأمل الأخضر بهذه السرعة:

ـ أتعلمين ـ بادرها بذات النبرة التي يستهل بها غُرباء الحدائق حديثهم عادة ـ ما رأيت غادة في جمالك منذ زمن ـ ما غبت عن ناظري بالأمس. وهاتان العينان الساحرتان المشعتان بما يعجز اليراع عن وصفه... أيا ريّانة العود!

ـ أيّاً كنت ـ قالت الفتاة بنبرات ثلجية فإن عليك أن تتذكر بأني سيدة محترمة ـ لسوف أصفح عما اقترفت من تجاوز بحقي لسبب واحد؛ هو أن وزرك شائع بين طبقة مجتمعك! لقد طلبت منك أن تجلس، فإن كنت قد ارتأيت بأن في ذلك ما يشفع لك بمناداتي بريّانة العود فإني أتراجع عن دعوتي لك.

ـ استميح عذرك سيدتي ـ قال الشاب وقد استحال شعوره بالبهجة إلى إحساس بالندم والخزي ـ لقد أخطأت في حقك، لكنك تعرفين أن بعض فتيات المتنزهات... أقصد... تعرفين ما أرمي إليه.

ـ دع هذا الموضوع جانبًا من فضلك، أنا بالطبع أعرف ما تقصد، وأخبرني ما قصة هؤلاء الناس الذين تغص بهم ممرات المنتزه ـ إلى أين يتجهون؟ ولم هم في عجلة من أمرهم وهل هم سعداء؟

وتخلى الشاب عن الأمر برمّته... وكان يفكر فيما عساه يضطلع به من دور... كانت فتاة غير عادية:

ـ في مراقبتهم متعة بالغة ـ قال مسايراً مزاجها ـ تلك هي دراما الحياة الرائعة ـ بعضهم ذاهب لتناول طعام العشاء ـ فيما يذهب البعض الآخر لبعض شؤونه ـ ليت لنا أن نطلع على سجلات حياتهم.

ـ أما أنا فلا يهمني ذلك، لست محبة للاستطلاع ـ وإنما أجيء إلى هنا بغية أن أكون قريبة من قلب الإنسانية العظيم النابض بكل صراعات الحياة وتناقضاتها، أما دوري في الحياة فيكمن في استشراف تلك البقعة التي لا تستشعر فيها تلك النبضات أبداً.

لا ريب وأنك قد فطنت إلى ما أرمي إليه سيد ـ ؟

ـ «باركنستاكر» رد الشاب وقد بدا متحمسًا سعيداً وشعاعات من أمل زاحف تضيء دواخله.

ـ كلا؟ قالت الفتاة رافعةً إصبعاً رَخْصَةً ـ مبتسمة في رقة ـ لا ريب وأنك قد عرفت لتوك، إذ إنه من الصعب بمكان إبقاء أسماء وصور المشاهير بعيداً عن الصحافة ـ إن قبعة وخمار خادمتي تحجب شخصيتي عن كثير من العيون ـ ليتك رأيت عيني سائقي الخاص وهي ترمقهما بنظرات متسللة مندهشة... هناك خمسة أسماء أو ستة لمشاهير معروفين واسمي ـ وليس الذنب ذنبي،

فقد ولدت هكذا ـ هو من ضمن هذه الأسماء ـ لقد أفضيت إليك سيد (ستاكنبوت) بمكنون ذاتي...

ـ (باركنستاكر) قال بتواضع مصححاً.

ـ سيد (باركنستاكر) لأني أردت أن أتحدث ولو لمرة في حياتي مع إنسان طبيعي ما أفسده الجاه والنعرة الطبقية الاجتماعية الجوفاء... أواه... أنت لا تدرك حجم معاناتي، لا شيء حولي سوى المال والمال ... ثم المال وأناس لا يختلفون عني بشيء، لقد سئمت من كل شيء؛ الثروة والجاه والمجوهرات والسفر وشتي أنواع النعيم!

ـ لقد كنت أظن أن المال هو كل شيء في هذا الوجود ـ جاءها صوت الشاب .

ـ صحيح أن الدخل الكافي هو من ضرورات الحياة ـ قالت ـ إلا أنه حين تكون الملايين بحوزتك إلى درجة...

وأنهت جملتها بإشارة من يدها ترمز إلى القنوط.

ـ إنها الرتابة... هي علة ذلك وما يترتب جراء ذلك من ممارسات تسير على ذات الوتيرة... المسارح... النزهات ولائم الغداء والعشاء... لقد مللت ذلك كله.

ورنا إليها السيد باركنستاكر باهتمام شديد:

ـ لطالما عشقت قراءة سير الأغنياء ومعرفة أنماط حياتهم...

وندت عن الفتاة ضحكة موسيقية عكست انشراحاً وسعادة لا مثيل لهما:

ـ يجب أن تعرف ـ قالت في نبرة مسايرة أننا ـ ذوي الطبقة العليا نستمد

جل سرورنا وانشراحنا عبر الخروج عن المألوف ـ الموضة الآن هي وضع الثلج في أقداح «الشراب» وأول من أدخلها كان أمير (تارتري) الزائر إبان تناوله طعام العشاء في (الوالدورف) ولسوف تضمحل هذه الصرعة كيما تحل أخرى مكانها تماماً كما هي الحال الآن في جادة (ماديسون)، إذ إنه وإبان حفل عشاء هذا الأسبوع تم وضع قفازات صغيرة خضراء إلى جانب كل صحن كيما يستخدم إبان تناول الزيتون.

ـ فهمت ـ علق الشاب بهدوء ـ تلك المتع الخاصة بذوي الطبقة العليا لا تظهر أمام ملأ الطبقة الكادحة.

ـ بل إن ذلك قد يحدث أحياناً ـ قالت مصححة ـ ثم استطردت فيما يشبه الهمس ـ تحدثني نفسي بأن ألا أتزوج إلا أنساناً عادياً يكسب عيشه بعرق جبينه، إذ إنه أفضل ألف مرة من عالة لا صفة له على أني أظن أن الغلبة للأخير إذ أني قد تلقيت راهنًا عرضين للزواج أحدهما من دوق ألماني كبير عانت زوجته السابقة الأمرّين من قسوته، فيما أتى العرض الآخر من ماركيز إنجليزي في برودة الثلج حدّاً يجعلني أرجّح احتمالية قبول الأول رغم نارية مزاجه ـ على أني أعجب مما دفعني إلى الإفضاء إليك بكل دخيلة ذاتي فأنا بالكاد أعرفك سيد (باكنستاكر).

ـ (باركنستاكر) ـ قال الشاب مصححاً ـ لن يتسنى لك أبداً تقييم ما أكنه لك من امتنان جراء ثقتك بي.

ورنت إليه الفتاة بنظرات هادئة تحمل في طياتها كثيراً من اللامبالاة التي تتناسب مع حجم التفاوت الاجتماعي بينهما.

ـ ما مهنتك سيد (باركنستاكر)؟ سألته.

ـ مهنة متواضعة جداً ـ على أني أطمح في تسنّم مراتب أعلى مستقبلاً، أكنت جادة حينما قلت بأنك لا تمانعين في الزواج ممن هو دونك مستوى؟

ـ بالتأكيد، إلا أنه ينبغي أن تأخذ في الحسبان أني قد قلت (ربما) هناك الخاطب الألماني والإنجليزي كما أسلفت.

ـ أنا أعمل ـ قال ـ في أحد المطاعم.

وانكمشت الفتاة نوعاً: ـ لا كنادل؟ قالت في تردد... لا يعيب العمل الشريف المرء على أن الخدمة الشخصية... أعني..

ـ لست نادلاً ـ أنا أعمل محاسباً سيدتي هناك!

وأشار إلى مطعم تلألأت أنواره التي خطت بأحرف هائلة أنا محاسب هناك.

وألقت الفتاة نظرة على ساعة معصمها الأنيقة ثم هبت واقفة قبل أن تعمد إلى الكتاب الذي كانت تقرأ فيه فتدسه في عجلة داخل حقيبة صغيرة تدلت من وسطها على أن الكتاب بدا أكبر من جرابه بكثير.

ـ وكيف تفسر عدم وجودك على رأس العمل راهناً؟ سألته.

ـ اعمل الآن بنظام الدوام الليلي ـ رد الشّاب ـ لا تزال أمامي ساعة كاملة قبل مباشرة عملي ـ هل سأراك ثانية؟

ـ لست أدري ـ ربما التقينا صدفة كلقائنا الآن ـ على أني استبعد أن أقع أسيرة لهذه النزوة ثانية ـ عليّ أن أعود بسرعة فلديّ ارتباطات عدة والسائق بانتظاري. لابد وأنك قد لمحت السيارة البيضاء تلك التي تقف أمام المنتزه.

ـ السيارة ذات التروس الحمراء قال الشاب عاقداً حاجبيه.

ـ أجل كثيراً ما آتي في هذه السيارة ـ والشوفير (بيير) ينتظرني هناك. إنه يعتقد أني قد ذهبت للتسوق في المجمّع المقابل تخيل حياتنا تلك... حيث نضطر أحياناً للكذب على سائقينا الخاصين!

طاب مساؤك.

ـ لكن الليل قد أرخى الآن سدوله والمنتزه يعج بكثير من الأشرار هلا اصطحبتك حتى...

ـ إن كنت تكن لي أدنى تقدير فالزم مقعدك هذا ولا تتركه إلا بعد مضيّ عشر دقائق على مغادرتي هذا المكان ـ لا أقصد اتهامك بشيء على أنك تدرك أن السيارات تحمل عادة الأحرف الأولى لاسم مالكها ـ تصبح على خير.

ومضت تشق برشاقة طريقها تطويها تجاويف الشفق الموغل في الاحمرار... وأبخرة من غموض وشموخ تحجبها عن ناظريه وظلت عيناه تشيعانها حتى تجاوزت المنتزة واتجهت نحو السيارة الواقفة أمامه فتبعها في خطوات متعرجة مستتراً خلف شجيرات الحديقة دون أن يدعها تخرج عن دائرة بصره، وما إن حاذت السيارة الواقفة حتى .. رمقتها بنظرة سريعة وتجاوزتها بخفّة ثم واصلت السير حتى عبرت الشارع ولاحقتها عينا الشاب حتى رآها تعبر الرصيف وتلج إلى المطعم ذي الحروف الكبيرة البراقة.

كان مطعماً رتيباً طليت جدرانه بالأبيض، واحتل الزجاج مساحة كبيرة منه. ودلفت الفتاة إلى جهته الخلفية ثم ظهرت ثانية وقد خلعت قبعتها وخمارها.

كان مكتب المحاسبة في الجهة الأمامية من المطعم ومن على الكرسي الجاثم خلف ماكنة الصرافة انزلقت فتاة شعرها أحمر مشيرة إلى الساعة إبّان ذلك، وسارعت ذات الرداء الرمادي بامتطاء الكرسي ذاته، أما الشاب فوضع يديه في جيوب بنطاله ثم عاد مجتازاً الرصيف ذاته، وعند المنعطف اصطدمت قدمه بكتيب صغير أطاره الارتطام فوقع منه غير بعيد، وأنعم فيه النظر فأدرك أنه الكتاب الذي كانت الفتاة تقرأ فيه، وبلا مبالاة التقطه وقرأ عنوانه. كان كتاب «الطبعة الجديدة لألف ليلة وليلة» تأليف الكاتب (ستيڤنسون) وألقى به جانباً... ثم... طفق يجول لدقيقة دون هدف معين ثم قفز إلى السيارة البيضاء واسترخى على الوسائد المخملية قبل أن يقول للسائق آمراً: ـ إلى النادي يا (هنري).

حول الدائرة

Round the Circle

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

ـ وجدت قمصيك (سام)؟

تساءلت السيدة (ويبر) فيما كانت مسترخية على مقعدها تقرأ كتاباً تحت شجرة البلوط.

ـ إنه مناسب تماماً (مارثي). رد زوجها وسرور مريب يتخلل نبرات صوته وتابع: كدت أتهور فأقذف به جانباً إذ إنه قد حرم من جميع أزراره، على أني لاحظت أن فتحات الأزرار ذاتها كانت مهترئة، فقلت لنفسي: فلتولِّ غير مأسوف عليها.

ـ آه... حسناً ـ قالت زوجته بلا مبالاة ـ أحكم ربطة عنقك وسنتكفل بأمر ذلك.

كانت مزرعة أغنام (سام ويبر) تقع في مكان قصيّ من البلدة بين (نيس) و(فريو) تحديداً، أما منزلهم وهو مبنى عادي يحوي غرفتين فقد شيد على تلّ مرتفع وسط الروابي العالية ولا يبعد مربي الأغنام عنهم كثيراً، على أنّ الغابة الكثيفة لم تكن تبعد عن ذلك سوى بضع خطوات.

كان (سام) يزمع التوجه إلى مزرعة (تشابمان) لابتياع بعض الكباش الإسبانية المحسنة السلالة. وخرج أخيراً كيما يباشر مهمته التجارية العاجلة

ولأن (تشابمان) كانت شبيهة ببلدة صغيرة مساحة وسكّانًا فقد قرر (سام) أن يرتدي زيّاً مناسبًا لذلك فكانت النتيجة أنه أحال نفسه فجأة من فلاح رشيق بهي المنظر إلى مخلوق لا يسر برؤية من رآه... إذ إن الربطة البيضاء الضيقة عصرت عنقه البرونزية القوية أما القميص عديم الأزرار فقد تكرمش وبرزت ثناياه من تحت الصديرية المفتوحة بشكل يدعو إلى الرثاء، فيما أخفت البدلة الجاهزة ملامح جسده العضليّ الوسيم، وبدا وجهه الذي لوحته الشمس في كآبة سجين تملكه عنفوان الأنفة وعزة النفس.

ومسح برفق على رأس ابنه (راندي) ذي الثلاث سنوات قبل أن يهرع إلى حصانه المفضل (مكسيكو).

وعلّمت (مارثي) مكان الصفحة بإصبعها، فيما كانت تتأرجح برويّة على كرسيها الهزاز، ثم ألقت نظرة شاملة على زي زوجها الذي حاول في خضم العجلة أن يعربه فأعجمه ـ أو هو العكس ـ، حتى بدا (منكوشاً) عمت الفوضى كل ثنية فيه:

ـ إن أردت الحق ـ قالت زوجته ـ أنت تبدو ككومة قش لا كتاجر أغنام محترم من ولاية (تكساس).

وامتطى (سام) جواده على نحو أخرق وقد تضاءلت ـ إلى حد كبير ـ ثقته بنفسه ثم قال بغضب:

ـ أنت الملومة... وأنت من يتحتم عليه أن يخجل من نفسه! بدلاً من الاعتناء بملابسي تجلسين في بلاهة منهية الرواية تلو الأخرى، لا هم لك سوى القراءة، أما ما عدا ذلك من أمور هامة فلا تعنيك البتة. تبّاً لك.

ـ أغلق فمك ـ صاحت به ـ وتوكل على الله ـ ما أكثر ما تشتكي من حبي للقراءة! إنني أعمل لساعات طوال، ولي الحق في مزاولة القراءة أنّى شئت، ألا ترى أني أعيش كالهوام في هذه البقعة النائية؟ ـ تابعت العويل ـ لا أرى أو أسمع أو أجتمع بأحد... ليس لي من سلوى غير القراءة أزجي بها الوقت وأقصي عبرها الملل... أما صوتك الهادر فهو سلسلة من الشكاوي التي لا تنقطع ليل نهار... انطلق إلى حال سبيلك بالله عليك ودعني وشأني!

وهمز (سام) حصانه بركبتيه ثم انطلق به عبر الخط الذي أحدثه مرور العربة في أديم المزرعة والذي يفضي إلى الطريق الحكومي المعبد. كانت عقارب الساعة لما تتجاوز الثامنة بعد، لكن الحرارة كانت قد شرعت في غزو ذرات الفضاء بوميض لاهب ممضّ! ولام نفسه لعدم شروعه في السير منذ ثلاث ساعات.

أما مزرعة (تشابمان) فكانت على بعد ثمانية عشر ميلاً، إلاّ أن الطريق المعبدة لم تكن لتمتد لأكثر من ثلاثة أميال، فأما الباقي فعقبة كأداء.

وكان (سام) قد توجه إلى هناك مع أحد رعاة البقر المهرة، وبذا تمكن من رسم خارطة للموقع في ذاكرته.

وانتهى الطريق المعبد فأخذ (سام) بزمام جواده (مكسيكو) مخترقاً نبات «المسكيت» الشائك... مجتازاً غدير (كوينتانيلاّ) منحدراً صوب الوادي الضيق المتعرّج المزدان بحلة خضراء قشيبة من النبات الشائك ذاته، على أن (مكسيكو) كان قد اجتاز الأميال الثلاثة الأولى بخفة ورشاقة، سنده في ذلك قوائم قوية، وما إن حاذى (سام) نبع « البطة البرية» حتى تملكه الشك في المسار الذي يتعين عليه اتخاذه بعد أن انتهت ملامح الطريق المحددة، وصعد تلاّ صغيرًا إلى

يمينه غطته الحصباء التي ما نما فوقها سوى التين الشوكي، وهناك... في أعلى التلّ توقف (سام) كيما يمسح الموقع بنظرة فاحصة دارسة أخيرة، إذ إنه كان عليه أن يشق بعد ذلك طريقاً ضيقة شائكة متعرجة لا يصل إليها سوى بلغ من نور. تحتم أن يعتمد في استكشاف سبيله على غريزة سكان المروج، دليلهم في ذلك بعض الأشجار النامية بشكل غير مألوف... أو هم يسترشدون بتلّ مرتفع مميز، وإلا فمبوقع الشمس إن عزّ ذلك!

وانحدر (سام) تاركًا التل خلفه متوغّلاً في سهل التين الشوكي الجاثم بين آل (كوينتانيلاّ) وآل (بييدرا) وبعد ساعتين... اكتشف بأنه قد أضاع الطريق وتلت ذلك حالة الحيرة الفكرية والتخبط في متاهات الشك واستعجال الانتهاء إلى مكان مّا. أما (مكسيكو) فكان تواقاً إلى الوصول... مجتازاً متاهات الغابة وممراتها الملتوية بخفة يحسد عليها، وأدرك بغريزة الحيوان أن سيده قد ضلّ الطريق وتاه. ولم يكن هناك مزيداً من التلال التي يستشرفون عبرها ما امتد أمامهم من بقاع، بل هي أدغال ملتفة متشابكة لا يتأتّى اختراقها في بعض مناحيها لأرنب.

كان (سام) قد توغل ـ دون أن يشعر ـ في أعماق أجمة (الفويو) النائية ولم يكن الأمر جد خطير بالنسبة لصاحب قطيع مثل (سام) أجل... ما كان الأمر ليتعدى التيه ليوم أو ليلة يفقد خلالها وجبة أو اثنين، ويفترش الأعشاب ليلاً في غفوة حتى مطلع الفجر، على أنه ما اعتاد المبيت خارج منزله... بعيدًا عن زوجته التي كانت تخاف من هجمات قطاع الطريق، من الهوام والزواحف؛ ولذا فإنه ما تركها ليلة قط!

كانت الساعة تناهز الرابعة عصراً حين استيقظ ضميره وكان منهكاً بائساً مهموماً لشدة ما كابد من قلق، لا بسبب الحر أو الإجهاد، وكان يحاول العثور على الطريق المفضية إلى معبر (الفريو) وحقل (التشابمان)... ذاك المسار الذي لابد وأنه قد اجتازه ـ دون أن يشعر ـ في أحد الممرات الشائكة المظلمة، فإن كان الأمر كذلك ـ قال في نفسه ـ فلابد وأنه قد ابتعد عن منزله بما يقارب الخمسين ميلاً، وإذا ما قدّر له أن يصل إلى حقل أو مخيّم أو أي مكان يستطيع من خلاله استعارة حصان نشيط والاستعلام عن الطريق فسيعود إلى زوجته وابنه لتوه، وإن اقتضاه ذلك الليل بطوله ـ قال مناجيّاً نفسه وفلول المساء تدنو وتدنو وغبار ظلمتها يمتزج بظلمة الأفكار الحزينة في ذاته .

وتناوشته أحاسيس شتى طغى عليها الندم والإحساس بالذنب تجاه ما اقترفه لسانه بحق زوجته، وشعر بغصة في حلقه وهو يدرك كم كان قاسيًا عليها ـ المسكينة ـ أعاد النجوى ـ يكفي ما هي عليه من وحدة وعزلة وأعمال منزلية شتى حتى يرشقها في كل حين بكلمات جارحة لائمة مؤنبة! وشتم نفسه وهو يستشعر موجة مفاجئة من الخزي تجتاحه... موجة فاقت وهج حرارة الطقس عندما تذكر المرات العديدة التي أسمعها أمر الكلمات الهازئه؛ لأنها كانت تجد في نفسها ميلاً لقراءة الروايات.

ـ تلك البنيّة المسكينة. ما كان لها من سلوى غير ذلك! قال (سام) لنفسه بصوت عالٍ منتحباً، صوت لم يألفه (مكسيكو) الذي أحس جراء ذلك بشيء من الخجل!

ـ أما أنا... الأحمق المتهور المنتن... فإني أستحق الجلد بحزام سرجي هذا .

ـ المسكينة كم قاست... تطبخ وتغسل وتمسح و... حتى إذا ما قرأتُ بضع كليمات حططت من قدرها وانتقصت من حقها بعبارات لاذعة مهينة!

واستعاد صورتها في خياله يوم أن التقى بها أول مرة في (رجتاون) كانت (مارثي) ذكية ريانّة جميلة قبل أن تخمد الشمس تلك الورود النضرة في خدّيها، ويطوّع صمت المزرعة طموحاتها المتأججة:

ـ إن تفوهت أمامها بكلمة جارحة ثانيةً ـ قال مهدداً ذاته في وعد ووعيد ـ إن لم أطوقها بما ألفته مني من محبة وحنان فعسى أن أقع في براثن قطة برية تمزقني إرباً!

كان عليه أن يكفّر عما ارتكبه بحقها؛ ولذا فقد قرر أن يكتب إلى عملائه (غارسيا وجونز) في (سان أنتونيو) كيما يرسلوا صندوقاً مليئاً بالكتب والروايات «لمارثي» ـ أجل كل شيء سيتغير، وتساءل عما إذا كان وضع (بيانو)صغير في إحدى الغرف سيلغي الحاجة إلى مغادرة المنزل.

وغابت رؤي الخطيئة والتكفير ليحل محلها خاطر لا يقل عنها أهمية وحتمية، ذاك هو اضطرار زوجته وابنه إلى قضاء الليلة بدونه. كان المساء إما جنّ مصدر وحشة «لمارثي» التي تهرع إلى ذراع زوجها القوية، يوماً فتريح عليها رأسها وتنهيدة حَرَّة تنبئ بما تضمره له ـ رغم ما يقع بينهما من مناوشات ـ من محبة وارتياح وثقة واطمئنان، ولم تكن مخاوفها وهمية مصطنعة إذ إن كثيراً من الأهوال كانت تحيط بهم دوماً... هناك... في الأعالي يظل قطاع الطرق يتربصون بالقاطنين الدوائر، ناهيك عن الزواحف والحشرات السامة والأسود الأمريكية... المسكينة سيشلّ الرعب حركتها، فيما سيظل الصغير (راندي) ينتحب منادياً أباه ولا حياة لمن ينادي فكر... (سام) والأدغال الملتوية تمتد

أمامه إلى ما لا نهاية... والصبار ونبات «المسكيت» الشائك... ومنحدر ينتهي لتعلو الأرض ثانيةً إلى منحدر أكبر... تشابهت فلم يعد يَمِيزُ هذا عن ذاك، على أنها طرّاً كانت رغم ذلك جديدة.. غريبة عليه... فقط ـ ناجى نفسه مجدداً ـ لو استطعت أن أصل إلى مكان ما!

وشرع ـ كعادة الإنسان إبان الأزمات والمحن ـ يفلسف الأشياء راسماً خطّ مقارنة بين الجبلّة والصنعة، فارتأى أن الصنعة تسير في خط مستقيم فيما تدور الجبلّة الطبيعية للمرء في دوائر... بأن من يسير على نهج ممتد لا عوج فيه هو... إنسان مصطنع جانب الفطرة وبأن الدبلوماسي ـ على النقيض من ذلك ـ هو أقرب إلى الجبلة والطبيعة؛ ولذا فإن من يضل طريقه عبر الثلوج يظل يدور في دوائر مغلقة حتى يسقطه الإعياء والإنهاك فيندثر تحتها... هكذا قالت آثار أقدام من فني منهم. وليس حظ الموغلين في متاهات الفكر والفلسفة بأكثر منهم، إذ إنهم يعودون دوماً إلى ... نقطة البداية فينتهون إلى حيث... ابتدؤوا!

ما إن شارف (سام) على الخروج من ذلك اليم التأملي الطارئ حتى أحس بتغيّر في وقع خطوات حصانه (مكسيكو) إذ إن قفزاته الرشيقة السريعة قد استكانت فجأة وهدأت... كأنما كانت تقرأ ما اعتمل في ذات سيده (سام ويير) من ندم وأسى وأطلق (سام) تنهيدةً عميقة فيما كان (مكسيكو) يعلو به تلاً غطته الأعشاب البرية، ويرتفع عن الأرض بنحو من عشرة أقدام أو ينيف قليلاً:

ـ هيا (مكسيكو) ـ قال مخاطباً حصانه ـ ليس هذا بوقت التقاعس، أعرف أنك جائع منهك... رباه هل اختفت المنازل من هذا العالم قاطبة؟ قال ذلك

ولكز حصانه... على أن (مكسيكو) ما رأى داعيًا لذلك بعد أن أشعرته غريزته بقرب الخلاص مما هم فيه، وأسرع في مشيته مع انحدار التل ليجد (سام) نفسه فجأة أمام الباب الخلفي لبيته الذي ما كانت تفصله عنه سوى بضع ياردات.

كانت (مارثي) لا تزال جالسة على كرسيها الهزاز تتابع الرواية الشيقة ذاتها، وقد أسندت إلى عتبة البيت قدميها، أما (راندي) الذي كان يلهو بمهمازين مدمدماً بإحدى الأناشيد فقد نظر إلى أبيه قليلاً ثم... عاد إلى ما كان عليه، وأما (مارثي) فقد أراحت رأسها بكسل على ظهر الكرسي ورفعته بعينين ساكنتين واضعة الكتاب على ركبتها بعد أن أقفلته معلّمة موضع الوقف فيه بإحدي أصابعها.

وهز (سام) جسده على نحو غريب نوعاً كرجل أفاق لتوه من حلم طويل، ثم ترجل ببطء قبل أن يبلل شفتيه بلسانه:

ـ أرى أنك لا زلت جالسة لا تراوحين مكانك... سادرةً في غيّك؟!

ألا تكفين عن قراءة الروايات ؟ تبّاً لك!

لقد دار (سام) حول الحلقة إياها فآب ثانية إلى نفسه.

أكتوبر ويونيو

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

متجهّماً كئيباً كان (القائد الحربي) وهو يتأمل سيفه المعلق على الجدار، وفي خزانة قريبة كان زيه الباهت الذي أناخت عليه تقلبات الطقس وطول الاستخدام بكلكلها يا للأيام... كيف تسلل رمل العمر بين أصابع الزمن بكل تلك الإنسيابية القاسية ـ قال لنفسه ـ كم تبدو تلك السنوات التي ظلت نواقيس الحرب تطرق عبرها أسماعنا بعيدة بعيدة.

وتأمل بحسرة ما آل إليه... كيف استحال من جندي يحمي ثرى بلاده خلال أيام الشدة والعسر إلى مستسلم ذليل أجبر على رفع راية الاستسلام بعد أن هزمته نظرات حالمة ثغر رقيق باسم، وجلس في إحدى زوايا غرفته الهادئة ممسكًا بالخطاب الذي وصله للتو منها... ذلك الذي لون وجهه بالألم فجهّم ملامحه. وأعاد قراءة الفقرة الأخيرة منه... والتي قضت على آماله وأحلامه طرّاً.

«تبريراً لرفضي شرف الاقتران بك عزيزي... أرى لزاماً عليّ أن أكون صريحة صادقة معك ونفسي. يعود السبب الرئيس في ذلك إلى فارق السنّ بيني وبينك. أحبك بل إني أهيم فيك على أني متأكدة أن زواجنا لن يكون ناجحاً... معذرة لما قد يحدثه ذلك من ألم وقسوة أكاد ألمس نتوءها في ثنايا ذاتك الخيرّة، على أني واثقة تمام الثقة أنك ستقدّر أمانتي في إماطة اللثام عن السبب الحقيقي لماهية ذلك الرفض!».

وانشق صدر (القائد) عن تنهيدة حَرَّة وعمد إلى رأسه فأراحه على يده. حقاً كان الفارق في السن بينهما كبيراً على أنه كان قوياً صلباً شديد المراس... رفيع المنصب والجاه... أفلا يتأتى له ـ إما غمرها بالحب والمال ورقة التعامل ولطف المعشر ـ أن يجعلها تنسى عامل السن؟ ثم... ثم إنه كان واثقاً ـ في قرارة نفسه أنها كانت مهتمة به.

كان حاضر البديهة سريع التصرف... وعلى ساحة المعركة علا ذكره وعُرِفَ بالنشاط والحيوية... وسرعة البت في الأمور! سيراها ـ قال لنفسه ـ لسوف يراها فيرجوها شخصيّاً أن تراجع ذاتها علّها تتراجع عن قرارها الجبار ذاك! فارق السن؟ كيف له أن يحول بين فؤاده ومن يحب فيفرّق بينهما بأشد من وقع السيوف؟!

وفي بحر ساعتين وقف متأهباً للرحيل كيما يلقاها فيكاشفها بما يمور في داخله من حمم... من خوف وأمل وألم... وانتصب في شموخ الجند... لخوض أعظم معركة في حياته، واستقل القطار متجهًا لإحدى مدن جنوب ولاية (تنسِّي) العريقة حيث تقطن.

كانت (ثيودورا ديمينج) تقف على عتبة قصرها الأنيق ذي الرّواق المعمّد متأملة حمرة شفق الصيف حينما دخل القائد عبر البوابة واتجه إليها صاعداً الممر المفروش بالحصباء. ولقيته بابتسامة ما شابها إحراج، وبدا فارق السن بينهما ـ وهو يقف على العتبة أسفل منها مباشرة ـ غير ذي بال. كان هو طويلاً معتدل القامة ثابت النظرات ـ اكتست بشرته سمرة محببة أما هي فكانت في ريعان شبابها وربيع أنوثتها.

ـ لم أتوقع مجيئك! قالت (ثيودورا) أما وقد حضرت فتفضل بالجلوس. ألم تصلك رسالتي؟

ـ بلى! ـ أجاب ـ ولهذا أتيت ... كيما أقنعك بإعادة النظر فيما اتخذته من قرار فهلا فعلت؟

وتبسّمت (ثيودورا) في رقة ـ كان جديرًا بالإعجاب حقّاً، لطالما أعجبت بقوته ورجولته ونظراته الحكيمة البريئة... ربما لو أنّه... فقط لو كان...

ـ كلا... كلاّ... قالت بإصرار هازةً رأسها بنفي قاطع ـ محال! أقدرك جدّاً... أغليك على أن مسألة الزواج غير واردة على الإطلاق يا عزيزي... فارق السن بيننا... لا تدعني أكرر ذلك بعد أن ذكرته في رسالتي إليك!

وتوهج وجه القائد قليلاً... شاع الدم في ملامح محياه البرونزية فأطرق صامتاً لوهلة محدقًا في حمرة الشفق... فما نبس ببنت شفة وراء صف من الغابات التي يصل مرمى بصره إليها كان حقل اعتاد الأولاد ذوي الملابس الزرقاء أن يعسكروا فيه... إبان زحفهم صوب البحر... يا إلهي ـ هتف ـ كم يبدو ذلك بعيداً بعيداً موغلاً في أعماق الزمن حقّاً، لقد نال منه القدر والزمن، وتلك هي مشيئة الله، فليكن ما يكون ردد في تحد شابه شيء من الانكسار... سنوات قليلة تحول بيني ومن أهوى... فيالشقائي... قال متحسّراً.

وتسللت كف (ثيودورا) فاستقرت في كفه البرونزية التي أطبقت بإحكام عليها... واستشعرت هي تباعاً تلك العاطفة الرقيقة يضوع شذاها فهي إلى الودّ أقرب!

ـ لا تحمّل الأمر أكثر مما يحتمل فضلاً! ـ قالت بلطف ـ ما قلته سيكون لمصلحة الجميع ـ لقد فكرت في الأمر كثيراً، فرأيت أن ما ارتأيت هو عين

الصواب والحكمة... ستسرّ في مستقبل الأيام لأنك لم تتزوجني لو أني رضيت بك زوجاً فسنسعد لوهلة.. سترفرف الأحلام العذبة في سمائنا... ستشدو بأعذب الألحان البلابل... وستزهر بالمنى حلو السنابل... ولسوف تنساب في رياضنا أعذب الجداول، حتى إذا ما ما دارت عجلة الزمان بضع سنين بدا جليًا الفرق بيننا في المشارب والميول والرغبات. سوف يظل أحدنا بجانب المدفأة يقرأ ويداوي ما يستشعره من آلام داء الأعصاب والمفاصل في حالكات الليالي فيما يتحرق الآخر للسهرات والحفلات وارتياد دور العرض والمسارح! كلا يا صديقي العزيز ليست المسألة مجرد فرق بين يناير ومايو، بل إنها حالة واضحة لشطّ المزار وبعد الدار بين أكتوبر ويونيو.

ـ سأنفّذ كل ما تريدين... حتى لو انتهى بي الأمر إلى...

ـ كلا لن تفعل حتى وإن خيل إليك ذلك... أرجوك توقف عن الخوض في هذا الموضوع... لا تحملني ما لا طاقة لي به... فما عدت أحتمل!

وأحس بأنه قد خسر المعركة على أن ذلك ما هز فيه شعرة فقد كان محاربًا شجاعاً، وعندما نهض ليودعها للمرة الأخيرة كان الاكتئاب يحاول جاهداً إرعاش شفته السفلى دون جدوى... بدا قويًا متماسكاً حاد الملامح منتصب القامة.

تلك الليلة استقل قطار الشمال حيث احتضنته غرفته مساء اليوم التالي .

كان سيفه لا يزال معلقاً على الحائط. وشرع يرتدي ملابس السهرة محكماً ربطة عنقه، فيما ظل منهمكاً في مناجاة كئيبة حالمة متألمة:

ـ بشرفي أن الصدق كان فيما قالته (ثيو) لا ينكر أحد في نهاية المطاف أنها حلوة... فاتنة جذابة، على أنها لابد وأن تكون في الثامنة والعشرين على أقل تقدير!

أما هو فكان في ال (التاسعة عشرة) وسيفه المعلق ما استُلّ من غمده إلا حين تقام الاحتفالات العسكرية في (شتّانوغا)... وأرض الاستعراضات تلك هي أقصى ما وصل إليه فيما يختص بالحرب الإسبانية ـ الأمريكية ولله في خلقه شؤون!

كفاح المغتربين

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

لفظت حافلة النقل العام مجددًا السيد (لورنس هولكمب) في شارعٍ معين بأحد الأحياء الفقيرة النائية. ولورنس هذا هو رجل أعمال وسيم موسر في الأربعين من العمر، وذو مستوى اجتماعي وعلاقات وطيدة بعلية القوم وصفوة المجتمع كانت مثار حسد الكثير، فأما مقر سكناه الوثير في الضواحي فيبعد عن المكان الذي نزل فيه بحوالي خمسة أميال... وبدا جليًا أن تردده على ذلك الموقع قد كثر في الآونة الأخيرة.

وغمز جابي التذاكر بالحافلة راكباً يعرفه وهو يشيع خيال (لورنس) المترجّل على عجل: أصبح ذلك شيئاً مألوفاً!

وشق (لورنس) طريقه ونشوة جذلى تخامر فؤاده، ثم عبر إلى شارع جانبي تراكمت فيه علب المرطبات الفارغة وأجساد مهزولة لصغار عابثين، ثم... توقف قبالة كوخ صغير بائس رصفت أرضيّة فنائه الخارجي المسور ببعض الحجارة، فيما تناثرت حوله شجيرات بدت كما لو أنها قد ضلت الطريق.

لدى الباب كانت سيدة قوية البنية،... في منتصف العمر تغسل بعض الملابس، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة من رأى شخصاً يعرفه حينما وقعت عيناها على (لورنس) .

ـ طاب مساؤك سيد (هولكمب) ستجدُ كاتي في الداخل سيدي.

ـ وهل تحدثت إليها نيابة عني ـ سألها بصوت خفيض ـ هل تمكنت من إقناعها بالقبول كما وعدتني؟

ـ أجل... فعلت لكنك تعرف طبع البنات... كلما زدت في تدليلهن والتحبب إليهن ما زادهن ذلك إلا عتوًا ونفورًا ـ لا أظنها تقبل إلا إذا طلبت أنت ذلك منها شخصيّاً، وآمل أن تفعل فقد أكّدت لها أنها لن تجد أفضل منك. إنها فتاة رائعة وهي تجيد صنع كل شيء، تأكد سيدي بأنها ربة بيت ممتازة... لا عيب فيها سوى... حبها للحفلات والسهرات والرقص على أن ذلك أمر طبيعي عطفاً على ما تتمتع به من جمال وشباب... اعرض الأمر ثانية عليها علها توافق إلا إذا كان ذلك الوغد الملقب بـ (داني كونلان) قد تمكن من إقناعها برفض قاطع!

وامتقع لون (لورنس) وزم شفتيه لوهلة قبل أن يقول:

ـ سمعت بهذا الفتى قبلاً ـ لماذا يتدخل؟ أهناك علاقة تربطه بكاتي؟ أهي مهتمة به؟

وأطلقت السيدة (فلين) تنهيدة حَرَّة شبيهة بزفرة قاطرة بخارية ثم هوت بكفها على ماء الغسيل، فما كان من الزّبد المذعور إلا أن طار فجأة مغرقاً لباس (لورنس) رغم أن المسكين كان يبعد عنها بمسافة لا تقل عن ستة أقدام.

ـ لا تسلني عما يعتمل في فؤاد الفتاة، ولن أكذب عليك ـ ما المسؤول سيدي ـ بأعلم من السائل!

ومضى (لورنس) إلى الداخل... فبصر بـ (كاتي فلين) وقد كشفت عن

ذراعين بضتين... كانت منهمكة في كيِّ فستان من (الموسلين) وشعر الرجل بأن ذاك النقد الجارح الذي كيل له جزاء انحداره إلى نجم مجرة أدنى منه قد انحسر كثيراً إبان مرأى الفتاة. كان جمالها آسراً... أخّاذاً... عينان أيرلنديتان بلون الغسق الثمل بأحلام المساء، وشعر كشلال لا يكف عن الانهمار، وحاجبان يعكسان عواطف وانفعالات صاحبتهما، وقوام ممشوق فتيّ قوي يضج بالحياة... كانت أهلاً لكل جهد يبذل للظفر بها!

وسار حتى حاذاها ثم شرع يتأملها وهي تكوي بحماس وساعداها البضان يعملان بحركة دؤوب وقد وشاهما جلد ناعم كالحرير.

ـ كاتي! ـ بادرها وصوته يخفي رنة قلق جهد أن يحتويها فيض حنانه وحنينه ـ جئت لأسمع ردّك ـ لا داعي لتكرار ما قيل آنفاً على أني واثق أنك تدركين جديّة طلبي، ثقي بأنك ستجدين هناك كل ما تحلمين به من وسائل الراحة، قولي نعم (كاتي) وسأكون أسعد رجل اليوم في هذه المدينة إن تزوجتني.

ووضعت (كاتي) آلة الكيّ جانباً... ثم... أراحت مرفقيها على لوح الكيّ، فيما تدرجت العواطف والانفعالات في عينيها الواسعتين اللامعتين بزرقة المحيطات البعيدة، مزاوجة بين نشوة المرح وتأملية الأحزان السرمدية.

ـ أوّاه سيد (هولكمب) لا أدري ـ في حقيقة الأمر ـ ما أقول أُدرك مدى لطفك وبأنك ستوفّر لي كل شيء... لكن (داني) يعارض ذلك بشدة.

«داني» ثانية؟! قال (لورنس هولكمب) في نفسه وهو يذرع المكان مقطّبًا جبينه: من هو هذا الملقب بـ (داني) يا (كاتي)؟

ـ سألها ـ... كلما أوشكت على الخروج بموافقة منك تدخّل ليفسد كل شيء ـ أيحلو له أن يراك في وضعية مزرية كهذه؟ لم تصغين لما يقول؟

ـ إنه يريدني! ردت (كاتي) في رنّة... طفل عابث مدلّل.

ـ لكني أريدك كذلك! قال (لورنس) بثقة وكبرياء ـ إن تمكنت من مقابلة هذا الفتى المقّنع فسوف أحسم معه الأمر.

ـ إنه بطل الوزن المتوسط في المصارعة في هذه المدينة ـ قالت (كاتي) في عدائية طفولية نوعاً.

ـ حقّاً؟ هذا لا يخيفني يا (كاتي) إني واثق أني سأهزمه بعد جولات قليلة إن كنت الجائزة... رغم عدم إلمامي بفن المصارعة.

ـ مهلاً... إنه قادم ـ قالت (كاتي) بعينين متسعتين رهبة وتخوفّاً! ورنا (هولكمب) صوب الباب فرأى شابًا يدخل. كان يمشي الهوينا ومسحة من ضراوة تكسر ملامحه. وكان يرتدي قبعة أمالها على إحدى عينيه وسار حتى وصل إلى غريمه وفتاته:

ـ فأنت إذًا تجدّ في طلب فتاتي... أليس كذلك ـ قال بصوت أجش ألغمه الغضب ـ لا أحب ذلك، لقد قلت لها ذلك ويجب أن تدرك بدورك حقيقة ما أعنيه... أتفهم... بإمكاني أن ألقي بك أرضاً مقابل عشرة سنتات.

ـ هيا سيد (كونلان) قال (لورنس هولكمب) محاولاً تفادي معركة طاحنة ـ أصغ إلى صوت العقل ـ كن عادلاً ودع (كاتي) تختار من تريد. لولا تدخلك لكانت جنبات بيتي تضمها منذ زمن.

ـ مقابل خمسة سنتيمات ـ قال كونان في تحد شرع يتناذر ككرة من الجليد المتدحرج ـ أطرحك أرضاً.

وتراءى لعيني (لورنس) حلاً أخيرًا شع كأمل ضئيل... كشمعة في مهب الريح... ما كان أمامه سواه لإزالة ذلك العائق البشريّ من طريقه:

- قيل لي - قال بهدوء وثبات - بأنك مصارع - استشف من ذلك أن عقلك لا يستدني سوى قوة الجسد كفيصل لحل المشاكل... لست مصارعاً (كونان) على أني مستعد لمنازلتك حتى النهاية خلال الدقائق الثلاث القادمة كيما نحسم الأمر وستكون (كاتي) جائزة للرابح منا. اتفقنا؟

وشعت عينا (داني) الزرقاوان ببريق الإعجاب:

- لا بأس بك - أنت رجل شجاع. ما كنت أظن أنك من تلك الفئة - واقتراحك عادل... سوف أتقيد بالشروط الموضوعة للنزال، هيا ولنحسم الأمر.

وحاولت (كاتي) أن تتدخّل على أن إشارة من (داني) أسكتتها واتجه و (لورنس) إلى مكان لا يسترعي الانتباه، فيما كان الليل يزحف على المدينة بجحافله، وخلع الرجلان قبعتيهما وكذا معطفيهما واستعدا لمعركة غريبة جائزتها الظفر بابنة غسّالة آيرلندية!

ولم تدم المعركة بينهما طويلاً، ولو أنها استمرت لخسرها (لورنس) إذ إن لياقته وخبرته في مجال المصارعة لم تكن لتسعفه فحمد الله في سره أن هيّأ له فوزاً سريعاً أعاد جلّه - بعد توفيق الله - إلى عنصر المفاجأة الذي باغت به خصمه، كما وأن انغماس الآخر قبل مجيئه في احتساء أم الكبائر قد أثرّ سلبًا على أعصابه وقدرته على الحكم في الأمور، وعلاوة على ذلك فإن الرغبة في الزواج - كما يقال - تصنع المعجزات - بذلك حدّث (لورنس نفسه) وهو يستعيد بسعادة تلك اللحظة التي غفل خصمه فيها عن حماية ذقنه، فما كان منه حين

لمحها بارزة أمامه إلا أن سدّد لها لكمة خطافية طرحت بطل المصارعة السابق أرضاً فجثم فوقه وأنهى العد القانوني للّعبة.

ونهض (داني) مرتجفاً حتى استقام على أنه أثبت أنه كان يتحلى بروح رياضية نادرة.

ـ أنت شجاع... على أنه لو كان بنظام الجولات لاختلفت النتيجة... باتت (كاتي) من نصيبك... أنا عادل كما ترى.

وعادا إلى الكوخ:

ـ انتهى الأمر ـ قال (لورنس) لن يتدخل السيد (كونلان)، ما عاد لديه أي اعتراض.

ـ أجل ـ قال (داني) مؤكدا تصريح خصمه ـ قضي الأمر الذي كنا فيه نختصم.

ونظرت (كاتي) إليهما فلمحت آثار المعركة جلية على وجه (داني) عين مزرقّة وشفة دامية وكانت طيّبة القلب عاقلة متزنة، فسارعت إلى مواساة المغلوب قبل تهنئة الغالب. وانتصب (هولكمب) بقامته المديدة الأبية مبتسماً غير مبال بما أبدته حيال الآخر من عطف ورقة مشاعر... ما تسللت إلى قلبه ذرة غيرة.

ـ غداً ـ قال ل (كاتي) وعيناه تشعان ببريق الكبرياء: يضمنا عش الزوجية!

ـ غداً ـ إن شئت ـ جاءه ردّها.

أفئدة... وأيد

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O. Henry

في (دِنڤر) تدافع المسافرون كبحر لجيٍّ صوب عربات قطار الشرق السريع حيث استقرت في إحداها غادة فاتنة الجمال أنيقة الهندام... قد أحاطت نفسها بكل ما يتزود به المسافر المحنك من كماليات ومتع. وكان ـ ضمن القادمين ـ شابان بدا أحدهما وسيماً بهيّ الطلعة جريئاً صريحاً... فيما ظهر صاحبه على النقيض من ذلك... إذ لاح للرائي متغضّن الملامح مكفهر القسمات حازماً ضخم الجثة خشن الملبس، وكانا مقيدين بصفدٍ ربط يد أحدهما بالآخر.

حين اخترقا ممر عربة القطار ما وجدا مكانًا سوى ذاك المقابل للفتاة الحسناء، فما ترددا في الجلوس. ورمقتهما الشابة بنظرة لا اكتراث سريعة على أن محياها أشرق فجأة بابتسامة عذبة، واكتست وجنتاها المستديرتان بحمرة الشفق قبل أن ترفع كفّاً تخيلتها رخصة بضة في قفاز رمادي! وعندما تكلمت جاء صوتها عذبًا... رخيماً واثق النبرات، استشّف سمّاعه أن صاحبته تعودّت أن تقول فتُسمَعَ.

ـ حسناً سيد (إيستون) أما وقد اضطررتني إلى بدء الحديث فإني أود أن أسألك: أمن الصعوبة بمكان أن تتعرف على أصدقائك القدامى إما التقيتهم في الغرب؟ سألته الفتاة.

وكأنما لدغت أصغر الشابين سنّاً ذات أجراس، إذ إنه هبّ من مكانه فجأة حالما سمع صوتها... متخبطًا في مفازات الخجل والإحراج التي أفلح في الخروج منها بسرعة واحتضنت يده اليسرى أصابعها.

ـ آنسة (فيرتشايلد) ـ قال مبتسمًا ـ أستميحك عذراً فيما يختص باليد الأخرى... إنها (مرتبطة) راهناً!

ورفع يده اليمنى قليلاً... وقد أحاط بمعصمها سوار حديدي لامع ربطه باليد اليسرى لصاحبه... وتلاشت نظرة السرور فجأة واختفت من عين الفتاة ليحلّ محلها رعب مشدوه... فيما زايل الاحمرار خديها... أما شفتاها فانفرجتا عن ابتسامة غامضة موجوعة!

وابتسم (إيستون) في حيرة وكان على وشك التعليق حين سبقه رفيقه. كان صاحبه المتغضن الملامح قد استرق بعينين حادتين لماحتين ـ النظر إلى وجه الفتاة:

ـ معذرة آنستي ـ إن أدليت في الحديث بدلوي ـ على أني ـ أرى أنك على معرفة بمدير الشرطة مما يغريني بأن أرجو منك أن تطلبي منه مساعدتي في الحكم الذي صدر بحقي. كلمته مسموعة وسوف يفيدني كثيراً... إنه يتجه بي إلى سجن (ليفندورث) حيث حكم علي بالسجن لسبع سنوات في قضية تزوير.

ـ آه! ندت عن الفتاة آهة ارتياح طويلة فيما عاد إلى محياها لونه الذي امتقع لوهلة ـ إذاً فهذا هو سبب وجودك هنا. أنت مدير شرطة؟!

ـ أي عزيزتي... آنسة (فيرتشايلد) قال (إيستون) في هدوء.

ـ كان علي أن أعمل شيئاً... للمال خاصية الطيران كما تعلمين، وتحتم أن أكتسب مالاً أساير به (الشلّة) في «واشنطن»... لاحت لي تلك الفرصة الوظيفية في الغرب... رغم أن منصب مدير الشرطة لا يرقى إلى منصب السفير! لكن...

ـ السفير لم يعد يتصل بي ـ قالت في رقة ودفء مشاعر ـ ما كان ينبغي أن يفعل ذلك أصلاً ـ عليك أن تفهم هذا إذاً، فأنت الآن من أولئك الصناديد المغاوير من أهل الغرب... أنت تقتحم الصعاب فتمتطي الجياد وتطلق النار على الأشرار بشجاعة ورباطة جأش... شد ما يختلف ذلك عن نمط المعيشة في واشنطن! لقد افتقدك الجميع.

وارتد بصر الغادة المسحورة بالبطل الماثل أمامها كيما يستقر على القيد اللامع.

ـ لا تشغلي فكرك بهذا القيد يا آنسة! ـ قال الرجل الآخر ـ جميع مدراء الشرطة يربطون إيديهم بأيدي المساجين حتى لا يباغتوهم فيهربوا خلسة...! السيد (إيستون) ملمّ بأسرار مهنته فلا تقلقي سيدتي!

ـ وهل سنراك في (واشنطن) عما قريب ياترى؟ سألته.

ـ لا أظن أن ذلك سيكون عما قريب! رد (إيستون) فيما يشبه الوله ـ ولت أيام حريتي إلى غير رجعة ـ ما عاد وقتي ملكاً لي!

ـ أوّاه كم أحب الغرب! تمتمت الفتاة وقد شط بها المركب عن يم موضوع الحديث... ثمة وميض خافت حالم كان يشع من ناظريها، ونظرت عبر نافذة القطار إلى البعيد، ثم انطلقت على سجيتها خارج حدود الزمان والمكان وبريق

الأزياء وطقوس «الإيتكيت»، لقد أمضيت وأمي الصيف في (دنڤر)، لقد عادت منذ أسبوع؛ لأن صحة أبي كانت متوعكة بعض الشيء... أشعر أني سأنهل من ينابيع السعادة في الغرب حتى الثمالة... فالجو يناسبني كثيراً هنا. إن المال ليس كل شيء على أن الناس كثيراً ما يسيئون فهم هذه الحقيقة فيتصرفون برعونة وغباء و...

ـ اسمع سيدي العمدة (مدير الشرطة) قال الرجل الآخر ـ ليس هذا عدلاً ـ أنا في غاية العطش... أريد شراباً ولفافة تبغ ـ أما شبعت من الكلام ـ خذني إلى غرفة التدخين إن سمحت!

ونهض المسافران المقيدان... ذات الابتسامة الهادئة المتأنية كانت مرتسمة على محيا (إيستون) لما تزل.

ـ لا يمكنني أن أرفض التماساً فيما يختص بذلك ـ قال بمرح ـ الوداع آنسة (فيرتشايلد)... لابد من تلبية نداء الواجب ـ ورفع يده مودعاً.

ـ ليت اتجاهك كان صوب الشرق ـ قالت وقد خامرت نبراتها رنة أسى وهي تحكم لف ردائها بأناقة وإتقان لابد أن تذهب إذاً إلى (ليڤنوورث)؟

ـ وابتلعهما الممر صوب غرفة التدخين.

على مقربة من المقعد الذي كانا يشغلانه كان مسافران قد استمعا إلى جل ما دار من حوار.

ـ ياله من مدير شرطة رائع ـ قال أحدهما ـ يتحلى بعض الغربيين بأخلاق رائعة!

ـ أليس صغيراً على تقلّد منصب كهذا؟ سأله الآخر.

ـ صغير؟ قال المتحدث الأول متعجّباً ـ لكن... آه... أنت إذاً لم تستوعب المسألة... ألم تعلم أن الضابط عادة يشبك يده اليسرى باليد اليمنى للسجين؟!

الصورة البيضاوية

للكاتب الأمريكي: إدجار آلان پو Edgar Allan Poe

كان ذلك البيت الريفي الفخم الذي قصدته طلباً للراحة والنقّاهة مما أعانيه من جرح بالغ... ذاك البيت الذي لم يُكبد خادمي نفسه مشقة فتحه لي برفق... بل اقتحمه بعنف كقائد مظفّر... كان مزيجاً من الوحشة والكآبة والعظمة... والغموض.

وبدا للرائي جليّاً أنه قد أُخلي مؤقتاً، ومنذ فترة جدّ وجيزة، واستقر بنا المقام في واحدة من أصغر الغرف وأبسطها أثاثاً... في برج قصيّ من ذلك القصر المهيب... كانت زخارفها راقية في تصميمها على أنها كانت رثة وقديمة بعض الشيء.

وألقيت على جدرانها نظرة عجلى، فاسترعى انتباهي أنها كانت مرصّعةً بأنسجة ذات رسوم شتى... فيما علقت بعض النصب التذكارية الخاصة بالنبالة وعدد كبير من اللوحات الحديثة تزينها أطر من (الأرابيسك) الذهبي... وانتشرت تلك الصور في كل مكان، حتى إن بعضها قد وضع في فتحات داخل الحائط، فزاد في غموض ورهبة ذلك البيت، وربما كان لما أشعر به من هذيان وخدر مبدئي أثر في مضاعفة اهتمامي بما حولي، إذ إني رجوت الخادم (پيدرو) أن يغلق مصاريع النوافذ الثقيلة، بعد أن أرخى الليل سدوله - وأن يوقد شموع الشمعدان الضخم عند رأس سريري... وبأن يفتح الستائر المخملية السوداء المهدّبة، والمحيطة بالسرير عن آخرها.

وكنت أطمح من وراء كل تلك الإجراءات ـ إما جافاني النوم ـ إلى أن أطلق العنان لفكري كيما يهيم في فضاءات تلك اللوحات المحيطة بي... وإلى استطلاع ما دوّن في ذلك الكتيب الصغير الذي وجدته على إحدى الوسائد... والذي كان يحوي شرحاً تفصيليًا ونقدياً لتلك اللوحات.

وطفقت أقرأ طويلاً... طويلاً... وألقي على الصور الشاخصة أمامي نظرات هائمة متأملة... وانسابت ساعات الليل وئيدة فإذا هو منتصف الليل، وشعرت فجأة برغبة في تغيير موضع الشمعدان الذي لم يَرُقْ لي... فمددت يدي المصابة بصعوبة... كيما يسقط ضوء الشموع على الكتاب مباشرة... ورغم أني عانيت كثيراً إلا أني لم أشأ أن أوقظ الخادم المسكين من نومه. على أن شيئاً لم يكن في الحسبان أبداً قد حدث، إذ إن لهب الشموع الراقصة وقع فجأة على لوحة في أحدى الكوات بالجدار، كان الظلام قد أخفاها ووقعت في ظلّ أحد أعمدة السرير، فكان ما تبدّى لناظري عبر الضوء الباهر المنسكب منظراً ما عبر قطّ خيالي... كانت صورة لفتاة صغيرة لا زالت على أعتاب الأنوثة تخطر... وألقيت عليها لمحة عابرة قبل أن أغلق عيني.

لم فعلت ذلك؟ لا أعلم.... حتى ذاتي لم تجد لذاك تعليلاً!

على أني إبان إغماضي شرعت أبحث عن السبب... وأدركت بعد لأي أن تلك الحركة لم تكن سوى وسيلة لكسب شيء من الوقت أُعمِل عبره فكري فيما هو ماثل أمامي كيما أتأكد أن خيالي لم يخدعني... ولكي أكبح جماح مشاعري وتخيلاتي قبل أن أسدد للصورة نظرة أقوى وأرسى... واستقرت عليها عيناي بضع ثوان لا تحيدان!

ولم يكن ثمة شك في صحة ما رأيت، إذ إن لهب الشموع المنسكب بقوة عليها لأول وهلة قد بدد ذاك الخدر الجارف الذي كان يشل حواسي... ليأخذني بعدها إلى أعتاب الواقع، فأستشعر كينونة ما حولي في عالم اليقظة!

كانت الصورة ـ كما أسلفت ـ لفتاة صغيرة ما بدا منها غير رأسها وكتفيها، وقد رسمت فيما يسمى بالصيغة النقشية، فبدت أقرب إلى الحقيقة ما تكون... ذابت تلك النهايات المتوهجة لشعرها في خلفية الصورة الداكنة بعفويّة، في ذاك الظل الغامض العميق الآسر!

وكان الإطار بيضاويّاً مشبعاً بالذهب والزخارف المغربية فأما الرسم ذاته فكان آية في الفن والجمال، لكن ما صعقني لم يكن جمال الصورة أو روعة الزخارف... صحيح أن ذاك المحيا كان آية في الجمال، وأن اللوحة في مجملها كانت تهتن سحراً، على أنه يبدو أن ما قلب كياني أن خيالي الذي كان نصف غاف بعد أن هزّته بعنف يد الواقع قد رأى في تلك اللوحة... رأساً حقيقياً ينبض بالحياة والواقعية، وربما كان لإتقان تلك التحفة... ولنوعية النقش في الإطار أكبر الأثر في إطلاق ذلك التصور من قمقم الرؤى، وحجب ذاك الاستمتاع الآتي الذي تثيره جزيئاتها.

وشرعت أُعمل فكري هنيهة بكل ذلك، نصف جالس... ونصف مستلق، ونظري مصوّب إلى الصورة أمامي... قبل أن أتمدد على السرير ثانية... منتشياً برحيق السعادة التي أحدثتها في فؤادي تلك الأسرار الغامضة تشع من خفايا اللوحة،.

وشعرت بأن ذاك العمل المتقن قد بهرني بدءًا قبل أن يحتويني في نوبة من خدر غامض لذيذ، وأحسست برهبة عميقة وأنا أضع الشمعدان في

موضعه السابق... وما إن احتجبت تلك الصورة التي أثارت كل هذه المشاعر حتى تناولت الكتاب عله يكشف لي شيئاً من أستارها، ولما وقع نظري على الرقم الذي يندرج تاريخها تحته قرأت ما يلي:

«لقد كانت فتاةً بارعة الجمال... ساحرة الألق نادرة الحسن، وكانت ساعة نحسٍ يوم أن رأت... وعشقت وتزوجت ذلك الرسام... كان صارماً... جازماً... جادّاً في عمله... وأحس أنه عندما التقى بها قد ملك الدنيا سماءً وبحراً... كانت باسمة مشرقة... مرحة... وكانت تهوي كل شيء سوى فنه ذاك الذي رأت فيه منافساً قوياً لها في بعلها.

وكان منظر المحابر والملاون والفرشات... وأدوات الرسم طرّاً... باعثاً لأحزانها، فقد كان يحرمها من رؤية محيّاه... وكم شعرت بإحباط غامر حينما كشف لها عن رغبته في رسم عروسه الصغيرة... على أن طيبتها وطاعتها له جعلاها تقبع في وداعة واستسلام، ولأسابيع عديدة في إحدى زوايا ذلك الجناح المنعزل في ركن قصي من البرج حيث لا شيء سوى الظلام الدامس يفتّق شيئاً من حجبه بصيص من نور متسلّلَ من علٍ.

أما هو فقد كان يستشعر زهوًا وأمجاداً وهو يمضي الساعة تلو الساعة ناقلاً ملامحها. كان عاطفيّاً... مزاجيّاً... عنيفاً... ثملاً بأحلام اليقظة وخيالات الفنان... حتى إنه لم يلحظ أن ذاك الضوء الواهن المنسكب في أعطاف ذاك الجناح النائي قد امتص عصارة روحها وأطفأ إشراقتها فبدت ناحلة حزينة هزيلة للرائين قاطبة سواه.

وكانت تبتسم وتبتسم له في صبر عجيب، فقد أسعدتها سعادته... وذاك الحماس والتوهج يشعان من عينيه، وهو الفنان الشهير الذائع الصيت... كان

يغيب في لجج من النشوة وهو يرسم ليل نهار تلك التي أحتبه الحب كله... تلك الزهرة الرقيقة الشذية التي ازدادت بمرور الأيام نحولاً وذبولاً... وذهولاً.

وبدا كل من لمح الصورة مأخوذاً بروعتها عازياً سحرها إلى موهبة راسمها وكلفه بصاحبتها... وشد ما كان ذلك يؤلمها فلا تبوح بما يضج في فؤادها من ألم الجراح.

وشارفت اللوحة على الانتهاء فلم يسمح لأحد بالدخول، فقد كان الفنان في قمة حماسه حتى إنه لم يكن يرفع رأسه ليلقي نظرة على محياها الشاحب إلا لماماً... كلاّ... لم يكن ليلحظ أن ذاك اللون الذي ظل يسكبه فوق خميلة اللوحة كان ينضح من خديها، وعندما انقضت الأسابيع ولم يتبق سوى بضعة من الرتوش هنا وهناك... فوق الشفتين... وأعلى العينين... خفقت المسكينة فجأة كما يخفق لهب المصباح... ووضع الفنان عدته جانباً، فقد أتم لوحته ووقف أمامها مبتهجاً مأخوذاً بما أنجز... على أنه ما إن ألقى عليها نظرة ثانية حتى ملئ دهشة ورعباً وذهولاً... وامتقع لونه وهو يصيح «كأنما دبت الحياة فيها حقّاً!» ولما أن التفت إلى محبوبته في وله وجدها... قد فارقت الحياة.

الساذجة

للكاتب الروسي الكبير: أنطوان تشيكوف Anton Chekov
(١٨٦٠ ـ ١٩٠٤)

طلبتُ ـ قبل بضعة أيام ـ من مربّية أولادي (جوليا ڤاسيليڤنا) موافاتي بغرفة الكتب.

ـ تفضّلي بالجلوس (جوليا ڤاسيليڤنا) ـ قلت لها ـ كيما نسوِّي مستحقاتك!.

ويبدو أنك تلبسين رداء الرسمية والتعفّف إذ أنك لم تطلبيها رسميّاً مني رغم حاجتك الماسة للمال...! حسنًا... كنا إذًا قد اتفقنا على مبلغ ثلاثين روبلاً في الشهر...

ـ بل أربعين! قالت باستحياء.

ـ كلا... اتفاقنا كان على ثلاثين. دوّنتُ ملاحظة بذلك ـ أَدفعُ إلى المربيات ثلاثين روبلاً عادة. لقد عملتِ هنا مدة شهرين لذا...

ـ شهران وأيام خمسة ـ قالت مصحّحة!

ـ بل عملت لمدة شهرين بالتمام والكمال ـ قلت بإصرار ـ لقد دونتُ ملاحظة بذلك وهذا يعني أنك تستحقين ستين روبلاً ـ يخصم منها أجر تسعة أيام تعرفين تماماً أنك لم تعملي شيئاً ل (كوليا) أيام الآحاد وكنت تكتفين بالخروج به للنزهة... هناك أيضًا ثلاث إجازات و...

ولم تعـقّبْ... اكتفت المسكينة بالنظر إلى حاشـيـة فسـتانها فـيمـا كست محياها حمرة شديدة... ما نبست ببنت شفة!

ـ ثلاث إجازات فلنخصم من ذلك إذًا اثني عشـر روبلاً... كمـا وأن (كوليـا) قد مرض فاستغرق ذلك ثلاثة أيام لم يتلق عبرها أي درس... شُغِلتِ إبّان ذلك بـ (تانيا) فقط، هناك أيضًا أيام ثلاثة شعرت فيها بآلام في أسنانك ممضة اعفتك زوجتي خلالهـا من العمل بعد الظهـر... اثنا عشـر وسـبع يسـاوي تسـعة عشـر، واطرحي ذلك فيتبقى بعد ذلك... آ... واحد وأربعون روبلاً... أصبح ذلك؟

واحمرت العين اليسرى (لجوليا ڤاسيليڤنا) ثم... غرقت بالدّمع، فيما تشنّج ذقنها وارتعش... وسعلت بشدة ثم مسحت أنفها... إلا أنها... لم تنبس بحرف!

ـ «قـبـيل ليلة رأس السنة كسـرت كوب شـاي وصـحنة، يخـصـم من ذلك روبلان رغم أن تكلفة الكوب هي في الواقع أكثر من ذلك إذ إنه كان ضمن تركةٍ قـيّـمـة... لا يهم ! ليـست تلك هي أولى مـا مُنيت به من خـسـائر...! بعـد ذلك ونتيـجـة لإهمـالك صـعـد (كوليـا) شـجـرة فـتـمـزق مـعطفـه ـ يخـصم من المجمـوع عشـرة روبلات... كما وأن الخـادم قد سـرقت ـ بسـبب لا مبـالاتك حذاء (ڤـانيا) ينبغي أن تفتحي عينيك جيّدا... أن تتوخي الحذر والحيطة!

فنحن ندفع لك ثمن ذلك... حسنًا نطرح من كل ذلك خمسة روبلات وإني قد أعطيتك عشرة روبلات يوم العاشر من يناير!

ـ لم يحدث ذلك! همست (جوليا ڤاسيليڤنا).

ـ بلي! دونتُ ملاحظة بذلك قلت بإصرار!

ـ حسناً وإذاً! أجابت بنبرات كسيرة.

ـ فإذا ما خصمنا سبعةً وعشرين من واحدٍ وأربعين فسيتبقى لك أربعة عشر روبلاً!

وغرقت بالدموع يومها كلتا عينيها فيما ظهر العرق على أنفها الصغير الجميل... ياللبنيّة المسكينة!

ـ لم أحصل على مال سوى مرة واحدة!

ـ قالت بصوت راعش متهدج النبرات ـ وكان ذلك من زوجتك. ما تجاوز ما استلمته ثلاث روبلات... لا أكثر سيدي!

ـ حقّاً؟ أرأيت؟ لم أدوّن ملاحظة بذلك ـ سأخصم من الأربعة عشر روبلاً ثلاثة فيتبقي لك أحد عشر روبلاً!

ودفع إليها بالمبلغ فتناولته بأصابع مرتجفة ثم دسته في جيبها.

شكراً! قالت هامسة.

ـ ولماذا هذه ال (شكراً) سألتها!

ـ للمبلغ الذي دفعته لي.

لكنك تعرفين أني قد غششتك... أني قد سرقتك ونهبت مالك فلماذا شكرتني؟!

ـ في أماكن أخرى لم يكونوا ليدفعوا لي شيئاً البتة!

ـ لم يمنحوك على الإطلاق شيئاً؟ زال العجب إذاً! لقد دبّرت هذا المقلب كي ألقّنك درساً في المحافظة على حقوقك، سأعطيك الآن مستحقاتك كاملة... ثمانون روبلاً... لقد وضعتها في هذا الظرف مسبقاً... لكن ـ تساءلت

مشـدوهاً ـ أيعقل ذلك؟ أن يتّسم إنسـان بكل ذلك الضعف والاستسلام؟ لماذا لم تعتـرضي؟ لم كل ذلك الصـمت الرهيب... أيعـقل أن يوجـد في هذا العـالم النابض بالظلم والأحقـاد والشراسـة إنسـان بلا أنيـاب أو مخالب؟ إنسـان في سذاجتك وخضوعك؟

وابتسـمت في ذل وانكسـار فقـرأت في مـلامحـهـا «ذاك ممكن» واعتذرت منها مجدداً عما سـببته لها من ألم وإحراج، إذ إن الدرس كان قاسيًا حقّاً قبل أن أسلّمهـا الظرف الذي يحـوي أجـرها... ثمـانون روبلاً تناولتـهـا بين مكذّبة ومصـدقة... وتلعثمت وهـي تكرر الشكر... المرة تلو المرة ثم غـادرت المكان وأنا أتأملها وسيل من جراحـات الإنسـان المعـذب في أرجاء غـابة الظلم ينداح في أوردتي وهمست لنفسي:

ـ حقّاً ما أسهل سحق الضعفاء في هذا العالم!

(١٨٨٣).

عملية جراحية

للكاتب الروسي الكبير: أنطوان تشيكوف Anton Chekov
(١٨٦٠ـ ١٩٠٤)

● مستشفى (أزيمستقو): في ظل غياب الطبيب الرئيس الذي كان في إجازة لإكمال نصف دينه كان في استقبال المرضى ـ نيابة عنه ـ مساعده (كرياتين)، وهو رجل ضخم الجثة عظيم الهيئة في الأربعين من عمره... بوجه تلوح عليه علامات الود والأنس والإحساس بالمسؤولية.

كان يرتدي معطفاً رثّاً بلون الحرير الطبيعي، وبنطالاً منتسل الخيوط، فيما يحمل بين الوسطى والسبابة سيجاراً يظل يبعث رائحة نتنه.

ويدلف إلى غرفة الانتظار القَندلَفت (فونميغلاسوف) وهو رجل طويل القامة... قوي البنية ضخم يدق الأرض إذا مشى فتهتز لوقعه أرجاؤها، وكان يرتدي رداء بنيّاً يتوسطه حزام جلدي عريض. وكانت عينه اليمنى مصابة بإعتام العدسة فهي نصف مغلقة على الدّوام، أما أنفه فيتوسطه ثؤلول كبير يبدو على البعد للرائي كما لو كان ذباباً ضخماً، ويدخل فيحيّ السيد (فلدشر):

ـ مرحباً ـ يرد الأخير عليه متثائباً ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ـ جلست بالأمس أحتسي مع زوجتي شراباً... فما استطعت أن أشرب قطرة واحدة ـ يا إلهي ـ كنت على وشك الانتقال إلى الدار الأخرى. ألم الضرس كان لا يطاق... ولم يكن وحده مصدر الألم إذ إن كامل جهة الوجه كان ينبض بأوجاع ممضة لا أراها الله حبيباً، تظل تنخر أذني كما لو أن مسماراً

صغيراً قد علق هناك كانت آلاماً قاتلة... لا ريب وأن ما ألاقيه هو جزاء ما قدمت في حياتي من أوزار وما اجترحت من سيئات. لقد لامنى الأب بعد آخر عيد وقال لي: «أنت تتمتم يا (يفيم) وتخرج الكلام من أنفك! وتنشد فلا يفقه القوم مما تقول شيئاً!

وكيف أنشد وأنا لا أستطيع فتح فمي؟ قل لي بالله عليك إنه منتفخ موجع... ما ذقت للنوم طعماً.

ـ آ... حسناً ـ قال المساعد (كرياتين) ـ اجلس وافتح فمك!

ويؤدي (فونميغلاسوف) ما طُلب منه فيعقد مساعد الطبيب حاجبيه ويشرع في معاينة الوضع. من بين الأسنان التي اصفرّت بفعل الزمن والتبغ يكتشف واحداً تتوسطه حفرة قفزت في تحدّ فوهتها الهائلة.

ـ «لقد نصحني الأب (ديكون) بأن أضع عليه مزيجاً من (القرنفل) والفجل الحار، على أن ذلك لم يأت بنتيجة فعّالة. كما أعطتني (غليكيريا انيسيموفنا) ـ حفظها الله من كل مكروه ـ خيطاً من جبل (آثوس) ونصحتني بأن اتمضمض بحليب دافئ. لقد علقت الخيط أما الحليب فصرفت النظر عنه، أنا رجل صائم أخاف الله؟

ـ محض خرافات! ـ قال مساعد الطبيب ـ وتمهل قليلاً قبل أن يقول: يتحتم قلع الضرس!

ـ تَفُوقُنا في هذه المسائل علماً والأمر لك ـ لقد دُرِّبتَ على ذلك كيما تلم بحيثيات المهنة وتفاصيلها فتقرر ما إذا كان ينبغي قلع الضرس أو مداواته... أنتم هنا لتخفيف آلامنا... حباكم الباري بأردية الصحة والعافية كيما نظل ندعو لكم حتى تغيّبنا ظلمات اللّحود .

ـ بالغت في الإطراء! قال المساعد (كرياتين) في تواضع قبل أن يتجه إلى خزانة مستلزمات الجراحة ليعدّ للأمر عدته فيقول:

ـ ليست الجراحة أمراً ذا بال... المسألة لا تتطلب غير يد قوية ثابتة وسحب السن في مدة لا تتجاوز الزمن الذي تعطس فيه.

جاءني قبل أيام الوجيه المعروف (الإسكندر يغيبتسكي) مشتكياً من ألم ممض في أحد أسنانه كذلك. إنه رجل مثقف وهو لا يكف عن طرح الأسئلة... يريد أن يعرف طبيعة الأشياء وخلفياتها طرّاً ذكيّ ألمعيّ لمّاح. لقد صافحني بحرارة وناداني باسمي الكامل. لقد عاش في (بيترزبرغ) سبع سنوات وعايش أساتذتها بكل ألفة.

لقد أمضيتُ معه وقتاً طويلاً و... وقاطعه المسكين في ألم:

ـ ناشدتك الله إلاّ خلعته!

ـ ولم لا؟ على أنه ينبغي الإلمام بالوضع أولاً... بطبيعة الخلل... ونوع الحالة، بدون ذلك كله يغدو الأمر مستحيلاً... هناك سن وسنّ بعضها يتطلب الاستعانة بالكلاّب العادي وبعضها الآخر تدعو الحاجة فيه إلى استخدام كلاّب الأضراس، وهناك نوع ثالث يتطلب استخدام المفتاح!

ويلتقط مساعد الطبيب كلاّب الأضراس فيتأمله بشكّ لحظة ثم يتناول العاديّ:

ـ حسناً سيدي افتح فمك ـ قال له محاذيًا إياه بكُلاّبه ـ لسوف نقتلعه بأسرع مما تبصق، ينبغي عليّ أن أفتح اللثة قليلاً وأن أجعل القوة الذراعية على المحور الرأسي! هذا كل ما هنالك. أردف بعد أن فتح اللثة المغلفةَ للضرس الآبقَ.

ـ لقد بعثكم الله أيها المحسنون رحمة لنا ونوراً... نحن الجهلة المساكين قال المريض.

ـ حسناً لا تكثر من الحديث فقط لأن فمك مفتوح يا رجل ـ سيسهل خلعه... هناك أسنان متعبة لا تخرج بسرعة لأنها ليست سوى جذور غائرة يصعب الوصول إليها... أما هذا فسوف ينخلع بأسرع مما... ويضع الكلاّب جانباً ـ لا تتململ ! ابق ثابتاً... قبل أن يرتد إليك بصرك أكون قد انتزعته! ويتناول آلته ثم يتابع: المهم في الأمر تمكّن اليد من أسفل الضرس... تحكُّمها في قاعدة الجذر كيما لا ينكسر التاج!.

ـ يارب السموات والأرض ـ صرخ المريض في ألم ـ أوووووووه

ـ لا تفعل ذلك! توقف عن سحب يدي... دعها قلت لك ـ صاح المساعد قبل أن يستأنف عمله «خلال دقيقة أكون قد... تدرك لا شك صعوبة العمليّة.

ـ يا إلهي... رحماك يامجير... أوووه... ما بك؟ اقلعه! لماذا يستغرقك الأمر خمس سنوات؟

ـ هي مسألة تتعلق بماهية العملية الجراحية ـ يصعب إنهاء ذلك على الفور... والآن....

وتصل ركبتا (فونميثلاسوف) إلى مرفقيه فيما تبرز عيناه وتتشنج أصابعه أما أنفاسه فمتهدجة يقطّعها الألم، فهي زفرات زفرات وتتناثر حبّات العرق على وجهه الأحمر المذعور، المنتفخ الأوداج... ثم تغرق بالدمع عيناه!

وتتردد أنفاس المعالج ثقيلة عالية كنذير شؤم، مناوباً ثقله على قدميه، فهو يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، ثم إذا به يسحب الضرس فجأة... وتمر نصف دقيقة ملؤها العذاب والعناء فينزلق الكُلاّب عن الضرس، ويقفز المريض

كالمدوغ ليتحسس موضع الألم، على أنه يفاجأ به راسخاً كطود شامخ! ويصرخ معولاً كالنائحات الثكالى:

ـ لكنك سحبته. وتضمخ لوعة الشجن في نبراته لهجة ساخرة: عسى أن يسحبوك في دار المقام بذات الطريقة! قال داعيًا عليه... أشكرك من صميم قلبي! ـ تابع هازئاً ـ إن لم تكن ممن يجيدون القلع فلم تقحم فيه نفسك... لقد أريتني نجوم الظهيرة.

ـ وأنت! لم أمسكت بيدي؟ قال المعالج في ثورة جامحة ـ في الوقت الذي كنت أسحب ضرسك المشؤوم كانت يدك تدفع يدي بعنف . يا أيها الأحمق.

ـ بل إنه ما من أحمق سواك!

ـ أتعتقد أيها الفلاح أنه من السهولة بمكان اقتلاع ضرس عنيد؟

جـرّب ذلك يومـاً... إن لم تكن ممن يجيدون القلع... إن لم تكن ممن يجيدون القلع ـ قلّده بسخرية ـ خرج إذاً علينا خبير لا يشق له غبار! خيركم من عرف قدر نفسه... عندما قلعت ضرس (الإسكندر إيڤانيتش) ما قال شيئاً... ما نبس ببنت شفة... إنه أفضل منك... لم يمسك ـ مثلك ـ بيدي ـ اجلس... اجلس قلت لك ـ صاح به ـ!

ـ لا زالت النجوم تتلألأ أمام عينيّ... دعني التقط أنفاسي... آه...

ـ ويجلس المسكين ـ لا تتلكأ في سحبه... اقتلعه دفعة واحدة!

ـ علّم جدتك كيف تمصّ بيضه ـ يا إلهي ـ ما أسرع ما يخرجنا جهل البعض عن طورنا... افتح فمك. قال ذلك قبل أن يدخل الكُلاّب فيه فيتابع ـ ليست العمليات الجراحية لعبة يا أخي! إنها ليست بسهولة انفراج الفم عن بعض الترانيم ـ وتمتد يده إلى إحدى المعدات ـ لا تتحرك، يبدو أن الضرس قد

تُرك مـدة طويلة دون عناية... الجـذور مـوغلة في العـمق... لا تتـحـرك... حسناً... ـ وتُسمع فجأة أصوات تكسر شيء ما ـ فيتمتم المعالج ـ كنت أعلم ـ والله ـ ذلك!.

ولوهلة... يتصلب (فونميغلاسوف) في مكانه كالتمثال... كمن شل الخدر أطرافه... بدا مصعوقاً... مشدوداً وهو يحملق في أعماق اللاشيء كجسد يتأمل روحاً فارقته إلى بارئها... كان العرق يغرق وجهه الشاحب.

ـ ربما كان عليّ استخدام كلاّب الأضراس ـ تمتم المعالج ـ ياللفوضى.

ويعود المريض إلى ذاته... يستعيد وعيه الحسيّ، فيولج أصابعه في فمه لتصطدم بهرمين حادين أحدثهما الكسر الذي شطر الضرس المنكوب ويصرخ غاضباً:

ـ أيها الشـرير الأجـرب... لقـد جُـعِلْتَ على الأرض لتـجلب لنا الويل والثبور... يا بؤرة الهلاك أنت يا...

ـ حسناً... امض في إمطاري بوابل شتائمك ـ رد المعالج واضعاً أدوات القلع في الخزانة ومتابعاً...: يا أيها الجهول... ما نلت من التعليم ما يؤهلك لسبر غور الحقائق! لقد عاش (الإسكندر إيڤانيتش) سبع سنوت في (بيترزبرغ)... إنه رجل مثقف، إنه يشتري المعطف الواحد بمائة روبل... لكنه لا يعرف السّباب مثلك... أيها الطاووسة الحمقاء... لكن... هون عليك... لن تموت».

وينهض المعتل المسكين من مكانه فيلتقط رغيفه ثم يمضي خارجاً لا يلوي على شيء ويده... مطبقة على خدّه... لما تزل!

الأب

(The Falher)

للكاتب الروسي الكبير: أنطوان تشيكوف Anton Chekov

(١٨٦٠ ـ ١٩٠٤)

إحقاقاً للحق يابني... لقد تناولت جرعة شراب... أستميحك المعذرة... فلقد مررت في طريقي إلى هنا بإحدى الحانات، ولما كان الجو خانقاً... شديد الحرارة فإني لم أجد مناصاً من احتساء شيء يذهب بوهج اللهيب المتناهي!

وأخرج العجوز (موساتوف) من جيبه خرقة بالية مسح بها وجهه المتسخ الأمرد:

ـ «لن أمكث هنا أكثر من دقيقة ـ (بوريس) أيا فلذة كبدي» ثم استطرد حائداً عن ابنه بنظره « على أن الأمر في غاية الأهمية معذرة... قد أكون مصدر إزعاج لك... هل... هل أجد لديك عزيزي عشرة روبلات إلى يوم الثلاثاء... كان من المفروض أن أبادر إلى سداد إيجار المنزل يوم أمس... على أنه... تعرف ما كان لدي ثمة مال على الإطلاق حتى ولو شنقوني»!

ودون أن ينبس الشاب ببنت شفة خرج لوهلة وكان بالإمكان سماع الهمس الدائر بينه وصاحبة البيت الريفي الذي يقطنه ومن يشاركه سكناه من صحبه. بعد دقائق ثلاث عاد فسلّم والده ورقة نقدية من فئة العشرة روبلات ودون أن يلقي العجوز نظرة عليها دسها في جيبه: ـ شكراً... أجل حسناً وكيف الأحوال... مضى وقت طويل.

ـ نعم ما التقينا منذ أمد... ليس قبل عيد الفصح في واقع الأمر.

ـ كثيراً ما عقدت العزم على رؤيتك على أنه لم يكن ليتوفّر لدي وقت، يا له من أمر ممضّ! بيد أني أكذب... كل ما أتفوّه به هو محض أباطيل وترّهات لا تصدقني (بورنكا) بني. قلت بأني سأعيد لك المبلغ يوم الثلاثاء... لا تصدق ذلك... لا تصدّق مما أقول كلمة! إياك... أنا عاطل عن العمل ولا أجيد سوى امتهان الكسل والسُّكر... وإني لأخجل أن تقع عليّ أنظار السابلة وأنا ارتدي هذه الأسمال معذرة (بورنكا).

لقد بعثت لك مع تلك الفتاة برسائل استعطاف ثلاث مرات... كنت أكذب... أنا خجل من استغفالك وابتزازك بهذا الشكل يا ولدى. أعرف أنك بالكاد تجد قوتاً... بأنك تعيش على أكل الجراد، على أن لدي كمّاً هائلاً من الصفاقة حدّاً يمكن معه استثماره كمصدر للدخل... عذرك بني (بورنكا). إن إلقاء نظرة واحدة على وجهك البريء هذا يؤثر فيّ أيما تأثير فلا أملك ساعتها سوى قول الحق ولا شيء سواه!

وغشيتهما وهلة صمت ثم أطلق العجوز تنهيدة حَرّة وقال:

ـ هلا قدمت لي كأساً من الجعة... ربما؟

وثانية ما حار الابن جواباً... في صمت خرج، ثم دار ذلك الهمس خلف الباب، وعندما عاد بأقداح الجعة عادت للأب حيويته وشهدت نغمة صوته تغيراً ملحوظاً وهو يقول:

ـ لقد ذهبت إلى سباق الخيل منذ أيام يا بني ـ كنا ثلاثة، راهن كل منا على الحصان (فرسكي) بروبل فكان أن ربحنا اثنين وثلاثين روبلاً ـ لا يمكنني

العيش دون سباقات بني، إنها رياضة النبلاء، ورغم ما أعانيه من زوجتي كلما أزمعت الذهاب، فإني أحرص على حضور تلك السباقات، أنا مغرم بها.

وشرع الشاب ـ وكان ذا شعر جميل ومحيا غزته الكآبه يخطو بصمت جيئة وذهاباً، وعندما توقف العجوز عن الكلام كيما يتنحنح التفت الابن إليه وقال:

ـ لقد ابتعت قبل إيام حذاء اتضح أنه غاية في الضّيق. لم لا تأخذه؟ سأبيعك إياه بثمن زهيد.

ـ كما تشاء! هز العجوز رأسه موافقاً، ثم رسم بتعابير وجهه انطباعاً ساخراً قبل أن يقول:

ـ على أني سآخذه منك بثمنه نفسه... لا تخفيض!

ـ حسناً ـ رد ابنه ـ فخذه إذاً على الحساب.

وزحف الابن تحت السرير فأحضره فيما خلع الأب حذاءه المستعمل البالي وجرب الحذاء الجديد.

ـ على المقاس ـ قال ـ حسناً... دعني احتفظ به ولسوف أُوافيك بثمنه يوم الثلاثاء حينما أستلم معاشي التقاعدي... ها أنا ذا أكذب ثانية، واكتست نبرة صوته طابع الحزن ثانية وهو يقول: هراء... محض هراء وكذا ما أوردته سالفاً فيما يختص بسباق الخيل وبأني أتقاضى مرتّباً وما إلى ذلك وأنت تتحايل عليّ يا (بورنكا) لا تظننّ بأني غافل عن مخططات كرمك... باستطاعتي أن أرى من خلالك كما لو كنت لوح زجاج، حذاؤك صغير جدّاً لأن قلبك كبير جدّاً، أواه بني (بورنكا) أنا أرى وأستشعر كل شيء!

ـ هل انتقلت إلى شقة جديدة ـ قاطعه ابنه محاولاً تغيير دفة الحديث:

ـ نعم بني فعلت... إن أعصاب زوجتي النارية لا تترك لنا مجالاً للبقاء في أي مكان أكثر من شهر.

ـ لقد ذهبت إلى حيث تقيم لأدعوك للسكن معي ـ قد يكون ذلك أفضل لصحتك! أنت بحاجة إلى شيء من الهواء النقي أبي.

ـ كلا ـ قال الأب ملوحاً بيده ـ لن تسمح العجوز لي بذلك، علاوة على أني لا أرغب فيه، لقد حاولتَ أن تنتشلني من أدران ذلك الحي مرات عدة وحاولتُ أنا كذلك، إلا أن الأمر برمته ما أسفر عن شيء بُنيَّ ـ لا تحاول ثانية... سأموت في الوحل لا محالة، إنني أسعد هنا بالتطلع إلى ينبوع البراءة في ملامحك، على أني مشدود إلى حيث أقيم، سمِّه قدراً بني... كلا... لكن علي أن أذهب فقد شرع الظلام في نشر ردائه.

ـ مهلاً... سأذهب معك... لدي اليوم ما أفعله في البلدة.

وارتدى الاب والابن معطفيهما فخرجا... كان الظلام حالكاً فيما بدى وميض لأنوار خافته يلوح من بعض النوافذ.

ـ لقد خدعتك (بورنكا) تمتم الأب ـ أي أبنائي المساكين ما أتعسكم بأن يكون لكم أبٌ مثلي ـ قرة عيني (بورنكا) حينما أصافح ملامح البراءة في وجهك يخونني الكذب ـ معذرة بني فقد بلغت قلة حيلتي الزبى، لقد وفدت عليك وابتززتك وسببت لك الحرج بحالة السكر هذه... وأنا أفعل مع أشقائك الشيء ذاته... لو أنك رأيتني بالأمس دعت زوجتي العجوز (ريفراف) الحارة بأكملها، فسكرنا جميعاً، وكلت لكم السباب المقذع! اتهمتكم بهجري وإهمالي!

لقد أردت أن أثير شفقة أولئك الأشرار لديّ، فتقمصت دور الأب التعيس، هذا ما أفعله دائماً حينما أرغب في إخفاء آثامي، فإني أُلقي باللائمة على أولادي الأبرياء. لا يمكنني أن أكذب عليك (بورنكا) كما أنه ليس بمقدوري أن أخفي الحقائق عنك.

لقد أتيتك متبختراً تيّاهاً على أنه فور استشعاري لرقتك وعطفك انعقد لساني وانقلب ضميري رأساً على عقب.

ـ تحدثنا عن ذلك بما فيه الكفاية فلنتطرق إلى موضوع سواه.

ـ إلهي لك الحمد على ما وهبتني من أولاد صالحين ـ تابع الأب غير مبالٍ بما قال ابنه ـ أنتم نعمة لا أستحقها ـ كان ينبغي أن تكونوا أبناءً لأب صالحٍ سويّ، له مشاعر وأحاسيس، أنا لا أستحقكم ـ قال رافعاً يديه للمولى شكراً ـ وهبتني إلهي ثلاثة أبناء يندر وجودهم جادين مثابرين لا يعرفون للمسكر مذاقاً... ياللعقول النيّرة... (كابي) يالعقلك الراجح... أما (جريجوري) فإن عقله يزن عقول عشرة رجال، إنه يجيد الفرنسية والإنجليزية، ويترافع أفضل من أمهر المحامين... لا تملُّ حديثه أبداً أولادي... أيا أولادي بالكاد أصدق أني أبوكم!

أما أنت (بورنكا) فرائع... لقد أضررت بك كثيراً... أنت تعطيني المال أبد الدهر رغم اقتناعك بأن ما تمنحه يذهب هباء، لقد بعثت لك قبل أيام برسالة تقطر حزناً وشرحت فيها تفاصيل المرض الذي ألمّ بي... لقد كذبت يومها وكنت أريد المال لأبتاع به شيئاً من أم الكبائر... ووهبتني ما أردت مخافة أن يجرح الرفض شعوري أعرف ذلك! و (جريشا) رائع كذلك!

لقد زرته في مكتبه يوم الخميس الماضي وكنت ثملاً... رثَّ الهيئة متسخ الملابس، أما رائحة (الڤودكا) المنبعثة مني فكانت كرائحة نعل... وكان ذلك أمام زملائه ومديره في العمل وزبائنه... كانوا جميعاً هناك وقوفاً ينظرون إلينا، لقد ألحقت به وصمة عار ستظل ترافقه مدى الحياة. ولم يبد عليه أن كان محرجاً أبداً... امتقع لونه قليلاً على أنه ابتسم في وجهي وكأن شيئاً لم يكن، كأني ما اجترحت إثماً، لا بل إنه قد قدمني إلى رفاقه ثم زاد على ذلك بأن أعادني إلى منزلي دون كلمة لوم واحدة. أنا أبتزه أكثر مما أبتزك (بورنكا)، أما أخوك (ساشا) فشهيد مثلكم لقد تزوج ابنة كولونيل... ودلف دائرة الوسط الارستقراطي، ومع ذلك فإن أول ما فعله بعيد زواجه أن جاء بصحبة عروسه لزيارتي... في ذاك الجحر الذي أقطنه والله على ما أقول شهيد.

وفجأة قفزت عجوزي الشمطاء بهيئتها المرعبة في وجهيهما بينما كنت مستلقيًا إثر احتساء بعض الأقداح، فاكتملت بذلك تلك الصورة المزرية إلا أن أخاك قد سما فوق ذلك كله.

ـ أجل أنه طيب. قال (بورنكا).

ـ رائعون! أنتم جميعاً ذهبٌ أَصْلِي. إنني أُسيء إليكم... أعذبكم أسرقكم ومع ذلك فما سمعت منكم يوماً كلمة توبيخ، ما نهرني أحدكم أو عبس في وجهي... ما رأيتم مني غير الأذى، إنني رجل سيئ محروم... ذهب الزمان بقوتي وشبابي. كنت إبان طفولتكم صعب المراس، قوي الشكيمة، وكنت على يقين من صحة كل ما أقوله أو أفعله... كنت أعود أحياناً ثملاً معتل المزاج فأصرخ في وجه أمكم المسكينة الراحلة متهمًا إياها ببعثرة النقود... كنت أُؤنبها الليل كله... وكنت واثقاً من أني على حق... وعندما كنتم تستيقظون في

الصباح يظل ذلك الطابع المأساوي سائداً أرجاء البيت تلك المرأة البائسة! يعلم الله كم لاقت على يدي من صنوف العذاب! وعندما كنتم تعودون من مدارسكم جياعاً منهكين ما كان بمقدوركم تناول شيء من الطعام حتى أستيقظ... لابد وأنك تذكر ذلك. أرجو أن لا يبتلى أحد بأبٍ مثلي... لقد جُعِلْتُ لكم بمثابة الابتلاء يا أبنائي فاصبروا حتى النهاية... برُّوا أباكم وسيمد الله لكم في آجالكم إن شاء تعالى. توقف أيها السائق! صاح به ثم قفز من العربة واتجه صوب إحدى الحانات ليعود بعد نصف ساعة مترنحاً في سكر ملحوظ فيصعد إلى جوار ابنه.

ـ وأين (سوينا) الآن؟ سأل ابنه ـ ألا تزال في مدرستها الداخلية؟

ـ كلا فقد تخرجت في شهر (مايو). إنها الآن تعيش مع حماة أخي (ساشا).

ـ حسناً! قال العجوز في دهشة: إنها فتاة رائعة وهي تسير على نهجكم السوي ذاته! آه (بورنكا) ولا أُمَّ هناك لترعاها وتواسيها. اسمع (بورنكا) أهي تعرف أين أسكن؟ هاه؟

ولم يجب (بورنكا) ومرت خمس دقائق تخللها صمت عميق ما قطعه سوى نشيج العجوز الذي أخرج خرقة بالية مسح بها وجهه وقال: ـ أنا أحبها كثيراً (بورنكا) إنها ابنتي الوحيدة وليس هناك عزاء أوان الشيخوخة غير وجود ابنة بارّة، أريد أن أراها! أيمكنني ذلك (بورنكا)؟

ـ بالتأكيد ـ أنى شئت!

ـ حقاً؟ ألن تمانع هي؟!

ـ بالطبع لا، لقد كانت تحاول العثور على عنوانك، إنها تريد في حقيقة الأمر أن تراك!

ـ بالله عليك ـ يالكم من أبناء صالحين ـ أيها السائق؟... حدد لنا لقاءً معها (بورنكا) عزيزي لابد وأنها قد أصبحت الآن فتاة جميلة رقيقة... على أني لا أريدها أن تراني على هذه الحال سأقول لك (بورنكا)... سنضع للأمر خطة مناسبة. لن أمسَّ قدحاً لثلاثة أيام كيما يعود لوجهي الثمل رونقه، عندها سآتي لاستعارة بدلة منك تليق بالمناسبة... ولسوف أحلق ذقني وأختار لشعري قصة أنيقة ثم تذهب أنت فتأتي بها إلى بيتك موافق؟

ـ حسناً جداً.

ـ أيها السائق توقف ـ وقفز الرجل من العربة فاتجه صوب إحدى الحانات! وقفز كذلك مرتين قبل أن يصلوا إلى شقته وفي كل مرة كان ابنه ينتظره صامتاً... بكل صبر الدنيا. وعندما انصرفت عربة الأجرة اتخذا طريقهما عبر ساحة قذرة متجهين صوب شقة العجوز، عندها اكتسى وجه الأب بطابع الحيرة والذنب، وطفق يتنحنح ويرطب شفتيه بلسانه:

ـ (بورنكا) قال بلهجة تملّقيّة ـ إن شرعت عجوزي في مدّ لسانها فلا تأبه بما تقول و... حاول أن تكون... تعرف... أن تكون لبقاً معها... إنها جاهلة... صفيقة وقحة على أن لها فؤاداً ينبض دفئاً وطيبة...

عندما شارفا على الوصول إلى نهاية الممر الطويل وجد (بورنكا) نفسه في مدخلٍ مظلم، وأحدثت مفاصل الباب صريراً متصلاً، فيما تصاعدت رائحة دخان وطعام من الموقد... وعلت أصوات صاخبة، وفي الطريق إلى الداخل

مروراً بالمطبخ لم يميّز (بورنكا) شيئاً سوى دخان كثيف وحبل علقت عليه بعض الملابس، كما لمح عبر أحد الصدوع مدخنة (السمّور) وهي تقذف بشرر ذهبي.

ـ هنا تقبع زنزانتي. قال العجوز وهو ينحني لدخول غرفة منخفضة السقف... كانت لقربها من المطبخ خانقةً إلى حدّ لا يطاق.

ثلاث نساء كن يجلسن فيها إلى إحدى الموائد متلذذات بتناول الطعام والشراب، وما إن وقعت أنظارهن على الوافد الغريب حتى تبادلن النظرات وتوقفن عن الأكل:

ـ حسناً هل أحضرت المطلوب؟ سألته إحدى السيدات بصوت أجش وبدا جليّاً أنها كانت عجوزه السليطة.

ـ أحضرته... أحضرته ـ تمتم العجوز ـ مرحباً (بورنكا) تفضل بالجلوس ـ نحن أناس بسطاء أيها الشاب.

وشرع العجوز يجول في الغرفة دون هدف محدد... أشعره حضور ابنه بالخجل على أنه في الوقت ذاته أراد أن يواصل أمام النسوة تمثيل دور الأب المغلوب على أمره، ذاك المسكين الذي هجره أبناؤه دون رحمة ـ

ـ نعم يا صديقي ـ نحن أيها الشاب نعيش عيشة البسطاء!

ـ تمتم ـ ولا نميل إلى التصنع مثلك... نحن بسطاء أجل إننا لكذلك... هل لنا في شيء من الشراب؟

وقالت إحدى النسوة وقد خامرها شيء من الخجل منعها من معاقرة أم الكبائر بادئ ذي بدء قبل أن تتذرع بأن جمال الفطر الشهي يدفع إلى ذلك دفعاً:

ـ (إيفان جيراسميتش) اسأل الشاب إن كان يرغب في شيء من الشراب ـ نطقتْ بالكلمة الأخيرة في تشدّق ملحوظ.

ـ تناول شيئاً أيها الشاب. قال الأب دون أن ينظر إليه ـ لا شراب فاخر لدينا... نحن أناس بسطاء بنيّ!

ـ لا يعجبه أسلوب حياتنا ـ قالت العجوز المتسلطة.

ـ لا بأس ـ سيشرب شيئاً.

ورغبة منه في عدم إغضاب والده تناول (بورنكا) كأساً احتساه بصمت ثم جيء بشاي مقزز تناول منه قدحين دون أن ينبس ببنت شفة، مرتدياً قناع حزن إرضاء لأبيه، ومستمعاً إلى اتهامات زوجة أبيه بصمت عن قسوتهم على أبيهم وتخليهم عنه في هذا الزمن المتقلب العاتي.

ـ أعلم ما يجول بخاطرك الآن ـ صاح العجوز متسنمًا هرم الثَّمَلِ البغيض ـ تظن بأني أهين نفسي ـ بأني أستحق الشفقة، فليكن معلوماً لديك يافتى بأن حياتنا البسيطة غير المتكلفة هذه هي أفضل من حياتك ـ لست بحاجة لأحد ولا أعتزم إذلال ذاتي، لا يمكنني تحمل نظرات الشفقة من أحمق جاهل.

بعد الشاي... نظف الأب سمكاً ورش عليه بصلاً مفروماً! فعل ذلك بسعادة وعاطفة دمعت لها عيناه، ثم شرع يتحدث ثانية عن رهانات سباق الخيل وأرباحه منها، وعن تلك القبّعة التي دفع لشرائها بالأمس ستة عشر روبلاً... كان يكذب بذات الحماس الذي يغشاه حين يشرب ويتبل السمك، ولساعة جلس ابنه في صمت ثم استأذن في الخروج.

ـ لن أحاول إبقاءك أكثر من ذلك... ! قال مخاطباً ابنه في صلف ـ معذرة إن كانت معيشتنا تختلف عما اعتدته.

وانتصب واقفاً بخشونه قبل أن يغمز للنسوة ثم التفت إلى ابنه فقال مودعاً:

إلى لقاء يافتى ـ وصحبه إلى الباب ـ انتبه لنفسك! وهناك حيث كان الظلام يغشى أرجاء المكان والزمان دس وجهه في كمِّ قميص ابنه وشرع ينتحب:

ـ أريد أن أرى (سونيا) ـ همس لابنه ـ رتب لنا موعداً للِّقاء عزيزي (بورنكا) ـ ولسوف أحلق وأرتدي بزتك الجميلة وألبس قناع الصرامة والجديّة... وحين تكون هي هناك فلن أتفوه بكلمة! أعدك... لن أنبس ببنت شفهة.

ورمى بنظرة مرتعشة صوب الباب الذي تسللت عبره أصوات النسوة ثم كتم نشيجه وهو يرفع صوته قائلاً:

ـ إلى اللقاء يافتى ـ انتبه لنفسك!

بئر أحزان
«إلى من أبث الأسى» ؟!!

للكاتب الروسي الكبير: أنطوان تشيكوف Anton Chekov
(١٨٦٠ ـ ١٩٠٤)

شفق المساء ونُدَفٌ كبيرة جمة من ثلج رطب تطوف بكسل حول قناديل الشارع المضاءة لتوها، لتتراكم مشكّلة طبقة خفيفة على أسقف المنازل وظهور الخيل وأكتاف الناس.

كان (أيونا بوتاكرف) الحوذي أبيض كشبح، وكان أحدب الظهر... طفق يتربع على مركبته دون حراك غير آبه بالثلج المتساقط، ما كان ليحرك ساكناً حتى ولو دفنته أكوام منه... وكذا كانت فرسه الهرمة التي بدت تقوسات أعضائها وانحناءات عظامها كما لو كانت كعكة زنجبيل رخيصة، لابد وأنها الآن تسبح في لجج عميقة من التفكير، وليس على المسكينة أدنى لوم، إذ إن من يُقتلع من الحقل والمحراث وبيئة الريف ليلقى به في أدغال المدينة وسط أضواء عارمة وهدير لا ينتهي من ضوضاء وجلبة وأقدام متسارعة سيغرق لا شك في تفكير عميق. ولم يكن (أيونا) وفرسه قد تحركا من مكانهما... خرجا قبيل العشاء سعيًا وراء راكب ولا حياة لمن تنادي إلا أن شفق المساء كان قد غطى الآن سفوح المدينة، فيما ازداد بريق المصابيح وجلبة المشاة.

ـ مركبة جليد إلى مقاطعة «ڤيبورج» ـ مركبة جليد! تناهي النداء إلى سمع (أيونا).

ويطل (أيونا) خلف رموش أثقلتها ندف الثلج وهو متجه بمركبته إلى الراكب فيلمح فيه ضابطاً ببزة عسكرية وقلنسوة.

ـ إلى مقاطعة «ڤيبورج» ـ أعاد الضابط القول.

ويحرك (أيونا) لجام فرسه في إشارة توحي بالقبول فتتناثر في الجو رقائق من الثلج. ويصعد الضابط إلى مركبة الجليد فيلكز (أيونا) فرسه في جنبيها ثم يلوي عنقها فكأنما هي وزة بعيدة مهوى القرط... ويلوح بسوطه ـ جريًا على العادة ـ أما الفرس فتمد عنقها وتعقف سيقانها العجفاء ثم... تسير على مضض.

ـ ما هذا الاندفاع تبّاً لك ـ هيه تمهّل! الزم اليمين!.

جاءته صيحات كثيره من الجموع حوله عقّب عليها راكبُه بغضب:

ـ ألا تجيد القيادة؟ الزم اليمين!

ويزداد نضح الألم... يمر به سائق مركبة فيسمعه سيلاً من السباب ويحملق به أحد المشاة في غضب بعد أن احتك بأنف فرسه ثم طفق ينفض الثلج عن كمه، ومن على صندوقه يتململ (أيونا) فكأنما هو يفترش قاعدةً من مسامير ودبابيس... ودفع مرفقيه بعنف فيما شرعت عيناه تدوران في محجريهما ماسحاً المكان ببصره في عصبية كما لو كان يجهل ماهية وسبب وجوده في ذاك الموضع بالذات!

ـ يالهم من أوغاد ـ علق الضابط ضاحكاً ـ إنهم يبذلون غاية جهدهم للاصطدام بك أو الوقوع تحت العربة! مؤامرة مادية لا ريب!

ويفتح (أيونا) فمه ليقول شيئاً فلا يقدر... صوت أشبه بالصفير هو ما خرج منه!

ـ ما الأمر؟ سأله الضابط.

ويمط (أيونا) شفتيه فيما يشبه الابتسام ليقول بصوت أجش:

ـ ابني سيدي... آ... مات منذ أسبوع.

ـ هم م م... (تمتم الضابط) وممّ مات؟

ويدير (أيونا) ظهره ليقابل الراكب وجهاً لوجه:

ـ من يدري؟ ربما كانت حمى أصابته... ما مكث في المستشفى لأكثر من ثلاثة أيام فارق الحياة بعدها... إنها مشيئة الباري ولا راد لقضائه.

ـ افتح الطريق أيها الصعلوك... ماذا حل بك ـ ألا ترى ما حولك!

جاءته صرخة من جوف الظلمة المحدقة به على أن صوت الضابط تناهى إلى سمعه بعيد ذلك:

ـ هيا تحرك... لن نصل بهذه السرعة قبل صبيحة الغد ـ أين السوط؟ ويعتدل (أيونا) في جلسته ثانية ثم ينهض فُيّعُمِلُ في الفرس سوطه... ويرجع بصره إلى الضابط فإذا هو مغلق العينين... لم تكن به رغبة للاستماع لا شك ـ قال (أيونا) لنفسه ـ.

في مقاطعة (ڤيبورج) ينزل الراكب فيتجه (أيونا) إلى أحد المقاهي ثم يعود ليجلس على صندوقه ثانية وقد بدا ظهره أكثر تقوساً من ذي قبل... ويعود الثلج ثانية إلى طلائه وفرسه باللون الأبيض وتمر ساعة... واثنتان... ثم يفد

إليه ثلاثة رجال: طويلان وقصير أحدب... كانوا يتبادلون الشتائم وأحذيتهم تقرع الرصيف بعنف:

ـ إلى جسر الشرطة أيها الحوذي ـ صاح الأحدب بصوت أجش ـ مقابل عشرين (كوبكاً) لثلاثتنا!

ويشد (أيونا) لجامه... لم يكن المبلغ كافياً على أنه لم يملك أي خيار آخر، ويتجه الثلاثة إليه في لغط ثم يقفزون إلى العربة في آن واحد للاستئثار بالمقاعد، إلا أن الحيّز ما كان يتسع لأكثر من اثنين فيتفقون أخيراً على أن الوقوف هو من نصيب الأحدب... كونه أقصرهم!

ـ حسناً... انطلق... قال له الأحدب بصوت أجش وأنفاسه تمارس الانزلاق على رقبته ـ هيا ـ تابع الأحدب ـ يا إلهي ـ ما هذه العربة لا أعتقد أن هناك ما هو أقبح منها في (بيترزبيرج).

ـ هاه هاه ـ يقهقه (أيونا) مسايراً ـ الأمر كما وصفته.

ـ حسنًا فحث الخطى إذًا ـ جاءه صوت الأحدب ثانية ـ أتنوي ممارسة الحبو طوال الطريق؟ أم أنك تحنّ إلى صفعة على قفاك؟

ـ يكاد رأسي ينفجر ـ قال أحد الجالِسَيْن ـ جراء ما اقترفناه ليلة البارحة!

ويشتد الجدل بينهم ثانية فيضحك (أيونا) قبل أن يقول:

ـ أنتم منشرحون ـ فليُدِم المولى سعدكم.

على أن القصير يصيح به:

ـ تبّاً لك... ألن تتحرك... الحشرة العجوز ـ السع ظهرها بالسوط هيا... انهض... ألا تعساً لكما!

ويحس (أيونا) بجسد الأحدب يتململ وراءه، وأنفاسه المضطربة تلسع رقبته... وتحاصره الشتائم وعشرات المشاة، فيحس وكأن يداً قد أخرجته من قوقعة الوحدة والوحشة والأحزان... وتقطر شتائم الأحدب من فيه سراعاً، على أن نوبة سعال توقف ذلك كله... أما الجالسان فينهمكان في حديث جانبي... حتى إذا ما آنس (أيونا) منهما لحظة هدوء قال:

ـ هذا الأسبوع... آ... مات ولدي!

ـ سنموت جميعاً... قال الأحدب مطلقاً تنهيدة حرى... ماسحاً شفتيه بيده ـ ومتابعاً ـ هيا هيا... أسرع... لا أستطيع احتمال هذا البطء ياسادة... متى سنصل إلى غايتنا!

والتفت أحد الجالسين إليه:

ـ السع رقبته فربما أسرع.

ورد الأحدب مخاطباً الحوذي:

ـ أسمعت ـ سوف أصفعك إن لم تغذّ السير... ألا تسمع ما يوجه إليك من حديث... يا أيتها الحية العجوز.؟!

ويسمع (أيونا) صوت ضربة على قفاه دون أن يشعر بها:

ـ هاه.. هاه ـ انهمك في ضحك قصد به ترطيب الأجواء ـ أنتم منشرحو الصدور إذاً ـ زادكم الله صحة وسعادة.

ـ أمتزوج أنت أيها الحوذي ـ سأله أحد الجالسيْن.

ـ أنا ـ وعاد إلى الضحك ـ ليس لي من زوجة الآن سوى التربة الرطبة ـ

هاه.. هاه ـ القبر أقصد ـ يا للمفارقة مات ابني وأبوه على قيد الحياة ـ ليت المنية أنشبت أظفارها فيّ بدلاً منه.

ويستدير المسكين إليهم ليروي قصة موت ابنه على أن الأحدب يطلق في اللحظة ذاتها تنهيدة ارتياح لوصولهم غايتهم مزجياً جم الشكر للمولى على أن حقق لهم ذلك! ويترجل ثلاثتهم فيغيّبهم مدخل مظلم والحوذي يشيع بنظراته شلة المذبذين تلك.

ويعود إلى قوقعة الوحدة والعزلة... وقسوة الوحشة وذاك الحزن الطاغي الذي أمهله قليلاً ثم عاد لينشب في فؤاده أظفاراً مسمومة وكانت عيناه تموجان بالقلق واللوعة والألم وهو يرقب جموع الغادين والرائحين على ضفتّي الطريق... أليس بين تلك الجموع المائجة من يستمع له؟... على أن طوفانهم كان يمر به دون توقف غير عابئ بعاصفة الأحزان في ذاته، كان ألمه جمّاً... رهيبًا لا يطاق، لو انفجر لأغرق الدنيا، ورغم ذلك فلم يكن ليلحظه أحد... تخير لنفسه قوقعة آمنة في وجدانه لا يصل إليها سمع أو بصر في وَضح النهار.

ويلمح (أيونا) حارساً يحمل حقيبة فيهرع إليه عله يبثه شيئًا من حزنه:

ـ كم الساعة الآن يا رفيقي؟ يسأله (أيونا).

ـ قد جاوزت التاسعة ـ لماذا توقفت هنا؟ امض في حال سبيلك! نهره المسؤول!

تقدم بفرسه بضع خطوات ثم يتوقف ليسلم عنقه لحبل الأحزان، لا فائدة من التحدث إليهم ـ قال في نفسه ـ فيما ازداد تقوّس ظهره على أنه استقام ـ بعد دقائق خمس ـ ثم هب كالملسوع وهز لجام فرسه إذ لم يعد يحتمل أكثر من ذلك!

ـ إلى البيت ـ قال في نفسه ـ إلى البيت!

وكأنما فهمت فرسه ما جال في باله فهي تتخذ إلى المنزل طريقها.

بعد ساعة ونصف كان (أيونا) يجلس بمحاذاة موقد متسخ كبير... وعلى الأرض والمقاعد كان هناك نفر غير قليل يمارسون رياضة الشخير، أما الهواء فثقيل فاسد... ويلقي عليهم (أيونا) نظرة طويلة ثم يحك جسده مستشعراً الندم على عودته باكراً... ما من أحد يسمع شكواه!

ـ لم أجمع اليوم ما يغطي كلفة الشوفان! تلك هي مشكلتي... إن من يقدر على إعالة نفسه وحصانه... هو إنسان حازم مدبر... لا يندم أبداً!

وينهض من أحد الأركان عامل شاب... يتمتم شيئاً قبل أن يمد يده لتناول إناء الماء:

ـ أعطشان أنت؟ يسأله (أيونا) في لهفة:

ـ أظن ذلك.

ـ هنيئاً مريئاً... لكن ابني قد توفي ياصديقي! أسمعت؟ مات في المستشفى هذا الأسبوع و...

وينظر إليه (أيونا) كيما يستجلي تأثير ذلك عليه فلا يلمح شيئاً!

كان الشاب قد غطّى وجهه وأطلق لتيار المنام والأحلام العنان... ويتنهد العجوز ثانية ثم يحك جلده مجدداً... عطشه للعثور على من يستمع إلى أشجانه كان كعطش الشاب إلى الماء... سيمر أسبوع على وفاة ابنه دون أن يجد من يصغي باهتمام إليه... ويجب أن يجد مجالاً لذلك... أن يقول لهم

كيف سقط فلذة كبده طريح الفراش... وكيف قاسى ويلات الألم... ماذا قال قبل أن يموت وكيف احْتُضِرَ... ينبغي أن يصف لهم مراسم الجنازة... وكيف ذهب إلى المستشفى كيما يجلب ملابس حبيبه الراحل... وهو يود كذلك أن يتحدث عن ابنته (آنية) إنها لا تزال في الريف... أجل... لديه الآن الكثير مما يود التحدث عن...، وعلى من يستمع إليه أن يتفاعل مع ما يقول فيشهق... ويتنهد ألماً... أن يندب ويُعْوِلَ! ثم... لربما... لربما كان من الأفضل أن يتحدث إلى نساء إذ إنه رغم حمقهن فلسوف ينتحبن في لوعة إبان سماع الجملة الأولى!

ـ ينبغي أن أخرج فألقي على الفرس نظرة ـ فكّر (أيونا) سيكون هناك متسع من الوقت للنوم فلا تُرَعي ـ قال لنفسه ـ ويرتدي ثيابه ثم يخرج إلى فرسه ويفكر في الشوفان والشعير وحالة الطقس.

عندما يكون وحيداً فإنه لا يجرؤ على التفكير بحبيبه الراحل دون عودة... الجاثم دون حراك بين طيات الثرى... باستطاعته أن يتحدث عنه في حضرة مستمع ما... أما أن تضطهده الذكرى وحيداً فالألم لا يطاق!

ـ أتجترّين؟ ـ قال مخاطباً فرسه محدّقاً في عينيها اللامعتين ـ هيا استمري في المضغ! إن لم نجمع ما يكفي لشراء الشوفان فلسوف نأكل شعيراً، أجل لقد هرمتُ وما عاد الزمان يسعفني لامتطائك... كان من المفروض أن يتولى ابني ذلك فيريحني، لقد كان حوذيّاً بارعاً ـ ألا ليت سهم المنية أخطأه فأصابني! ويتدارك نفسه فيتمتم: ـ اللهم لا اعتراض!.

ويصمت قليلاً ثم يستأنف حديثه: أجل... فتأتي العجوز... لقد مات (كوزما) فارق هذه الدنيا... وتركني للدموع والضنى... لنفترض أنك أنجبت

مهراً صغيراً جريئًا جميلاً ما كان له في هذا الدنيا سواك... وفجأة غيبته أكف المنون أفلا تجزعين عليه؟!!

وفي صمت توالي الفرس القضم وأنفاسها الهادئة تداعب يدي سيدها الذي تجرفه العاطفة فيفضي إليها بكل شيء!

حبيبهـــا

للكاتب الروسي: مكسيم جوركي: Maxim Gorky
(١٨٦٨ ـ ١٩٣٦)

حكى لي أحد رفاقي القصة التالية. قال:

عندمـا كنت طالبـاً في (مـوسكو)... حـدث أن القـاطن بجـواري كـانت إحـداهن... تعـرف مـا أعني! كـانت بولنـدية الأصل واسـمهـا (تيـريسـا) وكـانت طويلة... ضخمة الجسم عظيمة الهيئة بحواجب سوداء كثيفة ووجه كبير غير معقول كما لو أن ملامحه قد حفرت بفأس فتبارك الله أحسن الخالقين. ومن عينيها كان ينبعث شعاع بهيميّ، أما صوتها الأجش فكان يشادي نداء بائعة سمك... ذلك كله كان يملؤني رعباً وخشية وترقّباً كلما دنت مني. كانت غرفتي في الدور العلوي قبالة مسكنها، ولم أكن لأترك الباب مفتوحاً أبداً حينما تكون في بيتها، على أن ذلك نادراً ما كان يحدث فهي بالخارج أغلب وقتها.

وقد ألاقيها في سلم الدار أو ساحتها فألمح على شفتيها تلك الابتسامة الماكرة الساخرة كما يرسمها خيالي، وكنت أحياناً أراها ثملة شعثاء الشعر وهي تبتسم تلك الابتسامة البغيضة قبل أن تقول لي:

ـ كيف حالك سيد تلميذ؟... وتتبع ذلك بضحكة حمقاء مدوِّية تزيد من عذابي وألمي وخوفي ومقتي لها. وطالما راودتني فكرة تغيير مسكني تجنّبًا لذلك كله، على أن غرفتي كانت نظيفة هادئة وتطل على منظر خلاب لفضاءات سرمدية فاحتملت الأمر على مضض.

وفيما كنت متمدداً على الأريكة ذات صباح... معمِلاً فكري فيما عساي أقوله لتبرير عدم حضور درس ذلك اليوم... إذا بالباب يفتح فجأة ليدوّي صوت (تيريسا) المقيت فتهتز له الأعتاب الهلعة!

ـ طابت صحتك... سيدي الطالب!

ـ ماذا تريدين؟ قلت... وتأملت وجهاً افترشت ملامحه الحيرة والتوسّل. ما كان وجهها المألوف ذاك!

ـ جئت يحدوني رجاء أن تحقق لي مطلبًا عزيزاً فهل أنت فاعل؟

وتعلّقت بأهداب الصمت ممدداً على أريكتي كنت... ألوك شتى الاحتمالات التي قد تخطر على قلب بشر:

ـ «الصبر على صروف الدهر يا فتى»! قلت لنفسي .

ـ يتمثل طلبي ـ قالت ـ في إرسال خطاب إلى بلدتي!

صوتها كان متوسلاً... رقيقاً... خائفاً.

ـ تبّاً لكِ ـ قلت في سري ـ على أني هببت واقفاً فجلست على مكتبي وامتشقت قلماً وورقة وقلت آمراً:

ـ تعالي! اجلسي هنا وأملي علي ما تودين كتابته.

ودنت برقة فجلست ونظرة من يستشعر إحساساً بالذنب تطل من عينيها.

ـ حسناً! إلى من ترغبين في توجيهها؟

ـ إلى (بولسلاف كاشبوت) ببلدة (سقيپتسنانا) جادّة (وارسو).

ـ تابعي! قلت مستحثاً كيما أنهي الأمر برمّته.

«عزيزي وقرة عيني (بولز)... رعتك ـ حبيبي ـ عين الإله، لِمَ انقطعت يا توأم الروح عن الكتابة إلى يمامتك الصغيرة الحزينة (تيريسا)؟

وغالبتُ نوبة ضحك جارف كاد يتمزق لوقعها كياني: يمامة صغيرة حزينة! يمامة جاوز طولها خمسة أقدام وتعدى وزن قبضتها حجراً (١٤رطلاً) ووجه كالح كأن ربَّتَهُ اليمامة قد لازمت المدخنة دهراً فلا هي جادت عليه مرة بُغسل وكبحت جماح ذاتي فقلت:

ـ من هذا (البولسيلاف)؟

ـ (بولسلاف) سيدي الطالب ـ قالت وقد أزعجها خاطئ نطقي لاسمه ـ هو شاب يعني لي الكثير.

ـ شاب؟ سألتها.

ـ لم التعجب سيد؟ أليس ذلك من حقي كفتاة؟

ـ هي؟ فتاة؟ هيهات هيهات! ـ قلت في نفسي ـ ولم لا؟ ـ قلت لها ـ كل شيء جائز ـ أكان فتاك منذ مدة طويلة؟

ـ منذ ست سنوات.

ـ آه هاه! حسن إذا فلنكمل الرسالة.

قلت وأنا أؤكد لنفسي جازماً أنني أرحب بتبادل المراكز مع ذلك «البولسلاف. لو أن فتاته كانت أصغر منها حجماً... فاتنته المترامية الأطراف أقصد!

ـ لكَ جمّ شكري وامتناني سيدي... على جليل خدماتك ـ قالت (تيريسا) باحترام... ربما استطعت أن أسدي لك خدمة ما؟

ـ كلا... أشكركِ على أية حال!

ـ ربما كانت قمصانك أو بناطيلك بحاجة إلى رتق؟

وشعرت بأن تلك «الفيلة» الآدمية قد أجرت دم الخجل في وجنتيّ فجأة، فما كان مني إلا أن أكّدت لها بحدة أنني لست في حاجة إلى ذلك؟

وغادرت المكان.

ومضى أسبوع أو اثنان... كان الوقت مساء وأنا متكئ على حافة نافذتي أحدّق في أعماق اللاشيء، وأفكر في ذريعة للهرب من ذاتي وذلك السأم الخانق... غاية في الملل كنت، والجو كئيب قابض... وشرعت في امتطاء أمواج التأمل الوجداني وتحليل نوازع الذات... ولم يكن ذلك كله ليدفع عني غائلة الضجر، على أني ما كنت متحمساً لغيره... إلاّ أن الباب فتح فجأة: ـ الحمد لله ـ قلت لنفسي ـ جاء زائر أخيراً!

ـ آه سيد طالب. أرجو أن لا يكون لديك عمل مهم؟

كانت (تيريسا) وأجبتها:

ـ كلا! ما الأمر؟

ـ كنت أريدك أن تكتب لي سيدي ـ خطاباً آخر!

ـ حسن جدّاً (لبولسلاف) هاه؟

ـ أبداً! الرسالة منه هذه المرة.

ـ ماذا؟

ـ يبدو ذلك غريباً! يالي من ساذجة على أنها ليست لي سيد طالب... أستميح عذرك إنها لصديق لي... وهو... ليس صديقاً بالمعنى الدقيق بل إنه أحد معارفي وهو يود الكتابة إلى إنسانة عزيزة على قلبه واسمها كاسمي (تيريسا) فهلا فعلت سيدي؟ هلا تكرمت فكتبت لي هذه «التيريسا»؟!

وتأملتها مليّاً... وجهها الشائك... وأصابعها المرتجفة... غُمَّ علي أول الأمر على أني سرعان ما شرعت في التقاط تفاصيل الصورة:

ـ اسمعي هنا سيدتي ليس هناك (بولسلافثات) أو (تيريسات) بل كومة من الأكاذيب والاختلاقات لا ترقى إلى خيال مبدع. إياك أن تتسلّلي إلى هنا بعد اليوم، ومعرفتك لا تزيدني شرفاً أفهمت؟

وفجأة بدت مذعورة مرتبكة الخطى... محرجة وجلة... وشرعت تتأرجح على قدميها يمنة ويسرة تارة وأمامًا وخلفاً أخرى كمقعد هزّاز، وحارت الكلمات على شفتيها تطلب تغمغم وتطمطم في هيئة تستثير الضحك كما لو أنها أرادت أن تقول شيئاً فما أسعفها النطق... وانتظرت نهاية ذلك وما لبث اليقين أن حل محل الشك إذ تبدى لي جليًا أنها لم تكن تسعى لتنحيتي عن جادة الاستقامة كلاّ ما كان ذلك مرامها فما هو إذاً.

ـ سيد طالب! قالت... على أنها لوّحت مودّعة واستدارت فغادرت المكان. ولم أشعر بشديد ارتياح بعيد ذلك! وأصخْتُ السمع فإذا ببابها يغلق بعنف... كانت غاضبة دون شك... وفكرت في الأمر فارتأيت أن أذهب فأدعوها وأكتب كل ما أرادت.

ودخلت شقتها فأجلت النظر فيما حولي... ثم لمحتها وقد اتكأت على المنضدة بمرفقيها جاعلة رأسها بين يديها.

ـ استمعي إلي! قلت.

كلما وصلت إلى هذه النقطة أحسست بأني مغفل وأبله غاية... حسناً...

ـ أنصتي إلي ـ كررت المقولة.

وقفزت من مكانها فجأة فعدت نحوي وعيناها تلمعان ببريق عجيب يكاد سناه يخطف الأبصار، ووضعت يديها على منكبَيّ ثم شرعت تهمس بل قل تدمدم بصوتها الأجش الغريب:

ـ بل إنك من يجب أن ينصت! ليس هناك (بولسلاف) أو (تيريسا) فما الذي يعنيك أنت من كل ذلك؟! أيشق عليك إلى هذه الدرجة التقاط قلمك وإمراره على صفحة قرطاس؟ هاه... تذكر بأنك لا تعدو كونك شابًا صغيراً جميل الشّعْر... لقد عرفتَ الآن كل شيء ليس هناك (بولسلاف) أو (يتريسا) فما الذي تراك أفدته من اكتشاف ذلك هاه؟!

ـ أستميح عذرك؟ سألتها مشدوهاً مصعوقاً لمّا أزل لهول الكيفيّة التي استقبلتني بها ـ ما الأمر ليس هناك من يكنى (ببولسلاف) قلت؟

ـ كلا ليس ثمة شيء من هذا القبيل! أجابت.

ـ ولا (تيريسا)؟

ـ ولا هي أيضاً! أنا (تيريسا)!

وغُمّ علي مجدداً فكأنني أدور في متاهة سرمدية أقارع عبر وهادها جيوش الضياع والحيرة... والملل. وتأملتها طويلاً محاولاً تحديد المعتوه فينا على أنها عادت إلى المنضدة وظلت تبحث عن شيء، عادت إليّ تحمله وقالت بنبراتٍ غاضبة:

ـ إليك بالخطاب الذي كتبته إن كان يشق عليك أن تكتب رسائلي. لن أعدم من يقوم بهذه المهمة!

ونظرتُ إلى ما كان معها فعرفت فيه الرسالة التي كتبتها باسمها إلى (بولسلاف)!

ـ ما معنى ذلك كله (تيريسا)؟ لماذا تريدين أن يكتب أحدهم خطاباً إليه رغم أني قد كتبت لك فما بعثت به؟

ـ ما بعثته إلى من؟

ـ إلى (بولسلاف)!

ـ ليس هناك أحد بهذا الاسم!

وازداد الأمر تعقيداً تضخّمت الأحجية حتى باتت ككرة ثلج يتعاظم حجمها كلما تناذر انحدارها...! لم يبق لي إلا أن (....) وأغادر المكان.

على أنها شرعت تفسر لي ما استغلق فهمه.

ـ ما الأمر؟ قالت ورنّة الغضب تمازج صوتها لما تَزَلْ ـ ليس هناك أحد. بهذا الاسم قلت لك... ومدت المسكينة ذراعها كما لو كانت هي تتساءل عن سبب لانتفاء وجود ذاك الحبيب... وتابعت:

ـ على أني أردته أن يكون!... أن يوجد في حياتي... أَلستُ إنسانة لها قلب كقلوب البشر أنا من لحم ودم سيدي... نعم... نعم... أعرف طبعاً... على أن مراسلتي (بولسلاف) ما تسببت في الإساءة لإنسان... كائنًا من كان!.

ـ المعذرة ـ قاطعتها ـ مراسلة من؟

ـ (بولسلاف) طبعاً!

ـ لكن ذلك اسم وهميّ!

ـ واحسرتاه! ـ هتفَتْ بلوعة ـ حتى ولو كان ذلك صحيحاً! إن لم يوجد أحد بهذا الاسم فإن بالإمكان إيجاده... أكتب إليه فكأنما هو هناك يسمع نجواي... يتلو ما أملي به إليه فيشجيه أنيني، ويكتب إلى ـ (تيريسا) فأكتب ثانية إليه وهكذا! قالت بانكسار وفهمت أخيراً... فشعرت بألم وتعاسة وخزي ما أحسست به قبلاً. قريباً مني... على بعد خطوات قليلة... كانت تقطن إنسانة ما عاملها أحد معاملة طيبة قط... ما أحبها أحد... فرسمت في خيالها طيفاً لعاشق مجهول!

ـ لقد كتبتَ لي رسالة إلى (بولسلاف) فأعطيته لصديقة تلتها على أنها عندما تقرؤها أتفاعل معها غاية... تتغلغل معانيها في تجاويف روحي... ينتشي لوقعها فؤادي... وأجد نفسي مرغمة على كتابة رد من (بولسلاف) إلى تيريسا ـ أنا طبعاً ـ بعد أن تجسد لي الأحلام أنه حي يرزق... وتكتب له بدورها وهكذا... بذلك تحلو الأيام ويعذب مذاقها... بذا سيدي تستحيل الأشواق في دربي أزهاراً وحدائق غناء يانعة الثمار... مغردة الأطيار.

ـ تبّاً لي من جاهل مغفل! قلت لنفسي بعد انبلاج شمس الحقيقة.

ومن يومها ظللت وبانتظام أكتب لها مرتين في الأسبوع خطابًا من «بولسلاف» وردًا من (تيريسا)... وتفننّت في تدبيج العبارات، فكانت تسمع مأخوذة ثم تبكي بصوتها الأجش العالي... ورداً للجميل ـ كما رأته من جانبها ـ

كانت ترتق ثقوب جواربي وملابسي قاطبة. بعد أشهر ثلاثة من تاريخ ذلك أُودعتِ السجن بتهمة ما، ولا شك الآن أنها في عداد الموتى.

ونفض صاحبي رماد لفافة تبغه وتأمل السماء بحزن... طويلاً قبل أن يختم حديثه قائلاً:

كلما ذاق الإنسان لذة النعيم طمع في المزيد، واشتد جوعه إلى ما هو ألذّ، أما نحن... يا من نلتحف أسمال الفضيلة... وننظر إلى الآخرين عبر أبخرة من وهم الغرور والاكتفاء الذاتي... نحن... يا من يعمينا يقين بأننا معصومون عن الخطأ والزلل... فإننا لا نبصر شيئاً وهل يستوي الأعمى والبصير؟

ونفكر... بدافع الجهل والقسوة... فيأتي تحليلنا للأمور خاطئاً... الطبقات السفلى من المجتمع... نقول! بودي لو علمت من تكون تلك الطبقات! إنهم أناس مثلنا من لحم ودم وعظام وأعصاب... مثلنا تماماً... لقد دأبنا على سماع ذلك على مر العصور... الطبقات الدنيا... حثالة المجتمع! إننا حثالة المجتمع... نحن المتبخترين... الماشين في الأرض مرحاً كأنما لنخرق الأرض أو لنبلغ الجبال طولاً، ناسين أو متناسين أننا بذلك إنما ندفع بأنفسنا إلى حافة هاوية جهنمية سحيقة من الغرور المقيت والاستعلاء الكاذب الممجوج... ولكن يكفي ذلك - قال محدثي - لن أزيد - فذاك الداء الوبيل يجري من بني آدم مجرى الدم، يتغلغل في أعماق أعماقه حتى عزّ بُرؤه.

قال صاحبي ذلك طاويًا صفحة سوداء في سِفْرِ الإنسان كالليل البهيم .

جحيم الغربـة
أو (يمهل ولا يهمل)

للكاتب الروسي: ليو تولستوي: Leo Tolstoy
(١٨٢٨ ـ ١٩١٠)

في بلدة (ڤلاديمير) كان يقطن تاجر يدعى «آيڤان ديميتريتش آكزيونّوف» وكان يمتلك متجرين وبيتاً أنيقاً. كان (آكزيونوف) هذا وسيماً... باسم الثغر مرحاً، مولعاً بالغناء. وكان لاهيًا عابثاً في باكورة شبابه إلا أنه قد ثاب إلى رشده فيما تلا ذلك، عدا عن معاقرة أم الكبائر بين الفينة والأخرى.

وذات صيف كان يعتزم زيارة أحد المعارض التجارية... وقالت له زوجته وهي تودعه:

ـ لا تذهب اليوم يا (آيڤان) لقد رأيتك في المنام ليلة البارحة في هيئة أطارت النوم من عيني!

ورددت الجدران صدى ضحكاته وهو يقول لها مداعباً:

ـ أنت تقولين ذلك لأنك تخشين أن أعود إلى الشرب ثانية.

وردت زوجته في هدوء الناسك وثمة ألم عميق يجول في أحداقها:

ـ لست أدري كنه خوفي... كل ما أعلمه أني رأيتك في المنام وقد اشتعل رأسك شيباً بعد أن خلعت قبعتك.

وفي مرح رد زوجها:

ـ هذه بشارة خير يا عزيزتي! سأبيع بضاعتي برمتها وأعود إليكم محملاً بالهدايا. قال ذلك قبل أن يودع زوجته وأبناءه ويمضي. وفي منتصف الطريق لقي تاجراً يعرفه وأقاما في غرفتين متصلتين بأحد النّزل لقضاء ليلتهما... ثم تناولا شيئاً من الشاي قبل أن يمضي كل إلى مهجعه.

لم يكن من عادة (آكزيونوف) أن ينام متأخراً... ولما كان الجو حاراً فقد آثر الاستيقاظ باكراً لمتابعة رحلته التماساً لنسائم الفجر العليلة الندية، وهب من سريره قبيل الفجر وأمر السائس بإسراج الخيول قبل أن يتجه إلى مالك النّزل (والذي كان يقطن في كوخ خلفه) فيدفع أجرة المبيت ويواصل سفره، وبعد أن قطع خمسة وعشرين ميلاً توقف لإطعام الخيول واختار نزلاً يرتاح فيه... ثم توجه إلى الشرفة وأمر بأن يُعد لاغتساله شيء من الماء الدافئ... وأخرج قيثارته ليشرع في مداعبة أوتارها.

وتوقفت فجأة عربة ذات أجراس أمام النزل فترجل منها ضابط تبعه جنديان اتجه إلى (آكزيونوف) فسأله عمن يكون ومتى أتى ! وبنبرات الواثق رد (آكزيونوف) على أسئلته قبل أن يقول: «هل لك في تناول شيء من الشاي معي»؟ لكن الضابط تجاهل دعوته وتابع استجوابه.

ـ «أين أمضيت ليلة البارحة؟ وهل كنت وحدك ـ أم أنك كنت مع أحد رفقائك من التجار؟ وهل رأيت ذلك التاجر هذا الصباح؟ ثم... لماذا غادرت النزل باكراً جدّاً؟ قبيل الفجر تحديداً؟!

وتعجب (آكزيونوف) من نوعيّة وكمية ما وجه إليه من أسئلة، على أنه وصف كل ما وقع له قبل أن يضيف في براءة:

ـ لماذا كل هذا التحقيق معي كما لو كنت لصّاً أو قاطع طريق؟!

إنني ذاهب في مهمة تجارية ولا أرى حاجة لهذا الاستجواب .

عندها استدعى الضابط جندييه وقال مخاطباً (آكزيونوف) :

ـ إنني ضابط هذه المقاطعة، أما سبب التحقيق معك فهو أن التاجر الذي كان برفقتك قد وجد اليوم مذبوحاً... يجب أن نفتش حاجياتك!.

واتجهوا إلى داخل النزل ثم شرع الضابط وجنوده في تفتيش متاعه قبل أن يخرج الضابط سكينًا من حقيبة (آكزيونوف) ليصرخ بعدها :

ـ سكين من هذه؟

ونظر إليه (آكزيونوف) والذهول يشل ملامحه حينما أبصر سكيناً ملطخة بالدم تستخرج من حقيبته!

ـ كيف تفسّر وجود دم عليها .

وحاول المسكين أن يقول شيئاً فما واتته الكلمات، واكتفى ببضع منها قالها في تلثم:

ـ لست أدري... ليست... ليست لي!

عندها قال الضابط:

ـ لقد وجد التاجر مذبوحاً هذا الصباح في سريره ـ وأنت الشخص الوحيد الذي يمكن الاشتباه به. لقد كان النزل مقفلاً من الداخل ولم يكن هناك غيركما وقتها... وها نحن نجد سكيناً ملطخة بالدماء في حوزتك... ثم... إن وجهك وهيئتك يخذلانك... قل لي... كيف قتلته وكم سرقت منه من المال.

وأقسم (آكزيونوف) أيماناً مغلظة بأنه لم يقترف تلك الجريمة الشنعاء وبأنه لم ير التاجر بعد تناولهما الشاي سوياً، بأنه لا يحمل في حوزته أكثر من ثمانية آلاف «روبل» هي من ماله هو... وبأن السكين ليست له. لكن هيئته ـ كما قال الضابط ـ قد خذلته... كان صوته متهدجاً... وبدا أصفر اللون زائغ العينين شاحباً... مرتعش الأطراف كمن أتى جرماً.

وأمر الضابط جنوده بتكبيل (آكزيونوف) ووضعه في عربة الشرطة، وعندما قيّدت قدماه وألقي فيها... طرح رأسه على ركبتيه وشرع يبكي، وصودر ماله ومتاعه قبل أن يودع أحد السجون .

وفي بلدته (ڤلاديمير) جرت عنه تحريات دقيقة أفاد فيها التجار بأنه كان شابًا لعوباً في مستهل حياته إلا أنه قد جنح مؤخراً إلى العقلانية وغدا مواطناً صالحاً. وحوكم أخيراً... ثم أدين بطعن تاجر من (ريازان) وسرقة عشرين ألف (روبل) كانت بحوزة المغدور.

ومزق اليأس زوجته أشلاءً واستبدت بها الحيرة حتى إنها لم تعلم من تصدق، وكان أطفالها صغاراً، أحدهم رضيع لما يزل. وحملت أطفالها فاتجهت إلى السجن لترى زوجها فلم يسمح لها بادئ ذي بدء، إلا أنها وبعد كثير من التوسل أدخلت عليه، ولما رأته مكبلاً بالحديد مع زمرة من الأشقياء والمجرمين فقدت وعيها ولم تفق إلا بعد حين... وجمعت أطفالها حولها ثم جلست بالقرب من زوجها... وحدثته في شؤون المنزل قبل أن تسأله عما حصل له، فأطلعها على ما حل به من سوء طالع عندها سألته:

ـ وما الذي يمكننا عمله الآن؟

ـ ليس لدينا سوى تقديم عريضة التماس إلى القيصر!

ولم يجب (آكزيونوف) أطرق في صمت والحزن يهصر فؤاده.

وقالت زوجته مذكرةً:

ـ تلك هي رؤياي قد أصبحت حقّاً... أتذكر رؤيتي إياك في المنام وقد اشتعل رأسك شيباً. ليتك لم تسافر ذلك اليوم ليتك!

ـ هو قدر الله وما شاء كان. رد في هدوء اليائس.

وخللت شعره بأصابعها ثم قالت في حنان غامر:

ـ أيا أعز الناس! هلاّ صارحت بالحقيقة شريكة حياتك ـ أفعلتها فقتلته؟

ـ حتى أنت... يداخلك الشك في ذلك؟

قال ذلك قبل أن يخفي في راحتيه رأسه ويذرف مرّ الدموع.

وجاء شرطي ليقول بأن موعد الزيارة قد انتهى... يومها... ودّع (آكزيونوف) عائلته للمرة الأخيرة!

ولما خلا بنفسه استعاد ما جرى بينه وبين زوجته من حوار، ثم أطلق تنهيدة حرّى اهتزت معها أضلاعه قبل أن يقول لنفسه:

ـ يبدو أنه لا أحد سوى العلي القدير يدرك كنه الحقيقة، عليه توكلت وإليه أنيب!

وتوقف بعد ذلك عن كتابة عرائض الالتماس... وظل يبتهل إلى الله وحكم بجلده ونفيه إلى مناجم (سيبيريا)... وما إن شفيت آثار السياط حتى دُفع به ومجموعة من المدانين إلى (سيبيريا).

ومكث في سجنه ستة وعشرين عاماً حتى اكتسى شعره بياض الثلج... ونمت له ذقن طويلة مدببة... وفقد روح المرح التي طالما خامرته، ثم تبع ذلك انحناء في ظهره... وطال صمته... فلم يكن ينطق إلاّ لماماً وصام عن الضحك فما عاد ذاك المزوح الباسم، اغتاله اليأس وخيم الحزن عليه.

في السجن تعلم (آكزيونوف) كيفية صنع الأحذية وأصبح له مورد رزق، وادخر مبلغاً ابتاع به كتاب (حياة الصالحين)... وعكف على قراءته كلما تسلل ضوء النهار الواهن إلى مضجعه... وكان يتطوع بترنيم الأناشيد الدينية، إذ إن القضبان لم تستطع اغتيال جمال صوته وحسن أدائه.

وأحبه الحراس لهدوئه وحلمه وطول أناته... وكان مثار إعجاب واحترام زملائه حتى أنهم أطلقوا عليه اسم (الراهب)... وجعلوه المتحدث الرسمي باسمهم كلما اعتزموا تقديم عريضة التماس إلى السلطات... وكثيراً ما دعوه إلى حل ما قد يحصل بين المساجين من شجار.

وانقطعت أخبار موطنه عنه حتى إنه لم يكن يعرف ما إذا كانت زوجته وأولاده على قيد الحياة أم لا!

وذات يوم أدخلت عليهم دفعة جديدة من المحكوم عليهم بالسجن... وفي المساء تحلق حولهم قدامى المساجين وشرعوا يمطرونهم بوابل من الأسئلة عن بلادهم التي وفدوا منها وعن أسباب إدانتهم... وكان (آكزيونوف) يجلس وسط ذلك الجمع الصاخب... يصغي بألم... ويجيل فكره فيما كان وما يجب أن يكون، وكان أحد المدانين وهو رجل قوي البنية في الستين من عمره... وذو لحية بيضاء كثيفة... كان يقص على الجميع سبب اعتقاله:

لقد أدنت في قضية سرقة حصان، كان مربوطاً إلى (زحّافة)... لم يصدقوني عندما قلت لهم أنني فعلت ذلك لأصل إلى البيت بسرعة... وبأن صاحبه كان صديقي... أليس هذا ظلماً وإجحافاً... كان يجب أن أكون هنا في جريمة ارتكبتها حقّاً منذ أمد بعيد إلا أن عدم تمكن السلطات من العثور عليّ قد أنقذني... لا تجزعوا لقد نفيت إلى (سيبيريا) من قبل... لكن مكثي فيها لم يطل!

- من أين أنت؟ سأله أحدهم.

- من (ڤلاديمير)... واسمي (ماكار) لكنهم يدعونني بـ (سميونيتش)، ورفع (آكزيونوف) رأسه ثم قال:

- أتعرف شيئاً عن عائلة التاجر (آكزيونوف) في (ڤلاديمير)؟.

ألا يزالون على قيد الحياة؟

- هل أعرفهم؟ بالتأكيد! ولقد زاد ثراؤهم رغم أن أباهم قد نفي إلى (سيبيريا)... مذنب... كأي شخص هنا لا ريب لكن أخبرني أيها الجد عما أتى بك إلى هنا؟

ولم يشأ (آكزيونوف) أن يتحدث عن سوء طالعه... واكتفى بإطلاق تنهيدة حزن قبل أن يقول: أنا هنا لأكفر عما ارتكبْتُه من آثام أمضيت بسببها ستة وعشرين عاماً هنا .

- أية آثام تعني؟ ألح (ماكار).

على أن (آكزيونوف) لم يشأ أن يستطرد في ذلك واكتفى بأن قال:

- حسناً... لابد وأني كنت أستحق ما حل بي من سوء طالع.

على أن رفاقه شرحوا للوافد الجديد كيف أدخل السجن في جريمة لم يرتكبها! كيف أن شخصاً قد طعن تاجراً وأخفى السكين في متاع المسكين (آكزيونوف) الذي أدين ظلماً وعدواناً.

وعندما سمع (ماكار) ذلك ضرب ركبته بيده وقال:

ـ هذا رائع... رائع جدّاً! ياه كم كبرت أيها الجد!

وعقدت الدهشة ألسنة بقية المساجين فشرعوا يسألونه عن المثير في الأمر وأين التقى بـ (آكزيونوف) لكن (ماكار) غير دفة الحديث فجأة بمكر قائلاً:

ـ كم هو مثير أن ألتقي بكم يا رفاق!

تلك الكلمات زرعت بذور الشك والتساؤل في نفس (آكزيونوف) المعذبة عما إذا كان (ماكار) على علم بمن قتل التاجر؛ ولذا فقد قال له:

ـ ربما تكون قد سمعت عن تلك الجريمة يا (سيميونيتش)... أو أنك قد رأيتني من قبل؟!

ـ وكيف لا أسمع بذلك... العالم مليء بالشائعات يا رفيقي ـ على أن ذلك كان منذ زمن طويل قد يستعصي الآن على ذاكرتي.

ـ ربما تكون قد سمعت عمّن قتل التاجر؟ سأله (آكزيونوف)!

وضحك (ماكار) قبل أن يجيب:

ـ لابد وأنه ذاك الذي وُجدت السكين في حقيبته، وإن كان من وضع السكين شخص آخر فإن المتهم بريء حتى تثبت إدانته كما يقال.

ثم كيف يتسنى لأي إنسان أن يضع السكين في حقيبتك الموضوعة تحت رأسك؟ لا شك بأن ذلك كان سيتسبب في إيقاظك!

عندما طرقت تلك الكلمات مسامع (آكزيونوف) أيقن بأن ذلك الرجل هو بعينه من قتل التاجر وسبب له كل تلك الآلام عبر سنوات وسنوات.

ولم يقل شيئاً... اكتفى المسكين بأن نهض وغادر المكان... وعندما أرخي الليل على الكون سدوله ظل يتقلب في سريره الذي شعر به كما لو كان محشواً بالشوك، وشرعت الملامح والصور تعرض نفسها على سقف مخيلته، فمنها ما كان لزوجته التي رآها كما لو كانت ماثلة أمامه... ترنو إليه ورأسها مرفوع تجاهه... سمعها تتكلم وتضحك ثم... رأى فلذات كبده كما تركهم صغاراً يحبون في مدارج العمر... رأى أحدهم وعليه معطفه فيما التصق الآخر بصدر أمه... ثم تذكر كيف كان هو آنذاك... شاباً مرحاً سعيداً يرتع في أفياء الحياة وينهل من معين من الأفراح لا ينضب. وتذكر كيف كان يعزف على قيثارته في شرفة النزل خلي البال مترعاً بالآمال قبل أن يتجه إليه الضابط فيعتقله... ودار شريط الذكريات أمام ناظريه ثانية... ورأى نفسه في الموضع الذي جُلد فيه... أبصر الجلاد وثلةً من الناس حوله... والسلاسل، والمدانين... دارت أمامه رحى ستة وعشرين عاماً من الأسر والذل ومرارة الظلم يستشعرها علقماً يذوب له حلقه وشيخوخته المبكرة... وامتزجت تلك الرؤى طرّاً، وتكشفت حتى شعر بنفسه وقد استحال إنساناً آخر لا يتورع عن قتل... نفسه.

ـ كل ذلك بسبب ما فعله بي ذلك المجرم.

ـ فكر (آكزيونوف) فيما تصاعد غضبه وتنامى حتى تاق إلى الانتقام من غريمه حتى لو قتل هو من جرّاء ذلك... وظل يردد أدعيةً طوال الليل، إلا أن

نفسه لم تستكن ولم يهدأ له بال أو يغمض له جفن وفي اليوم التالي... لم يستطع أن ينظر في وجه (ماكار) أو أن يدنو منه.

ومر أسبوعان على تلك الحال... أرق... وتعاسةٌ أنشبت في فؤاد (آكزيونوف) مخالبها فما استطاع منها فكاكاً ولم يدر ما يصنع.

وذات ليلة... رأى ـ فيما كان يتجول في أرجاء السجن ـ تراباً ينثال من حفرة تحت أحد الأرفف التي ينام السجناء عليها فتوقف لاستكشاف كنه ما يحدث وفجأة لمح (ماكار سيميوينتش) أسفل الرف وهو يتطلع إليه بوجه شل الخوف قسماته... وكاد (آكزيونوف) يمضي في طريقه متجاهلاً ما رأى لولا أن (ماكار) أمسك بيده فجأة وأخبره بأنه قد حفر نفقاً تحت الحائط... وبأنه يضع التراب في حذائه الطويل فيتخلص منه عندما يسمح للسجناء بالخروج لأداء الأشغال الشاقة.

ـ ابق هادئاً أيها العجوز ولا تنبس بحرف... وإلا جلدوني حتى الموت على أني سأقتلك قبل ذلك!

وظل (آكزيونوف) يرتجف غضباً وهو يحملق في وجه عدوه ـ ثم سحب يده وهو يقول له:

ـ ليس لي رغبة في الهرب. ولا حاجة بك لقتلي... فقد فعلت ذلك منذ زمن بعيد، أما فيما يختص بالإبلاغ عنك فإني قد أفعل أو لا أفعل. هي مشيئة المولى جل وعلا!

عندما اقتيد السجناء لأداء الأشغال الشاقة في اليوم التالي لاحظ أحد أفراد الحرس المرافق كومة من التراب وقد أفرغها أحد السجناء من حذائه

الطويل، وعلى الفور أُعلنت حاله استنفار جرى خلالها تفتيش السجن... وعثر على النفق أخيراً... وجاء كبير الضباط فاستجوب جميع السجناء عمن فعل ذلك فما ظفر منهم بجواب... كان من يعرف أن (ماكار) هو من حفر النفق يخاف عليه أن يجلد حتى الموت؛ ولذا لم يشأ أحد أن يخذله وأخيراً... توجه الضابط إلى (آكزيونوف) لما عرف عنه من عدل وحسن سيرة:

ـ أنت كهل صادق أمين... خبرني بالله عليك من حفر النفق؟ وبدا (ماكار) وكأن الأمر لا يعنيه مركزًا نظره على الضابط... حائداً به عن (آكزيونوف) .

وارتعشت شفتا (آكزيونوف) ويداه... وظل صامتاً فترة من الزمن وهو يصارع شتى الأفكار... «إن أنا وشيت به فسيجلد حتى يموت وأكون بذلك قد أرحته... دعه يكابد ما كابدته... ثم... ثم أني لست متأكداً من هوية الفاعل وقد أظلمه إن إنا اتهمته علناً ثم... أي فائدة ستعود علي من كل ذلك و...»

وقاطعه الضابط الذي أعاده صوته إلى أرض الواقع ثانية:

ـ حسن أيها الكهل الطيب... ألا تخبرنا عمن فعلها؟

ورد (آكزيونوف) في هدوء اليائس:

لن أخبرك إلا إن شاء الله. أنا أمامك فافعل بي ما يحلو لك.

وألح الضابط كثيراً، ولما لم يظفر منه بشيء عُلّقت القضية!

تلك الليلة... حينما تمدد (آكزيونوف) على سريره طلباً للكرى تسلل أحدهم بهدوء وجلس على حافة فراشه... وحدق في الظلام في وجه القادم فعرف فيه (ماكار).

ـ ماذا تريد مني أكثر من ذلك؟ ما الذي أتى بك!؟؟

وكان (ماكار) صامتاً لا ينبس ببنت شفة فهب (آكزيونوف) جالساً وقال:

ـ إن لم تتركني وشأني ناديت الحرس!

وانحنى عليه (ماكار) قبل أن يهمس في ألم.

ـ سامحني واغفر لي كل ما بدر مني!

ـ وعلام أسامحك؟

ـ أنا من قتل التاجر وأخفى السكين في متاعك ـ لقد كنت على وشك قتلك يومها إلا أني سمعت صوتاً فاضطررت إلى دس السكين في حقيبتك قبل أن أهرب عبر النافذة.

وظل (آكزيونوف) صامتاً لا يحير جواباً فيما انزلق (ماكار) وجثا على الأرض قائلاً:

ـ سامحني يا (آيڤان ديمتريتش) واغفر لي ما أذنبت في حقك، لسوف اعترف بأني القاتل وسيكون بإمكانك أن تستنشق نسيم الحرية ثانية فيجتمع شملك بعائلتك.

ـ ما أسهل قول ذلك. قال (آكزيونوف):

ـ أما أنا فقد أمضيت بسببك ستةً وعشرين عاماً في منفاي هذا... فإلى أين أذهب إن أنا خرجت من هنا؟... لقد ماتت زوجتي ونسيني أبنائي... ليس لديّ مكان آخر ألجأ إليه.

ولم ينهض (ماكار سيميوينتش) وشرع يدق الأرض برأسه.

ـ سامحني يا (أيڤان ديمتريتش) ردد في ألم إنّ وقع السياط على جسدي قبل أن يحضروني إلى هنا لهو أهون بمراحل مما أحس الآن به... لقد أشفقت علي ولم تش بي.

سامحني بالله عليك... ارحم ذليلاً أدرك فداحة جرمه!

وعندما سمع (آكزيونوف ديمتريتش) نحيبه بكى بدوره.

ـ فليسامحك الله ـ قال ـ قد تكون ذنوبي أعظم من ذنوبك مائة مرة اذهب فقد عفوت عنك.

قال (آكزيونوف) ذلك وما إن أتم كلماته حتى استشعر راحة جمة، وغادره ذلك الحنين الجارف للعودة إلى وطنه وأهله ـ لم يعد يتمنى مغادرة السجن بل استشعر للموت حنيناً.

ورغم كل ذلك... اتجه (ماكار) إلى الضابط فاعترف بأنه من قتل التاجر، إلا أنه إبان وصول الأمر بالإفراج عن (آكزيونوف) كان قد فارق الحياة لتوه!

مجوهرات السيدة « لانتن »

للكاتب الفرنسي الكبير: جي دي موباسان

Guy De Maupassant (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣)

كان السيد لانتن مدعوًا إلى حفلة أقامها رئيسه المباشر عندما التقى بتلك الشابة الحسناء وما أسرع ما غمره طوفان الحب. كانت تلك الشابة ابنة لجابي ضرائب توفاه الله، فقدمت إلى باريس مع والدتها التي صاحبت سيدات الطبقة الوسطى سعيًا وراء اصطياد زوج مناسب لابنتها.

وكانت الأم وابنتها تجمعان بين الرصانة والهدوء وعزة النفس، وكانت الفتاة تحديداً تجمع خصالاً جعلتها مطمح كل راغب في الزواج... جمالها واتزانها وتلك الابتسامة العذبة تنفرج عنها شفتاها عاكسة الطيبة وصفاء السريرة.

وكان كل من رآها يشيد بجمالها عبر جسر من التنهدات غابطاً من ستكون شريكة لحياته، رأى الكل فيها صفقة جدُّ رابحة.

وتقدم السيد (لانتن) وكان يشغل وظيفة رئيس كتاب براتب شهري قدره (٣٥٠٠) فرنك ـ طالباً يدها فوافقت على الفور.

وسكن الفرح أعماقه... لم يصدق أنه ظفر بها... إنها باتت ملك يمينه، عزفت السعادة له أعذب ألحانها... وحلقت به في عوالم من خيال ساحر وأخّاذ ترى... أصبحت له حليلة؟ وكانت مدبرة منزل من الطراز الأول، فأتاح لهما ذلك أن يعيشا في رخاء من العيش. ما تركت له رغبة إلا أشبعتها ولا طلباً

إلا لبّته... أما سحرها الذاتي فكان فوق الوصف، ولئن كان قد أعجب بها سابقاً فإنه الآن وبعد سنوات ست قد أضحى متيمًا بها إلى حدّ الصبابة!

على أنه كان يأخذ عليها خصلتين... حبها للمسرح وهوسها بالمجوهرات المقلدة.

وكانت صلتها بسيدات المجتمع الراقي قد أتاحت لها إشباع ذلك فتذاكر المسرح كانت طوع يديها... مسرحيات راقية يتاح لها أحيانًا حضور عروضها الأولى. وظلت فترة تقتاد زوجها المسكين معها... ما كانت له رغبة في ارتياد المسرح على أنه لم يكن ليرفض لها طلباً فيصحبها رغم أنه كان يعود من عمله مجهداً منهكاً!

ورجاها بعد أن طفح الكيل... أن تذهب برفقة صويحباتها فوافقت بعد لأي... وكم كان امتنانه لها عظيماً يومها.

وحرك فيها ذاك الحب الجارف لحضور المسرحيات الرغبة في أن تبدو دائمًا في كامل أناقتها وزينتها. على أنها رغم ذلك كله بقيت رقيقة بسيطة... لا تعرف غلوّاً أو ابتذالاً... فزادتها بساطتها جمالاً على جمال، وقد اعتادت أن تضع في أذنيها قرطين كبيرين من الماس الزائف، وتحلي جيدها بعقد من اللؤلؤ الاصطناعي... أما يداها فزينتها بأساور من أحجار مماثلة.

ولم يكن زوجها يكنُّ لتلك الحلي الاصطناعية احتراماً كبيراً ولطالما قال لها:

- « يا أعز من لي! إن لم يكن بمقدورك شراء جواهر حقيقية فدونك الحسن ورفيعَ الخَلق! لعمري إن الفضيلة والجمال هما اللآلئ الأصيلة.

على أنها كانت إذ ذاك تبسم في هدوء وإصرار وتقول:

ـ ليس لي سلطة على قلبي وما يهوى ـ أعلم عزيزي أن هذا عيب فيّ... وأدرك تماماً صحة أقوالك وسعة أفقك... على أنه ليس بوسعي تشكيل ذاتي ثانية... هكذا خلقت ويبدو أني سأقضي العمر في مناجاة المجوهرات الحقيقية من بعيد.

وتمتد يدها بعد ذلك إلى عقدها اللؤلؤي فتداعب حباته وتردف: «تكاد تصل حد الكمال... أليس كذلك ـ يقسم من رآها أنها صنعت من لؤلؤ حرّ!

وكانت في بعض الأمسيات وهما بجانب المدفأة يصطليان... تنهض فجأة فتحضر صندوق مجوهراتها المقلدة تلك لتضعه على منضدة الشاي ثم تشرع في مداعبة محتوياته في شوق ووله كما لو كانت تحت تأثير لذة خفية لا حدود لها... تقتادها إلى هذا النهج اقتياداً لا سلطة لها على إرخاء زمامه فكأنما كبلت يداها به تكبيلاً.

وكثيراً ما كانت تصر على تطويق عنق زوجها بعقدها طيات طيات ثم تتأمله قبل أن تغرق في نوبة من الضحك العميق قائلة له:

ـ كم تبدو مضحكاً... ساذجاً... ياحبيبي!

وفي إحدى ليالي الشتاء عادت من (الأوپرا) وهي ترتعش من الحمى وأرهق السعال صدرها في اليوم الثاني وبعد أسبوع من ذلك... فارقت الحياة.

ولم يكن بين زوجها واللحاق بها إلى قبرها سوى قاب قوسين أو أدنى، بلغ به الألم والحزن واليأس حداً شاب له كل شعره خلال شهر واحد فقط، ولازمة النحيب... لم يكن ليتوقف عن البكاء أبداً.

كان طيف خيالها يطارده في كل موضع جمعهما... حطمت المعاناة روحه والذكريات تحاصره أنى ارتحل... ابتسامتها العذبة... وصوتها الساحر الذي أخرسه الموت.

حتى الزمن المؤسِّي... لم يستطع إبراء جروحه أو مداوة روحه... حتى اختلاف الليل والنهار وأنى له ذلك وهي المغروسة في كيانه كوتد... وكثيراً ما كان خدّاه يرتعشان وهو في حضرة زملائه في العمل يتجاذبون أطراف الحديث، فإذا الدموع تملأ عينيه وإذا هو بوادٍ فرداً فيه يهيم صاعداً جسراً من التنهد... والنحيب.

وترك غرفة زوجته كما هي... وكان يأوي إليها كل يوم فيسلم نفسه لسلطان التأمل والنجوى... أثاث الغرفة وفساتينها كانت كما هي حيث تركتها يوم انتقلت روحها إلى بارئها.

وقصُرت به أسباب المعيشة... أما دخله... ذلك الذي كانا يعيشان عبره في بحبوحةٍ من العيش في حياتها فأصبح لا يكفيه هو، وعجب أشد العجب والإعجاب من مقدرتها على تأمين كل مستلزمات العيش الرغد رغم تواضع الدخل... ما كانت لتبتاع سوى أجود أنواع الطعام والشراب... تلك التي لم يعد بوسعه الآن شراؤها!

ووقع في شراك الديون... ظل يدور هنا وهناك... مقترضاً من هذا وذاك كمن افتقر على حين غرّة.

وذات يوم وجد نفسه لا يملك شروى نقير... قبل أسبوع من موعد صرف المرتّب، ففكر في بيع شيء يقتات من ثمنه... وكان أول ما فكر فيه هو صندوق

المجوهرات المقلدة للراحلة... فقد كان يمقته... كان وجوده يثير فيه استياءً رأى فيه بدوره شيئاً من التشويه لذكرى حبيبه!

وما كان اختيار حلية بعينها من الصندوق لبيعها أمراً سهلاً إذ إنه كان يعج بالكثير فقد دأبت الراحلة الغالية على ابتياع الأكسسوارات حتى آخر ليلة في حياتها... ووقع اختياره أخيراً على عقدها المفضل فقدر أنه سيعود بمردود طيب ستة فرنكات أو سبعة... ـ فكر ـ فحبّاته رائعة!

ووضع العقد في جيبه واتجه صوب الوزارة باحثاً ـ في طريقه ـ عن معرض مجوهرات معتمد.

ولمح متجراً فاتجه نحوه يعثر خطوه الهم والخجل. هم إفشاء إفلاسه وخجل لكونه سيبيع بثمن بخس حلية مقلدة لا قيمة لها تذكر.

واتجه إلى الصائغ فبادره: معذرة سيدي ـ بكم تقدر هذا العقد؟

وتناول الرجل العقد منه فتفحصه ملياً وقلّبه بين يديه ثم استدعى شريكه فأسر إليه شيئاً قبل أن يضع العقد على المنضدة فيعيد اختياره عن بعد كمن يسبر غوره التأثيري.

وفغر السيد (لانتن) فاه في انبهار لدقة الإجراءات، واحتجاج لما رأى فيه استهانة به وهم بقول شيء... على أن الصائغ بادره: يتراوح سعر هذا العقد بين اثني عشر إلى خمسة عشر ألف (فرنك) على أني لن أشتريه حتى أعلم مصدره!

وحدق السيد «لانتن» فيه مبهوراً، مشدوهًا فاغراً فاه غير مستوعب لما طرق مسامعه، وجاءت كلماته في تمتمة مبهورة.

ـ ماذا؟ أمتأكد أنت؟

ولم يلق ذلك التساؤل لدى الصائغ قبولاً حسناً فرد بغضب:

ـ يمكنك التوجه إلى متجر آخر إن كنت تظن أنه يساوي أكثر. أما بالنسبة لي فإنه لا يستحق أكثر من خمسة عشر ألفاً، عد إليّ إن لم تجد عرضاً أفضل.

وأخذ السيد «لانتن» العقد في ذهول فغادر المكان تحكمه رغبه طاغية في الاختلاء بنفسه.

على أنه وبعد أن سار قليلاً دهمته نوبة من ضحك ساخر وفكر: ـ ياله من معتوه! ماذا لو أنني صدقته... كم هو أبله... ألا يفرق وهو الصائغ الماهر بين الجواهر الحقيقية والمزيّفة؟!!

ودخل محل مجوهرات آخر في شارع (دي لابي) وما إن عاين الصائغ العقد حتى صرخ قائلا:

ـ بالطبع... أعرف هذا العقد جيداً فأنا من باعه!

ودهم السيد «لانتن» انزعاج لا حد له فسأله في حيرة:

ـ وكم يساوي؟

ـ سيدي لقد بعته بخمسة وعشرين ألف فرنك. على أني مستعد لشرائه بثمانية عشر ألفاً إن أخبرتني ـ وهذا إجراء قانوني ـ كيف وصل إليك!

هذه المرة انهار السيد «لانتن» على الكرسي وقد شلت الدهشة حواسه.

وتمتم:

ـ لكن هلا أعدت معاينته بدقة مرة أخرى سيدي... كنت أعتقد جازماً بأنه من المجوهرات المقلدة.

وسأله البائع: هل لي أن أعرف اسمك سيدي؟

ـ بالتأكيد ـ أنا السيد «لانتن» أعمل بوازرة الداخلية وأسكن في «١٦ شارع الشهداء».

وفتح التاجر سجلّه ثم تصفحه قبل أن يقول:

ـ لقد أرسل هذا العقد إلى السيدة (لانتن) «١٦ شارع الشهداء في العشرين من يوليو لعام ١٨٧٦م).

حلق كل منهما في وجه صاحبه... نظرات السيد (لانتن) كانت مسكونة بالدهشة والانبهار، فيما نمت نظرات الصائغ باتهام فاضخ باللصوصية.

وقال التاجر أخيراً:

ـ ألديك مانع في أن أبقي العقد لدي ليوم ـ سأكتب لك وصلاً بذلك طبعاً.

ـ بالطبع... لا مانع لدي!

قال (لانتن) خارجاً بعد أن وضع الوصل في جيبه.

انطلق على غير هدى فعبر الشارع ثم عاد بعد أن أدرك بأنه قد أضاع وجهته... وأدرك ثانية بأنه قد قصد مكاناً آخر خطأ فعبر نهر (السين) عائداً إلى (الشانزليزيه) تارة أخرى دون أن تكون له غاية معيّنة.

وأجبر نفسه على إعمال الفكر تحليلاً وتعليلاً... لم يكن لزوجته من المال ما يمكّنها من شراء ذلك العقد... بالطبع لا! حسناً.

فمن أين لها بقيمته؟ أهديّةٌ هو؟ هدية! ممن؟ ومقابل ماذا؟

ووقف في منتصف الطريق شارد الفكر متسائلاً... ودهمه استنتاج صاعق مباغت! هي؟ أيمكن أن يكون! كل تلك المجوهرات إذاً هبات وهدايا؟ وأحس بالأرض تكاد أن تميد به، ثم ما لبثت شجرة كبيرة أن اعترضت طريقه فسقط فاقداً الوعي.

وفي صيدلية قريبة استعاد وعيه نقله عابرون إليها، وطلب أن ينقل إلى البيت... وما إن دلف حتى أحكم رتاج الباب وظل يبكي ويبكي بكل دموع العمر... دموع أحسها جمرات تحرق مآقيه لتسيل على خديه لهيباً ممضًا، وكتم صوت النحيب المر بمنديل كبير جعله في فمه إلى أن أرخى الليل سدوله فذهب متثاقلاً إلى سريره ينادمه اثنان الهم والإجهاد، ودون أن يشعر... راح في نوم عميق.

وأيقظه خيط من شعاع الشمس فنهض في إعياء كيما ينطلق إلى عمله، وشعر بأنه من الصعوبة بمكان أن يستمر في عمله بعد تلك الضربة القاصمة، فكتب إلى مديره في العمل طالباً إجازة... ثم تذكر بأنه من الخطأ ترك العقد لدى الصائغ فانطلق إلى متجره ثانية والخجل يصبغ محياه بلون الأرجوان، وبينا هو في طريقه شرع يجاذب نفسه أطراف الحديث... ما أقرب السعادة ممن يملك المال!

بالمال تنفض عنك غبار الأحزان... وترحل أو تقيم أنى شئت، بالمال تجوب العالم وتخترق حدود الكون ليتني كنت غنيّاً!

وتذكر فجأة... حينما قرصه الجوع بأنه لم يتناول طعاماً منذ ليلة الأمس على أنّ جيبه كان خالياً... لكنه تذكر العقد فجأة... ثمانية عشر ألفاً من الفرنكات... يالها من ثروة!

ووصل إلى شارع (دي لاپي) فشرع يخطو أمام المتجر جيئة وذهاباً... ثمانية عشر ألفاً! قال في نفسه وللمرة العشرين خطا نحو الباب إلا أن الخجل منعه من الدخول.

كان لا يزال يتضوّر جوعاً... وجيبه من المال خلواً... وأعمل فكره سريعاً فكر فقرّر وبسرعة دفع باب المتجر فدلف قبل أن تبادره ذاته بقرار تعسفيّ اعتراضيّ.

وحياه الصائغ بحرارة منذ أن وقعت عليه عيناه... ثم ابتسم له في إجلال مقدّماً له كرسيا... ودنا الصائغ وشريكه منه فجلسا قبالته وابتسامات مشرقة تشع من عيونهما وشفاههما في آن وبادره الصائغ:

ـ أنا عند كلمتي بالأمس... فإن قبلت اشتريته منك بالمبلغ المتفق عليه ثمانية عشر ألفاً.

ـ نعم... بالتأكيد ـ رد (لانتن) مثلعثماً .

وأخرج الصائغ ثمان عشرة ورقة كبيرة فعدها ودفع بها إلى (لانتن) الذي وقع وصلاً بالاستلام قبل أن يدس المال في جيبه ليغادر المكان. وقبل أن يلفظه المتجر التفت إلى التاجر المبتسم وقال في خجل لعثم كلماته:

ـ لدي المزيد من هذه المجوهرات إن كانت ثمت رغبة لديكم في الشراء.

ـ بالتأكيد سيدي. رد الصائغ هازاً بالإيجاب رأسه.

وكتم أحد الشركاء ضحكته فيما اضطر الآخر إلى مغادرة المكان لإخفاء ما كان يستشعره من أحاسيس هي نسيج من سعادة وحبور.

وقال (لانتن) في شيء من الجدية: ـ سأحضرها إذًا لكم.

وعندما عاد إلى المتجر بعد ساعة كان جائعاً ما يزال... وأجرى الشريكان كثيراً من عمليات الفحص والمعاينة قبل أن يتجهوا جميعاً إلى منزل «لانتن».

ولبس «لانتن» رداء التجارة فشرع يفاصل ويصر على رؤية الفواتير وانفعاله يتضاعف بتضاعف قيمة المبيعات.

ثُمِّنت الأقراط الساحرة بعشرين ألفاً.

وثمنت الأساور بخمسة وثلاثين ألفاً.

أما ما تبقى من حلى دقيقة فقدر ثمنها بستة عشر ألفاً!

ووصل المجموع بذلك إلى مائة وستة وتسعين ألف (فرنك) وهتف التاجر في جذل:

ـ تلك هي نتيجة الاستثمار في المجوهرات.

ورد (لانتن) في هدوء:

ـ هذه هي إحدى طرق استثمار النقود.

وغادر المكان بعد أن اتفق مع المشتري على أن يعاين المجوهرات خبير آخر لتقدير ثمنها كإجراء نهائي.

عندما احتضنه الشارع شعر بأن الدنى قد أضحت ملك يديه... ورفع بصره إلى قمم النصب التذكارية الشامخة فوق الغيوم، فأحس بأنه قد أصبح أثيريّاً إلى حد تمنى معه التحليق فوق ذراها... وامتطاء صهواتها.

ودخل أحد المطاعم الفخمة فطلب طعاماً شهيّاً وزجاجة شراب كلّفته عشرين فرنكا. ثم اكترى عربة طافت به أحد المتنزهات، والتفت إلى العربات

الفخمة حوله كاتماً رغبة ملحة في أن يصرخ بأعلى صوته: أنا ثري أيضاً فلديّ مائتا ألف فرنك. وتذكر مكتبه فاتجه نحوه، ولما وصل إليه توجه صوب مديره المباشر فقال له في هدوء:

ـ سيدي... أقدم استقالتي، لقد ورثت لتوي ثلاثمائة ألف فرنك، ومضى يصافح زملاءه... مطلعاً إياهم على ما تفتق ذهنه عنه من خطط مستقبلية ثم يمّم شطر مطعم (كافي إنجليز) وهناك وجد نفسه جالساً بمحاذاة رجل تبدو عليه مظاهر النعمة، فما تمالك لسانه وقال له في شيء من المباهاة بأنه قد ورث لتوه أربعمائة ألف فرنك!

ولأول مرة في حياته أحس بمتعة في مشاهدة العرض المسرحي وأمضى شطراً من الليل سادراً.

بعد ستة أشهر تزوج تارة أخرى، زوجته الثانية كانت سيدة رائعة لكنها كانت صعبة نوعاً فأحالت حياته جحيماً.

المنتقــم

للكاتب الفرنسي الكبير: جي دي موباسان

Guy De Maupassant (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣)

حينما اقترن (أنطوان لوليت) بالأرملة (ماتيلدا سوريز) كان قد عانى لعشر سنوات خلت من لواعج الهيام بها.

أما زوجها المتوفى (سوريز) فقد كان صديقه ورفيق دراسته وكان يميل إليه كثيراً رغم أنه كان يعتبره غبيّاً نوعاً:

ـ مسكين (سوريز) ـ اعتاد أن يقول لنفسه ـ سوف لن يتأتّى له تحقيق شيء ذي بال!.

وعندما تزوج (سوريز) الآنسة (ماتيلدا دوڤال) عرت (لوليت) الدهشة الممزوجة بشيء من الحنق كونه معجباً بها هو ذاته!

كانت ابنة تاجر خردوات، جمع مبلغاً من المال قبل أن يتقاعد. أما هي فحلوة... ذكيّة... مهذبة وقد تزوجت (سوريز) لماله!

عقب ذلك شرع (لوليت) في النظر إليها بشكل مغاير... وزاد اهتمامه بها.

وكان هو وسيماً ذكياً ميسور الحال... وظن أنه سيستميل زوجة رفيقه على أن مساعيه السيئة باءت بالفشل، فزادت لواعج شوقه، واضطر إلى إخفاء مشاعره الخجولة في طيات ذاته رغم ما سببه له ذلك من تباريح الوجد

والغرام المحرم، وكان إحساسه المتناقض ذاك نابعاً من كونها زوجة لصديقه العزيز، أما هي فإنها بعد أن اطمأنت إلى أنه قد جنح للسِّلْم وتخلى عن طيشه شرعت تعامله برقة وحنان... لسنوات تسع.

وذات صباح تلقى (لوليت) رسالة دامية تخبره فيها بأن زوجها المسكين قد قضى نحبه إثر انسداد تاجي أصاب قلبه!

وصعق (لوليت) عند تلقيه الخبر، فقد كان صديقه ورفيق دربه، وكان في ذات السِّنّ تقريبًا. على أن وقع الصدمة قد انداح شيئاً فشيئاً إذ إن الطريق قد خلا له أخيراً بعد إذ غدت أرملة صديقه ملك يمينه إن رام أن يقترن بها.

على أنه تصرف طبقاً لمجريات الأمور وحتمية الموقف ونجح في ارتداء قناع من الهيبة والحزن على صديق عمره الذي تصرمته المنية وهو بعد في ريعان الشباب لما يزل. وانتظر حتى إذا انقضت الفترة التقليدية ومضت حقبة من الزمن تزوج منها! كان ذلك بعد خمسة عشر شهراً.

ورأى الناس في زواجه من أرملة صديقه شهامة ونبلاً ووفاء لرفيق دربه فيما أحس هو بأن السعادة قد أضحت ملك يديه .

وكان التفاهم الفوري ودفء العاطفة مما زاد ذاك الارتباط الروحي الوثيق بينهما... ما كانت بينهما ثمت أسرار، بل إن كلا منهما كان يحدث الآخر بما يجول في خاطره. ونما حبه لها وتعاظم، وكان يشعر تجاهها بتلك الثقة المطلقة المريحة... فعاملها معاملة الخل الوفيّ، والند المماثل الأمين، على أن خاطره ظل في حرج متناذر من ذكرى ما فتأت تلقى على فؤاده بظلال من كدر... بعد إذ استشعر امتعاضاً وغيظاً حيال صديقه الراحل الذي كان أحسن حظّاً منه وسبقه إلى امتلاك زوجته... ذاك الذي كان أول من اقتطف برعمها الندي،

وحظي بفـؤادهـا البكر الفـتيّ فـأذهب بذلك كـثـيـراً من وهج الشـاعـرية والرومانسية في الأمر برمّته. وأفسدت ذكرى البعل المتوفى كثيراً من عذوبة اللحظات الحاضرة، وشرع ذلك الخاطر يؤرق ليل (لوليت) ونهاره.

وعاد يسألها عن زوجها السابق، مستفسراً آلاف المرات عن أدق تفاصيل حياتها معه... مصرًا على إطلاعه على كل دقيقة وجليلة عنه، حتى إذا ما وافته بذلك كله أمطر قبر المسكين بوابل من السخرية اللاذعة مبالغاً في تصوير نقائصه وزلاته.

وقد يكون في مكان قصيّ بالمنزل فيصرخ في أية لحظة منادياً زوجته:

ـ ما تيلدا!

ـ نعم عزيزي... ما الأمر؟

ـ آ... أريد أن أقول لك شيئاً!

فتأتي المسكينة إليه باسمة الثغر... منشرحة الصدر... متسلِّحةً بكم هائل من الصبر... وهي تعلم علم اليقين أنه سيحدثها عن (سوريز) فتأبى إلا أن تسايره في ذلك.

ـ أتتذكرين ذلك اليوم الذي حاول (سوريز) فيه إقناعي بأن ذوي القامات الضئيلة أفضل من ضخام الأجسام؟.. ويسترسل في إبداء ملاحظات مهينة بحق صديقه الراحل... ذاك الذي لم يكن يوازيه بسطة في الجسم، فتوافقه (مدام لوليت) الرأي وتؤكد على رجاحة عقله مقارنة بغباء زوجها السابق ضاحكة من كل قلبها... ممتدحة (لوليت) الذي يختم ذلك عادة بقوله:

ـ حسناً... لا عليك (ماتيلدا) لا تلومي المسكين فقد كان غبياً نوعاً.

وكانا سعيدين غاية... وظلا على ديدنهما يغمرها بفيض من الحب فتبادله عشقاً بعشق، فهما في شهر عسل دائم، وظل يبرهن لها على ما تحظى به في فؤاده من مكانة بشتى السبل المعتادة.

وذات ليلة أرقهما فيض من حماس الشباب الملتهب، فطفقا يتبادلان المزاح وسألها فجأة:

- أخبريني حبيبتي!

- عمّ؟!

- آه... إنه سؤال أرعن نوعاً... عن (سوريز) ما كان مقدار حبه لك؟

- ليس بمقدار محبتك عزيزي! قالت دافنة وجهها في صدره. وانتفضت كبرياء الرجل في ذاته فأردف:

- فإذاً كان أخرقاً في أساليب التعامل معك؟

- أجل... كان كذلك... لم يؤت نصيباً من الحكمة على الإطلاق.

- ذاك الفظّ... لم يكن لطيفاً معك إذاً.

- أبداً... قالت مؤكدة.

وعاوده الزهو وهو يقارن نفسه بالراحل فيجد الفارق لصالحه كبيراً. وبقي صامتاً لوهلة وقد أثملته السعادة ونشوة الاكتشاف حد الارتعاش. لكنه عاد يسألها:

- أخبريني!

- بم عزيزي؟

ـ أروم صراحة مطلقة.

ـ بالطبع فاسأل عما بدا لك!

ـ هل فكرت ذات مرة في خداع ذلك الأحمق المسكين؟

وندت عنها صرخة خجولة مكتومة بعد إذ دفنت وجهها في صدر زوجها أعمق فأعمق... على أنه لاحظ أنها كانت تضحك فأصر على سؤاله.

ـ كلا... أخبريني هيا... لقد كان وجهه ينبئ أنه كان من ذاك الطراز المخدوع الأبله... سيكون الأمر مضحكاً حقاً غاية... المسكين (سوريز) هيا أخبريني... أخبريني بكل شيء عزيزتي!

وشدد على ضمير المتكلم في (أخبريني) موقناً تماماً أنها لم تكن لتختار غيرة شريك لو أنها فكرت في خداع الراحل!

كان صدره يمور بنفاد صبر تشوبه النشوة كيما يسمع اعترافها، إذ إنه كان متأكدًا من أن ردها سيأتي بالنفي، على أنها لم تجب، بل ظلت تضحك وتضحك كأنما تذكرت باعثاً على ضحك مطلقًا ليس له قرار!

وأصابته عدوى الضحك كذلك... ضحك عنيف اهتز له بدنه وهو يتخيل ما كان يمكن أن يحدث من استغفال لذلك الأحمق (سوريز) وقال والقهقهة تحرّق مقاطع كلماته:

ـ هيا اعترفي عزيزتي ـ كوني صريحة معي فيما يختص بذلك الأبله، وجاء اعترافها أخيراً وهي لما تزل في قبضة الضحك:

ـ نعم... نعم...

وزاد زوجها في إصراره:

ـ نعم ماذا؟ هيا أخبريني بكل شيء!

وبدأت سورة الضحك في التلاشي فألصقت فمها بأذن زوجها الذي كان ينتظر بفارغ الصبر ذاك الاعتراف الذي يدغدغ الحواس قالت:

ـ أجل خدعته ذات مرّة!

وأحس برعدة ثلجية تخترق عظامه فقال متلعثماً:

ـ أنت ماذا؟... فقد فعلت إذاً؟

وظنّاً منها أنه كان يجد في الأمر إثارة للمشاعر والغرائز تابعت:

ـ نعم... قد عمدت إلى ذلك حقّاً!

ونهض فجأة واللهاث يقطع أنفاسه... كان متأثراً غاية كما لو أن أحدهم قد أخبره بأن (ماتيلدا) قد خدعته هو... وتاهت الكلمات منه فلم يدر ما يقول، على أنه استعاد بعد لأي شيئاً من رباطة جأشه فما زاد على أن قال:

ـ آه...

وتوقفت هي عن الضحك بعد أن أدركت ـ بعد فوات الأوان ـ هفوتها. وسألها أخيراً:

ـ مع من كان ذلك؟ وحاولت أن تجد مخرجاً فما استطاعت: وتمتمت ـ مع شاب يافع!

وجاءها صوته قاصفاً كهزيم الرعد:

ـ كنت أعلم أن ذلك لم يحدث مع عاملة مطبخ... أريد معرفة من يكون!

ولم تجب فجذب الغطاء بعنف مردداً:

ـ أريد أن أعرف من يكون... أتفهمين؟

وبألم قالت:

ـ لم أكن إلا مازحة!

على أن سورة الغضب كانت قد تملكته فهو يرتعد بعنف:

ـ إذاً فأنت تمزحين! لن ينطلي ذلك عليّ... من يكون؟!

ولم تنبس ببنت شفة... ظلت ممددة على السرير في ذهول وعيل صبره فأمسك بذراعها ولواه بشدة:

ـ ألا تسمعينني! إن سألتك فأجيبي!

وردت بعصبية:

ـ لا ريب وأنك قد فقدت شعورك ـ دعني!

ولكن الغضب كان قد ملك عليه جميع حواسه فما زاد على أن هزها بكل قوته صائحاً: أتسمعين... أتسمعين؟

وكيما تحرر نفسها من قبضته استدارت بحدة فجرحت أطراف أصابعها أرنبة أنفه ساكبة المزيد من الوقود على نار الغضب المتأججة في ذاته بعد أن سولت له نفسه أنها إنما تعمّدت ذلك، وجثم فوقها فعالجها بصفعة حادة ناعتاً إياها بأقذع الألفاظ، وعندما استهلك كل طاقته نهض لاهثاً كيما يتناول قدحاً من عصير البرتقال إذ إنه أحس بأنه كان يتأرجح فوق شرفة الإغماء!

أما هي فكانت تنتحب في صمت... يغتالها شعور بأنها قد قوّضت أركان سعادتها بمحض إرادتها... ومن بين دموعها المنسابه كنهر لا يكف عن الجريان تمتمت:

ـ اصغ إليّ انطونيو... دعني أشرح لك الأمر برمته... لقد كذبت عليك!

ورفعت رأساً سقطت القلنسوة عن جزء منه فبدا أشعث الشعر نوعاً... كانت عازمة على رأب الصدع بعد أن تمالكت نفسها وتسلحت بذخيرة من الحجج والمكر البارع.

واستدار نحوها وقد غشاه طوفان من الخجل نتيجة لما بدر منه تجاهها، على أنه شعر في أعماق ذاته بكثير من مقت الزوج نحو تلك المرأة التي خدعت صديقه السابق (سوريز)!

المهْــــر

للكاتب الفرنسي الكبير: جي دي موباسان
Guy De Maupassant **(١٨٥٠ ـ ١٨٩٣)**

ما اعترت الدهشة أحداً حينما اقترن السيد (سيمون لبرومن) بالآنسة (جين كورديس)، إذ كان العريس قد اشترى لتوه مكتب المحاماة الذي كان يملكه السيد (پاپيلون) المحامي، وهذا يتطلب في واقع الأمر... الكثير من المال، وكانت الآنسة (كورديس) تملك ثلاثمائة ألف فرنك ما بين أوراق نقدية وسندات.

كان السيد (لبرومن) أعزباً وسيماً... تجلّله هالةٌ من التميز رغم أنه كان يبدو كمحام ريفي... وهذا ما أفرد له مكانة خاصة في بلدته.

أما الآنسة (كورديس) فساحرة غضة... جذابة رغم أنها كانت خرقاء بعض الشيء وفي حاجة إلى شيء من الذكاء والنباهة على أنها - في مجملها - كانت مليحة بهية الطلعة.

وأحدث الزواج هزة كبيرة في أوساط بلدتهما، فقد كانت شعبيتهما واسعة، وبدلاً من السّفر لقضاء شهر العسل، استكانا إلى شيء من الراحة بعد أن عقدا العزم على السفر بعد أيام عدة... وبمفردهما إلى باريس.

وأسفرت ترتيبات العريس عن مهارة في التخطيط لا تضاهى، وكذا كانت علاقته بعروسه، فأما شعاره فكان: «من تأنى نال ما تمنى» بدا صبوراً متحمساً في الوقت ذاته؛ ولذا فإنه ما لبث أن أحرز نصراً ساحقًا مؤزراً.

خلال أيام أربعة بدت زوجُه مأخوذة به متيمة ولهى، فهو لا يغيب عن سمعها وبصرها، وكانت تجلس قبالته الساعات الطويلة تداعبه، وتلاعبه فتنكش شعر ذقنه ثم... تجرّ في شقاوة أنفه؛ وكان يرد عليها بمداعبات لا تقل حميمية وولهاً.

قال لها فور انتهاء الأسبوع الأول:

ـ نذهب إلى باريس الثلاثاء القادم إن أحببت... نتقمّص دور العشاق فنرتاد المقاهي والمسارح...!

وقفزت فرحاً:

ـ سيكون ذلك رائعاً! فلنبادر إذاً على الفور.

وتابع:

ـ وعلينا ألا ننسى شيئاً... ذكّري أباك أن يحضر مهرك معه كيما يكون بمعيّتِنا، حتى إذا ما لقيت السيد (پاپيلون) أنهيت الإجراءات معه.

ـ سأخبره صبيحة غدٍ بإذن الله!

وكان يوم السفر فخرج والداها لوداعهما في المحطة:

ـ إن من الخطر والمجازفة بمكان أن تحمل في حقيبتك هذا المبلغ من المال.

ـ قال له أبوها:

وابتسم المحامي الشاب:

ـ لا تقلق يا أبتي... أنا معتاد على ذلك، فطبيعة عملي تفرض عليّ أن أحمل أحياناً ما لا يقل عن مليون فرنك... بذا نتخلص من كثير من الشكليات والرسميات والتأخير، فلا تُرعَ.

وصاح الحارس:

ـ المسافرون إلى باريس! الزموا مقاعدكم.

وإلى مقعديهما أسرعا ليكتشفا أن طاعنتين في السن هما الجالستان قبالتهما!

وتمتم (لبرومن) هامساً في أذن زوجته في ضيق:

ـ يا للضجر الواعد... سوف لن أتمكن من إشعال لفافة! وهمست مجيبة:

ـ أجل سيكون ذلك مملاً بالنسبة لي كذلك ولكن ليس للسبب ذاته!

وصفّر القطار ثم انتفض منطلقاً ولم يتمكنا إبان فترة السفر التي دامت ساعة من تبادل الحديث إذ إن العجوزين لم تخلدا ـ لسوء الحظ ـ إلى النوم!

في المحطة قال (لبرومن) لحليلته:

ـ فلنذهب لتناول طعام الغداء وبعدها نعود لاستلام العفش ثم نتجه إلى الفندق.

ووافقت على الفور:

ـ أجل أعشق تناول الغداء في مطعم... أهو بعيد؟

ـ نعم... نوعاً ما... سنستقل حافلة إليه.

وارتفع حاجباها دهشة:

ـ ولم لا نكتري سيارة أجرة؟!!

وعاتبها مبتسماً:

ـ أهذه طريقتك في توفير المال؟ نكتري سيارة لرحلة تستغرق خمس دقائق ندفع فرنكاً لكل دقيقة منها؟

لا شيء يرضيك! تذكري أن القناعة كنز لا يفنى!

وتراجعت بسرعة:

ـ أنت محق تماماً... قالت وحمرة الخجل تضرّج خدّيها.

وحاذتهما حافلة كبيرة تجرها ثلاثة خيول فصاح (لبرومن) فيه .

ـ أيها الكمساري توقف!

وسمعت للحافلة جلبة قبل أن تتوقف فيهرع إليها المحامي وزوجته ويقول لها لاهثاً:

ـ ادخلي عزيزتي أما أنا فسأتجه إلى الدور الأعلى لأشعل لفافة تبغ قبل الغداء.

ولم يكن ثمت وقت هناك لسماع ردها، وحاول الجابي مساعدتها على الدخول إلا أنها سقطت لشدة الزحام وتحركت الحافلة.... كانت الدهشة والارتباك قد عقدا لسانها وهي ترى قدمي زوجها وقد غيبهما سلم الدور العلوي.

وانحشرت في مقعدها بين رجل سمين تفوح منه رائحة التبغ وبين عجوز علقت بها رائحة كلاب، أما بقية الركاب فكانوا جالسين وقد أطبق الصمت عليهم... فتى بقال وخياطة وضابط وثري يلبس نظارات مذهبة الإطار وقبعة طويلة كمدخنة، وسيدتان تنظران في خيلاء إلى الناس وكأنهما تقولان:

ـ نعم نحن هنا ولكن الحافلة ليست من مقامنا!

كانت الحافلة تضم كذلك راهبتين وفتاة حاسرة الرأس، وبدا الجميع كفرقة هزلية... كمتحف عجائب... أو هو سلسلة من أنماط ضاحكة لوجه الإنسان... كصفوف الدمى الهزلية التي يربح مرتاد المهرجان إما نجح في إيقاعها بالكرة أرضاً.

وكانت الرؤوس تهتز باهتزاز الحافلة فتضطرم الوجنات المكتنزة كحلوى الهلام (الجيلي) وقد خدر الرؤوسَ ذاك القرع الرتيب المتصل للعجلات فبدت النظرات خاوية... خالية... كأنما هي تحدّق في أعماق اللاشيء!

وكانت الشابة تجلس في ملل وضيق وحيرة وتسأل نفسها:

ـ لِمَ لمْ يأت معي؟ وخالجها استفسار غير مريح: أعتقد أنه كان بإمكانه الاستغناء عن لفافة التبغ تلك!

وأشارت الراهبتان إلى الجابي أن يوقف القطار، ثم نزلنا مخلفتين رائحة خزانة ملابس عتيقة. ومضت الحافلة تمخر عباب الطريق، ثم توقفت بعد أن قفزت طباخة إليها، فجلست واضعة سلة التسوق على ركبتيها ورائحة مسحوق الغسيل تغزو جزئيات العربة.

إنه أبعد مما تخيلت، قالت جين لنفسها ونزل ركاب وصعد آخرون، فأما الفتاة حاسرة الرأس فجلس في مقعدها الشاغر صبي لحذائه رائحة.

وأحست المسكينه (جين) بغرابة الموقف وبدت متوعكة بعض الشيء... شعرت برغبة شديدة في البكاء دون أن تدري كنه ذلك.

واخترقت الحافلة شوارع عدة والناس بين صاعد وهابط.

ـ ما أطول الطريق ـ همست لنفسها ـ أرجو مخلصة ألا يكون غارقاً في نوبة شرود ذهن أو نوم!

لقد بدا متعباً جداً في الأيام القليلة الماضية.

وخلا (الباص) من ركابه طرّاً سوى المسكينة فصاح الموظف: (ڤوجيرار)! ولم تحرك ساكناً فأعاد الاسم وسألته: أين نحن؟ فرد في حدة وتعجب:

ـ يا إلهي نحن في (ڤوجيرار) قلت ذلك حتى بح صوتي!

ـ أيبعد ذلك عن شارع الطليان كثيراً.

ـ لقد اجتزناه منذ ساعة!

ـ حسناً فهلا أخبرت زوجي؟

ـ زوجك؟! وأين هو؟

ـ في الدور العلوي!

ـ لم يصعد إلى هناك أحد منذ قرون؟

وصرخت في رعب:

ـ ماذا تقصد؟ هذا مستحيل لقد ركب معي لابد وأنه هناك؛ وغدا الموظف عدوانيّاً بعض الشيء:

يكفي هذا ... يا ابنتي ـ إنه ليس الحصوة الوحيدة على الشاطئ ـ هيا ... غادري الحافلة فوراً ولسوف تجدين في الشارع بديلاً له.

واغرورقت بالدموع عيناها فأصرت:

ـ أنت مخطئ تماماً أؤكّد لك... لقد كان يحمل حقيبة كبيرة!

وضحك الموظف.

ـ حقيبة كبيرة؟ أجل تذكرت... لقد هبط في محطة (مادلين) لقد خدعك الرجل... ها... ها ـ قهقة كمن لا هم له.

وتوقفت الحافلة أخيراً في مركزها فنهضت وألقت نظرة فطرية على الدور العلوي الذي... بدا لها خالياً تماماً عندها ما تمالكت دموعها فهمت مدراراً... وما دار في خلدها أن الناس قد شرعوا يحدّقون فيها بعد إذ استرعى نحيبها انتباههم، ومضت تسائل نفسها ـ ترى ماذا سيحل بي؟

وجاء مفتش المركز فسأل موظف الحافلة عن الأمر فرد الأخير ساخراً:

ـ إنها سيدة خدعها زوجها وتخلى عنها، وجاء تعليق الأول: ـ أهذا كل ما في الأمر؟ لا شأن لك بها وتابع عملك وسارت (جين) في خط مستقيم... غزاها الرعب والحيرة فيما عساها تقدم عليه ـ إلى أين تذهب؟ دهمها التساؤل الذي أفرزته مجريات الأمور فهو حتميّ ـ وطوقتها شبكة الاحتمالات... ثم عادت تفكر فيه ـ ما الأمر أتراه فقد ذاكرته وكان في جيبها (فرنكان) فتساءلت في نفسها ثانية عمن يمكن أن تلجأ إليه! وتذكرت فجأة ابن خالتها الموظف في الأميراليه فانتعشت آمالها واكترت سيارة أجرة أعطت سائقها عنوان ابن خالتها ووصلت إلى داره ـ لحسن طالعها ـ وهو يهم بالخروج إلى مقر عمله، وما إن رأته حتى انطلقت من السيارة لا تلوي على شيء... كان يحمل تحت يده مثل (لبرومن) حقيبة كبيرة:

ـ (هنري)! صاحت به.

وتوقف مصعوقاً بالدهشة.

ـ (جين)؟ أنت هنا... لوحدك ـ ماذا تفعلين هنا ومن أين أتيتِ؟

وترنحت لا تكاد من سيل الدموع تبصر ما أمامها:

ـ لقد اختفى زوجي فجأة؟

ـ اختفى... أين؟ سألها.

ـ على متن الحافلة!

ـ على متن الحافلة؟ آه.

وانبثقت قصتها مع ذرات دموعها... روت له كل شيء واستمع هو في صمت حزين ثم سألها:

ـ أكان طبيعيّاً هذا الصباح؟

ـ أجل.

ـ حسناً ـ أكان معه شيء من المال؟

ـ أجل كامل مبلغ مَهّرِي!

ـ مهرك؟ كله؟

ـ أجل كل قرش منه ـ كان على وشك دفع ثمن مكتب المحاماة الذي اشتراه حديثاً.

ـ حسناً ابنة خالتي العزيزة أظن أنه الآن قد توغل في الطريق إلى بلجيكا.

ـ ولم تفهم ـ ما استوعبت شيئاً فتمتمت:

- زوجي... تقصد.

- أجل أعنى أنه قد هرب بمهرك... هذا كل ما في الأمر.

وتوقفت فوقفت مسمّرة مشدوهة تكاد تختنق... وقالت أخيراً:

- إذًا فهو لص - ثم انهارت باكية أمام ابن خالتها... وفيما تجمهر الناس حولها دفعها برفق حتى أوصلها داخل بيته، وعندما أطلت الخادمة المذهولة قال لها.

- (صوفي) بادري من فورك بالذهاب إلى مطعم قريب فاجلبي غداء لاثنين! لن أذهب اليوم إلى الوزارة!

الفيلسوف ممنونُ
أو (حكمة الإنسان)

للكاتب الفرنسي : ڤولتير: Voltoire **(١٦٩٤ ـ ١٧٧٩)**

عقد السيد (ممنون) العزم ذات يوم على أن يصبح فيلسوفاً عظيماً! ترى من منا لم تراود تلك الفكرة خياله يوماً وإن كانت عاصفة عابرة، وشرع (ممنون) يناجي نفسه:

«كيما أصبح فيلسوفاً كاملاً أعبّ من معين السعادة الذي لا ينضب فتشرق في ذاتي رؤى الأمل البارق المعطاء فإنه لا يتعين علي سوى التجرد من العاطفة تماماً... ولا شيء أسهل من ذلك كما يعرف الجميع.

سوف لن أسمح لنفسي ـ بدايةً ـ أن أقع في شراك الحب، وعندما تقع عيناي على حسناء فإني سأقول لنفسي ستمتد يد الزمان إلى هذين الخدين يوماً فتملؤهما التجاعيد، ولسوف تحيط الهالات القبيحة السوداء بهاتين العينين... وذلك الشعر الفاحم الأسود يميل به النسيم يميناً وشمالاً ما أسرع ما سيتساقط مخلفاً وراءه رأساً أصلع مجذوماً ليس على سوى تخيل كل ذلك، واستشراف ما سيحدث لاحقاً، وعندها سيرتاح بالي ولن يدير أي وجه فاتن رأسي ما حييت، وسأتوخى الاعتدال ـ ثانياً ـ في كل شؤون حياتي... لن يجذبني سحر المجتمعات وصخبها ولن أتناول المسكر. يكفيني لدرء كل ذلك تذكر ما قد يحل بي من بلاء جراء تعاطي أم الكبائر. صداع قاتل وأمعاء

مضطربة... وضياع للعقل والصحة والوقت والمال، فأما ما يتعلق بالطعام فإني سوف لن آكل ـ بإذن الله ـ إلا ما يقيم أودي فأضمن بذلك صحة موفورة وفكراً نقيّاً صافياً لا يكدره التفكير فيما ينبغي تناوله... ذلك كله سهل ميسر إلى حد انتفاء اللذة الحاصلة جرّاء تحقيقه. ياللتحديات كيف تصنع المستحيل.

بذا أكون قد أوتيت نصف الحكمة أما نصفها الثاني فسهل ميسر أيضاً إذ أن عامل المال لا يشكل عائقاً... أحوالي المادية على خير ما يرام ولسوف أسعى جاهداً إلى الحفاظ على ذلك.

وسوف أنقي فؤادي من الغيرة والحسد والحقد فألقى بذلك ذات المعاملة من الغير ـ وكما تدين تدان ـ كل ذلك مقدور عليه أيضاً، أما الأصدقاء فسوف أجتهد في المحافظة عليهم، إذ إن ذلك هو أصعب بكثير من اكتسابهم ـ تابع (ممنون) مناجاة نفسه ـ لن أختلف ماحييت مع أحد منهم ـ سأوافقهم الرأي دوماً فأعيش بذلك معهم في سلام دائم ووئام... ما أسهل ذلك... ليت الأمر كان أشق قليلاً إذاً لولّد التحدي وعامل الإنجاز وتحقيق الصعب متعة لا تعدلها متعة.

وما إن وضع (ممنون) مخطّطه الفلسفيّ الصغير في خزانته حتى أطل برأسه في فضول من النافذة فرأى امرأتين تسيران تحت الأشجار القريبة من منزله.

كانت إحداهما قد بلغت من الكبر عتياً... وبدت هادئة واثقة شديدة الاعتداد بنفسها... أما الأخرى فكانت شابة صغيرة جذابة رقيقة أنيقة! على أنها كانت متوترة بعض الشيء، وزادتها تنهداتها ودموعها جمالاً على جمال. وتأثر فيلسوفنا بما رأى ـ لا بجمالها فقد عقد العزم على عدم الوقوع في ذلك الخطأ سالفاً ـ ولكنه رثى لحالها ولما كانت عليه من حزن وأسى.

وهبط درجات السلم سريعاً، ثم صعد والشابة إلى شقته محاولاً التخفيف عنها. وقالت بصوت عذب رخيم جذاب بأن عمها قد جنى عليها وقسى، وبأنه قد حرمها مما لها من أملاك ومتاع وعرّضها لآلام نفسيّة وجسديّة رهيبة ثم أردفت:

- يبدو أنك حكيم عارف ببواطن الأمور ياسيدي - رافقني إلى منزلي فلعلك تضع يدك على دواء لما أقاسيه!

وما تردد (ممنون)... تبعها إلى بيتها كيما يطرح تصوراً فلسفيّاً لحالتها ينقذها مما هي فيه.

وبأدب قادته المعذّبة المسكينة إلى غرفة تنبعث منها روائح عطريّة أخاذة لا تقاوم، ثم جلست قبالته على إحدى الأرائك... وكانت هي في الشوق غاية لأن تروّح عن فؤادها بإطلاعه على ما حدث لها، فيما كان متلهفاً لسماع ذلك.

وشرعت الشابة الحسناء تفضي إليه بما أرّقها في خفر مطرقة لا ترفع رأسها.. وبين الفنية والأخرى كانت دمعة تهمي على الخد الأسيل حتى إذا ما رفعت إليه طرفاً.. التقت النظرات.. ونحا الجو العام منحى عاطفياً أججه الشجن وامتزاج اللحظ. ولامست مشكلتها شغاف قلبه، فأحس نحوها شفقة والتزاماً بمد يد العون إليها.. وذاب (ممنون) في لوعات الشجن وهو يهدي النصح إليها.. حتى تغير المسار.. ولم يعد يدري ما هو قائل. ولا هي درت إذ انه ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.

وفي تلك اللحظة بالذات - كما هو متوقع - فمن الذي يُنتظر أن يدخل عليهما سوى عمها الطاغية الذي كان مدجّجاً بالسّلاح من رأسه إلى أخمص

قدميه والذي هدد بقتلهما على الفور، فأما الفتاة فقد لاذت بالفرار موقنة بأن عمها سيقبل فدية من (ممنون) فلا يهريق دمه نظير ذلك. وتحتم على المسكين (ممنون) أن يدفع كل ما يملك ثمناً لنجاته، إذ إن المرء آنذاك كان يفرح بالخلاص السريع... ولم تكن (أميريكا الشماليه) قد اكتشفت آنذاك؛ ولذا فإن حزانى النساء وكسيرات الفؤاد منهن لم يكن في خطورة أمثالهن راهناً.

ودفع (ممنون) (المقسوم)، ثم توجه إلى منزله لا يكاد من خجل وحيرة وخزي يرى ما أمامه، وهناك وجد بطاقة دعوة إلى العشاء من بعض أصدقائه الخلّص فقال في نفسه:

إن مكثت في المنزل فستحاصرني الشكوك والأوهام والآلام لما حل بي وسيفتك الغضب بي فلا أقدر على تناول لقمة عشاء تسدّ رمقي، فأصبح بذلك فريسة للعلل والأوجاع! خير لي إذاً أن ألحق برفاقي فأدخل على نفسي شيئاً من السرور وأتناول وجبة مجانية لسوف ينسيني ذلك كله ما ارتكبته اليوم من حماقة.

ويتجه (ممنون) في أعقاب ذلك إلى حيث يتواجد أصحابه... في إحدى الحانات طبعاً... يبدو الهم خاطّاً ملامح بارزة على وجهه.

يدرك أحد رفاقه أنه مرّ بفترة عصيبة، فإذا هو ينصحه بأن يتناول شيئاً كي ينسى. لا ضير في شيء من النبيذ أجلو به الهم ـ يقول له شيطانه ـ وروح الفيلسوف في أعماق ذاته. ويكثر من احتساء الأقداح حتى الثمل فيقول لنفسه:

« بعد تلك الوجبه فإنه لا ضير في شيء من اللهو مع الزمان».

ويلهـو (ممنون)، يلعب القمـار فيـخسـر كل مـا كـان في مـحـفـظتـه وأربعـة أضعـافه، ويعقب ذلك جدل يتحول إلى عراك ويقذفه أحد رفاقه بالنرّد فيفقأ إحدى عينيه.

ويحمل (الفيلسوف) (ممنون) إلى منزله ثملاً... مفلساً مقلوع العين فيخلد إلى نوم عميق يصحو بعده أحسن حالاً من ذي قبل نوعاً ويسارع إلى إرسال خادمه إلى المصرف لسحب مبلغ يسد به ما عليه من دين لصحبه، لكن الخادم يعود ليخبره بأن قيّم المصرف قد قبض عليه بتهمة الاحتيال وبأن إفلاسه قد أشهر، فأفقر وشرّد من جراء ذلك مائة عائلة.

ويضع (ممنون) عصابة على عينه... وخطاب التماس في جيبه ثم يتجه إلى الملك لرفع دعوى ضد قيّم المصرف.

وفي قاعة الحاكم يجد عدداً من السيدات وقد غمرتهن السعادة وراحة البال حتى أوشكت جلابيبهن الشفافة أن ترتفع بهن عن الأرض فيحلقن كفراشات جذلى في سديم الأحلام، ويقع بصر إحداهن عليه فتصرخ في رعب: «يا للوحش الرهيب»! على أن ثانية ـ وكانت على سابق معرفة به ـ تحييه: أسعد الله صباحك سيد (ممنون) ما الذي تراه أطار عينك؟! ولا يجيب المسكين. يرجع القهقرى حتى تخفيه إحدى الزوايا النائية.

وتذرّع بالصبر في انتظار حضور الحاكم كيما يرفع إليه معروضه الالتماسي. ووصل الحاكم أخيراً فسارع يحييه بوقار دافعاً إليه بالورقه، وكان الحاكم طيّباً رقيقًا فتناول الالتماس منه ودفع به إلى مرزبانه في لطف كيما يدرسه ويرفع إليه تقريراً عن فحواه .. وبصلف ينتحي (المرزبان) (بممنون) جانبًا قائلاً له فيما يشبه فحيح الصِّلّ.

ـ اسمع ياذا العين المفقوءة... كيف تجرؤ ـ بحقارة ـ على التوجه إلى الحاكم مباشرة بدلاً من مقابلتي..؟

تطاوعك نفسك الأمّارة بالسوء ـ علاوةً على ذلك ـ على رفع دعوى ضد مفلس بريء يقع في نطاق حمايتي... ألا تعلم أنه ابن لأخت حاجبة مولاتي السلطانة؟! ياللوضاعه!

إياك أن تمضي قدماً في رفع تلك الدعوى ضده وإلا فإنك ستفقد عينك الأخرى!

وهكذا وجد الفيلسوف (ممنون) نفسه وهو الذي قد وضع للتو في خزانته قائمة بأبجديات الحكمة والفلسفة تقتضي النجاة من الوقوع في شرك النساء والطعام واللهو والنزاع المفضي إلى قاعات المحاكم... وجد نفسه وفي غضون أربع وعشرين ساعة وقد خدعته وسرقته فتاة ضعيفة، وفريسةً للقصف المسكر والقمار والإفلاس والخصومة التي أودت بإحدى (حبيبتيه) علاوة على ما لاقاه في مجلس الحاكم من إهانة وتهديد!

وبدا المسكين وقد صعقته الدهشة والذهول... كسير القلب محزون الفؤاد، كان وهو يعود إلى منزله يعثّر اليأس والإحباط خطوه، وما إن دنا منه حتى سمع صوت جلبة وضوضاء استشرف كنهها، فإذا هم عمال الحجز ينقلون أثاث منزله لتسوية حقوق دائنيه، ويسقط تحت إحدى الأشجار وروحه تكاد تفارق جسده فتقع عينه على تلك الفتاة اللعوب التي خدعته وعمُّها بالأمس ويريان الضماد على عينه فيغرقان في الضحك. وينشر الليل خيمته على أرجاء المكان فيتخذ (ممنون) لنفسه فراشاً من القش قرب حائط منزله، ويسلم جفنيه للذيذ الكرى بسرعة فتتبدى له رؤيا غريبة:

رأى روحاً أثيرية يغمرها النور وقد اتخذت ستة أجنحة جميلة لكنها كانت بلا رأس أو أيد أو أرجل:

ـ من تكون؟! صرخ (ممنون).

ـ أنا قرينك!

ـ فأعدِّ إليّ إذاً عيني وصحتي وثروتي وعقلي! قال (ممنون) قبل أن يقص عليه كيف فقد ذلك كله في يوم واحد:

في عالمنا لا شيء من هذا القبيل يحدث!

وسأله (ممنون) عن بلده فأخبره عن موقعه مبيّنا أنهم يرفلون هناك في حلل من السعادة وراحة البال والضمير، إذ لا نساء هناك «وهن أخوف ما يخاف على الرجل»... ولا طعام إذ لا رؤوس لهم، ولا مال إذ لا ذهب أو فضة على كوكبهم، كما وأنه لا يوجد هناك مرزبانات وحجّاب يسومونهم سوء العذاب والقهر، فهم هناك سواسية كأسنان المشط.

ـ بأبي أنت وأمي فما مجيئك إلى هنا إذاً؟

ونظر القرين إليه في ودّ وحنان ثم ابتسم قائلاً:

ـ إنما أتيت لأمحضك النصيحة وأواسيك.

ـ وهل يجدي ذلك الآن نفعاً يارفيقي؟ لمَ لمْ تأت بالأمس لتنقذني مما وقعت فيه من شراك؟

ـ يعود السبب في ذلك يا رفيقي إلى أني كنت في مهمة أخرى سامية لإنقاذ أخيك (حسن)! أجابه القرين الطيب ـ.

ـ لقد سُمِلتْ عيناه كلتاهما وهو الآن في زنزانة تحت الأرض في الأغلال والقيود يرسف.

ـ ياللسعادة ترفرف على منزلنا... قرين في عائلة فقئت عين أحد أبنائها وما وجد غير فراش من القش يأوي إليه فيما فقد الابن الثاني كلتا عينيه وحبس في نفق تحت الأرض.

ـ ستتحسن أحوالك يا رفيقي ـ قال قرينه ـ صحيح أنك لن تسترد عينك... لكنك ستسعد وستركن إلى الدعة والبهجة وراحة البال على أن ذلك لن يتأتى لك إلا إذا نضوت عنك فكرة اعتناق الفلسفة المطلقة!

ـ فذلك إذاً في عداد المستحيلات؟

ـ إنه مستحيل يا عزيزي كاستحالة التحلي بمطلق الحكمة أو القوة أو النفوذ... أو السعاده. إننا ـ معاشر القرناء ـ لا نقدر على ذلك رغم ما لنا من مواهب وطاقات، وقدراتنا في هذا السياق متفاوتة بتفاوت الأفلاك التي نسبح فيها والكواكب التي نقطنها.

ـ فأرضنا التي نعيش عليها إذاً هي أقل الأجرام السماوية حظّاً مما ذكرته من فضائل مطلقة؟ سأله (ممنون).

ـ ليس تماماً... كل شيء في هذا الكون سيأخذ قريباً وضعه المناسب!

أجابه القرين.

ـ ولكن أترى جانب هؤلاء الفلاسفة والشعراء الصواب إذاً وهم يؤكدون لنا بأن كل شيء يصب في مسار الأفضل للجميع؟

ـ مطلقاً... إنهم على حق... إذا ما نظرنا إلى الأشياء طبقاً للعلاقة التسلسلية مع الكون قاطبة.

وبحسرة... وكمن تذكر حبيباً بعيداً قريباً تنهد المسكين (ممنون) وتمتم فيما يشبه النجوى:

ـ أوّاه... سوف لن أصدق ما حييت ذلك حتى أستعيد عيني الأخرى!

الدرس الأخير

للكاتب الفرنسي : الفونس دوديه: Alphonse Daudet

(١٨٤٠ ـ ١٨٩٧)

حينما اتخذت طريقي إلى المدرسة ذلك الصباح كنت متأخراً غايةً، وارتعدت فرقاً وأنا أتخيل ما ينتظرني من توبيخ شديد خاصة وأن السيد/ (هامل) قال بأنه سيسألنا في أسماء الفاعل والمفعول وهو ما لم أكن أفقه فيه شيئاً.

فكّرت لوهلة في الهرب وإمضاء بقية النهار خارج الأسوار متمرغاً في أحضان الطبيعة بكل جمالها وعنفوانها. كان الطقس رائعاً والسماء مشرقة باسمة... وعلى الأغصان هناك في أطراف الغابات شرعت الطيور تعزف سيمفونية عذبة تشنف الأسماع في تمازج مع الطبيعة لا يوصف، فيما كان الجنود (البروسيون) يؤدون تدريباتهم... من درس الفاعل والمفعول... على أني تذرعت بكم هائل من الصبر وصد الإغراء لمقاومة ذلك كله فهرعت إلى المدرسة موقنًا بأنه لابد مما ليس منه بد، وبأنه إذا لم يكن ما أريد فإن عليَّ أن أريد ما يكون!

ما إن اجتزت دار البلدية حتى لمحت جمعاً غفيراً من الناس أمام لوحة الإعلانات... تلك التي كانت ـ ولسنتين خلتا ـ مصدراً لما يردنا من أخبار سيئة... المعارك التي خسرناها... التجنيد... أوامر قائد الوحدة العسكرية...

وفكرت: ماذا عساه يكون الآن حدث؟! وعدوت بأقصى سرعة وأثناء ذلك صاح بي الحداد (واشتر) والذي كان يقرأ لوحة الإعلانات يرافقه صبية.

- خفف الوطء يا بني... ستصل إلى مدرستك في متسع من الوقت!

وخلته يهزأ بي... وما إن حاذيت الحديقة الصغيرة حتى كنت قد استنفدت آخر أنفاسي.

في بداية كل يوم دراسي... كانت الجلبة ترتفع حتى تطرق أسماع المارة أسفل الشارع... فتح وإغلاق الأدراج والدروس التي يرددها بصوت واحد مرتفع وأيدينا على آذاننا سعياً وراء فهم أعمق و... مسطرة معلمنا الرهيبة تطرق المنضدة أمامه... على أن الهدوء ساعتها كان مخيماً على تجاويف الزمان والمكان... فواعجبي ويالسوء حظي إذ أني كنت أنوي التسلل إلى منضدتي تحت ستار الفوضى وليس ثمة فوضى!... يومها كان الصمت أشبه بسكون المصلين.

ونظرت عبر النافذة فإذا رفاقي وقد جلس كل منهم في مقعده فيما كان السيد (هامل) يذرع غرفة الدرس ذهاباً وجيئة ومسطرته تحت إبطه... تعيّن يومها عليّ أن أفتح الباب وأن أمر أمام الجميع ولكم أن تتخيّلوا ما احتواني من خجل وما اعتراني من رعب قاتل!

على أن شيئاً لم يحدث... رآني السيد (هامل) فقال برقّة: «اذهب إلى درجك بسرعة أيها الصغير (فرانز) لقد كنا على وشك البدء بدونك»

وقفزت بسرعة إلى مقعدي وساعتها لم أكن قد لاحظت بأن معلمنا كان يرتدي بدلته الخضراء الأنيقة وقميصه المهدّب وقبعته الحريرية السوداء... لم

يكن يرتدي ذلك إلا في المناسبات فما الخطب؟! وزاد في دهشتي وعجبي ما كان يسود المدرسة من صمت وهدوء... على أن استغرابي بلغ أوجه حينما لمحت المقاعد الخلفية وقد امتلأت بالقرويين تغشاهم... كما تغشانا سكينة ووقار... لمحت العجوز (هاوزر) بقبعته الثلاثية الأطراف... ورأيت كذلك عمدة المدينة ومدير البريد السابقين ونفرًا كثيرًا .. ولاحظت بأن العجوز (هاوزر) كان قد وضع كتاب مبادئ التعليم على ركبتيه فيما جعل نظارته الهائلة بين صفحاته وفي خضم تساؤلاتي الحائرة تلك رأيت السيد (هامل) يتجه إلى مقعده وقال بذات النبرة الرقيقة التي خاطبني بها:

ـ سيكون هذا الدرس يا أولادي هو آخر ما سألقنكم إيّاه، فقد صدر الأمر من (برلين) بتدريس الألمانية فقط في مدارس «الألزاس»، «واللورين» سيصل مدرسكم الجديد غداً... أنصتوا إليّ جيداً فهذا هو آخر درس لكم في الفرنسية.

ونزلت كلماته تلك عليّ نزول الصاعقة!

الأوغاد! ذلك إذاً ما التف الناس حوله أمام لوحة الإعلانات، آخر درس لي في الفرنسية! وأنا بالكاد أكتب... سوف لن أتعلم أكثر من ذلك... كم أشعر الآن بوخز الضمير... بالندم على ما أضعته في سالف أيامي من وقت في الجري بحثاً عن أعشاش الطيور، مهدراً تلك الفرصة التي سنحت لي لتعلم الفرنسية. وبدت لي حقيبتي وكتبي الثقيلة المزعجة سابقاً أحباباً ورفاقاً... أما معلمنا السيد (هامل) فقد أنساني قرب فراقه مسطرته الرهيبة وغرابة أطواره.

يا للمسكين... فذلك إذاً ما دعاه إلى ارتداء أجمل ملابسه، وأدركت الآن سبب حضور القرويين... لقد كانوا مثلي يعضون أصابع الندم؛ لأنهم أضاعوا

الكثير سابقاً... لقد جاؤوا تعبيراً عن امتنانهم لذلك الذي خدمهم لما يزيد عن الأربعين سنة بإخلاص لا مثيل له... وعن احترامهم ومحبتهم لهذا الوطن الذي ما عاد لهم وطناً... ولهذه البلاد التي أضحت لغيرهم، جالت تلك الفكر في خيالي... عاصفة ببالي وكلما تكشّفت عن حقيقة ازددت ألماً وندماً ولات ساعة مندم!

وأثناء ذلك أمرت بالقراءة! جاء دوري إذاً... ساعتها تمنيت من كل قلبي أن أقرأ المطلوب بكل طلاقة واقتدار على أن ليس للإنسان إلا ما سعى... وقفت كالأبله ثم تعثرتُ لدى أول كلمة ودقات قلبي كطبول هندية مسعورة ويداي ممسكتان بطرف المنضدة كوتدين... مطرقاً كنت لا تحول أو تزول عيناي ولا أجرؤ على رفع رأسي خجلاً.

وتسللتِ إليّ كلمات السيد «هامل» في رقة وهدوء:

ـ لن أوبخك أيها الصغير «فرانز» فبك ما يكفيك ويغنيك عن اللوم والتأنيب... أرأيت... إننا نقول لأنفسنا كل يوم: لم العجلة؟! هناك متسع من الوقت... سأتعلم غداً... وها قد وقع المحظور ذاك هو عيب (الألزاس) الأكبر «تأجيل تعلّم اليوم إلى الغد».

لقد مكنتم أولئك الدخلاء ـ بذلك ـ أن يقولوا لكم: تدّعون بأنكم فرنسيون إذاً ومع ذلك فإنكم لا تستطيعون القراءة أو الكتابة بلغتكم الأم. لكنك عزيزي (فرانز) لست الأسوأ فنحن جميعاً مقصرون وعلينا أن نلوم أنفسنا أشد اللوم.

إن آباءكم يتحملون قدراً لا بأس به من المسؤولية فقد كانوا يفضّلون أن تنضموا إليهم في الحقول على تلقي العلم... رغبة في اقتناء حفنة من المال... وأنا... نصيبي من اللوم والتقصير لا بأس به كذلك... ألم أرسلكم لسقي

أزهاري في بعض الأحيان بدلاً من تدريسكم... وعندما كنت أرغب في الذهاب لصيد السمك ألم أكن أكتفي بمنحكم إجازة أنطلق بعدها بسنارتي كالفاتح المظفّر؟!

وتحدث السيد (هامل) في أمور كثيرة ثم شرع في امتداح اللغة الفرنسية وإبراز محاسنها مؤكداً بأنها أجمل وأوضح لغات العالم ـ بعد اللغة العربية ـ وأنها الأكثر منطقيّة ولم ينس أن يحثّنا على التمسك بها والحفاظ عليها مبيّنا أن الاستعمار إذا ما حل بشعب فإن تمسك هذا الشعب بلغته يعني امتلاك مفتاح سجنه!

وفتح المعلم (هامل) بعد ذلك كتاب القواعد فتلا الدرس المقرر ودهشت للسرعة التي استوعبت بها شرحه، بدا كل ما قاله لسمعي سهلاً... ميسّراً. لم أتذكر أني قد أصغيت سالفاً بذاك القدر من الاهتمام، ولا شرح هو لنا الدرس بمثل ذلك الصبر... بدا الأمر كما لو أن المسكين أراد أن يسكب في ذواتنا كل ما يعرفه دفعة واحدة.

وتلا القواعد درس في القراءه... كُتبتِ جُمَلُه على أوراق جديدة بخط جميل: (فرنسا ـ الألزاس ـ فرنسا ـ الألزاس). وبدت كما لو كانت أعلاماً صغيرة ترفرف فوق أعمدة أدراجنا... ليتك كنت معنا كي تشهد ذاك الصمت السائد يومها والعمل الدؤوب لم يكن هناك ثمة صوت يسمع سوى نقش الأقلام على الطروس، وولجت الفصل بعض الخنافس عبر النافذة إلا أن أحداً لم يعرها اهتماماً حتى الصغار... كانوا عنها في شغل شاغل، وفي الأعالي تردَّد هديل الحمام خافتاً عذباً فقلت في نفسي:

ـ ترى... هل سيرغمون الحمام أيضاً على الهديل بالألمانيه؟!

وكنت أرفع رأسي بين الوهلة والأخرى فأرى السيد هامل جالساً على كرسيه دون حراك مقلبًا نظره بين أرجاء الفصل وأركانه فكأنما هو يحاول تثبيت كل لقطة في خاطره إلى الأبد!

تخيّل! - قلت في نفسي - لأربعين سنة خلت كان يجلس على الكرسي ذاته أمام الفصل... فيما تتسلل نظراته عبر النافذة بين فينة وأخرى إلى حديقته البهيجة... ما تغير من ذلك شيء سوى امتداد يد البلى نوعاً إلى المقاعد والمناضد... وأشجار الجوز التي سمقت فروعها وتسامت... وأذرع اللبلاب التي تسلقت الجدار ملتفّة حول النوافذ حتى جاوزت السقف... ياللمسكين... كم سيكسر ذلك قلبه... ويحطم كيانه... عندما يغادرنا إلى غير رجعة بعد أن اعتاد على ذلك كله... موجع هو الدهر أحياناً... متقلب لا يقر له قرار أو يدوم على حال!

وشرعت أقرأ ملامح الأسى في تقاطيع وجهه وهو يستمع إلى وقع خطوات أخته في الغرفة العلوية وهي تروح وتجيء في خضم إعدادها لحقائب السفر إذ أنه كان يتحتم عليهم مغادرة القطر في اليوم التالي!

لكن السيد (هامل) كان يتحلى بشجاعة لا مثيل لها مكنته من الاستماع إلى كل درس حتى نهايته.

بعد درس الخط جاءت حصة التأريخ ثم شرع الصغار في ترديد الحروف الهجائيه: (با بي بو) فيما كان العجوز (هاوزر) ينطق الحروف معهم وكتابه مفتوح على ركبتيه... وقد أمسك به بكلتا يديه في شوق ولهفة مودّع! كان هو أيضًا يبكي... بدا ذلك واضحاً عبر تهدج نبرات صوته التي أرعشها الانفعال ... كان مجرد سماع ذلك مضحكاً إلى حد داهمتنا معه الرغبة في

الضحك والبكاء في وقت واحد... أواه كم أتذكر ذلك الدرس الأخير... ذكراه لا تبارح خيالي ولا أخالها تفعل ما حييت.

ودقت ساعة المدينة الكبيرة فجأة متزامنة مع صوت أبواق الجنود البروسيين العائدين لتوهم من ساحة التدريب... ونهض السيد (هامل) من مقعده... بدا شاحباً باهت الملامح... وخيل إلي أني لم أره بهذا الطول من قبل.

ـ أي أصدقائي ـ قال ـ أنا... أنا... على أنه لم يستطع مواصلة الحديث ثمت غصة في حلقه منعته من ذلك، عندها اتجه نحو السبورة وتناول قطعة من الطباشير وضغط عليها بكل ما أوتي من قوة مدوّناً:

ـ عاشت فرنسا.

وما إن انتهى حتى أوى إلى ركن قصي من الفصل وأسند إلى الجدار رأسه... ودون أن ينبس ببنت شفة أشار لنا بيده أن:

ـ بإمكانكم الانصراف!

عمّة هيلاري

للكاتب البريطاني : سبريل هير: Cyril Hare
(١٩٠٠ ـ ١٩٥٨)

ينتمي (هيلاري سميث) إلى عائلة عريقة، ولم يكن والده ليكف أبداً عن ترداد تلك الحقيقة، ورغم أن الشكوك كانت تحوم حول التاريخ الفعلي لعائلتهم المجيدة إلا أن السيد (سميث) كان يتصرّف دوماً بوحي من أخلاقيات الماضي الضاربة في أعماق العصر الڤيكتوري المثالي.

ويشاء الله أن يتعثر «هيلاري» مع أحد المصارف في قضية عدد من الشيكات، وهو أمر لم يخرج في نظر الشاب عن طور العادية على أن الأمر كان في نظر الأب أعظم وقعاً وأشد هولاً بعد إذ أساء إلى سمعة العائلة التليدة برمتها؛ ولذا فقد سارع أبوه ـ درءًا للفضيحة ـ إلى إرساله إلى (أستراليا)، وهي في حقيقة الأمر بلد ما راقت له أو راق لها... كان الشعور بذاك النفور متبادلاً، وهذا ما حدا بالمسكين إلى انتهاز أقرب فرصة ممكنة للعودة إلى إنجلترا، ولما لم يكن لديه من المال ما يكفي لشراء تذكرة العودة فقد اضطر إلى الانتظار إلى حين وفاة والده وأخيه، ساعفه الحظ بانتقالهما إلى الدار الآخرة سويّاً فانتقلت ثروة العائلة برمتها إليه تبعاً... ولم تكن ثروة كبيرة في واقع الأمر، كما وأنه سارع في تبديدها مما أوقعه بين خيارين لا ثالث لهما... العمل أو الموت، وكان مجرد تفكيره في كليهما مدعاة للبؤس والقنوط... على أنه تذكر أنه لم يكن وحيداً في هذا العالم... بقيت له عمة لم يكن يعرف عنها

الكثير، وكان أبوه السبب وراء جهله العميق ذاك، إذ إنه كان يتحاشى الحديث عنها، بل إن مجرد ذكر اسم المسكينة كان كفيلاً بتجميع سحب الكآبة على محياه... ما كان ليطيق سماع اسمها!

ـ لم تجلب عمتك (ماري) أي شرف لاسم العائلة ـ كثيراً ما كان الأب يردد وإن كان الابن يجهل في الحقيقة ما اقترفته يداها من جرم استحقّت معه النفي من ربوع العائلة العريقة! على أنه وبعد شيء من التحري الدقيق توصل إلى حقيقة مؤداها أنها أجرمت بزواجها من صاحب متجر، وهو عار توصم به من اقترفته... آنذاك!

ـ كان عليها أن تتزوج نبيلاً فتشرف اسم العائلة بدلاً من زواجها من تاجر... إنها لم تعد على قيد الحياة في نظري.

كان هذا هو رأي أخيها الذي فارق هذه الدنيا غير راض عنها.

بعد فترة من الزمن توفي زوجها مخلفاً لها ثروة طائلة على أن ذلك لم يعدها في نظر أخيها ـ قبل وفاته ـ إلى الحياة.

واستدل (هيلاري) على عنوان عمته تلك عبر محامي العائلة، ولم تتنكر له لحسن حظه، فعلت أسهمه ثانية وابتسم له الحظ مجدداً بعد إذ راق لها ولقي هوى في نفسها... وكان عذب الحديث... حلو المعشر فأحبته أكثر، وطلبت منه أن ينتقل فيسكن معها ودانت له السعادة... فعبّ من معينها حتى ارتوى... أحس كما لو كان بحاراً خاض عباب بحار هادرة مزمجرة، ثم إذا به يرى المرفأ فجأة بعد إذ تقطعت به الأسباب. عندما عرضت عمته عليه الانتقال للسكنى معها ما كان في جيبه أكثر من ستة بنسات. على أنه بدا واضحاً أن عمته كانت جدّ عليلة... كانت تتصرف بشجاعة في الوقت الذي كانت تموت ببطء...

وتحدث إلى طبيبها فما زاد على أن حذره من خطورة وضعها الصحي! قال له بأنه لا علاج لها قد تعيش حيناً يسيراً من الدهر على أن نهايتها ـ بإذن الله ـ محتومة... ستصل إلى سن تتمنى فيها ـ كما سيتمنى كل ذي قلب رحيم أن تستريح... ذاك هو ديدن الحياة... وأظلمت الدنيا في عيني (هيلاري) بعد إذ أدرك أن الشقاء قد شيد له بين أرجائه منزلاً قوي الأركان، لقد سعد بالنعيم برهة وها هي الأقدار تقصيه عن ذاك المرفأ الذي وجد فيه السكينة والطمأنينة.

وأرتأى أنه لم يكن لديه غير خيار واحد... اختار ساعة كانت عمته فيها أحسن حالاً من ذي قبل، ثم تجرّأ فسألها عن تفاصيل وصيتها فما كان منها ـ فور سماعها لفظ وصية ـ إلا أن أطلقت ضحكةً مجلجلة شقت أجواء السكون ـ.

ـ تسألني إن كنت قد كتبت وصيتي؟

ـ بالطبع فعلت! لقد تركت كل ثروتي ل... دعنا نر لمن تركتها ـ أوصيت بدفع كل ما أملك إلى إحدى الطوائف الدينية في الصين حسبما أظن... أو في (بولينيزيا) لا أذكر ذلك على وجه الدقة لكن المحامي لا شك سيكون أقدر مني على ذكر التفاصيل، إذ إن الوصية بحوزته ـ لقد كانت ميولي ذات نزعة دينية منذ كنت فتاةً يا (هيلاري) .

ـ وهل كتبت وصيتك هذه عندما كنت فتاة صغيرة؟ سألها (هيلاري) .

ـ أجل كنت يومها في الحادية والعشرين من عمري بعد أن طلب جدك مني ذلك، كان على يقين أن على الجميع القيام بذلك... يومها لم أكن أملك مالاً؛ ولذا فإن وصيتي لم تكن ذات قيمة.

عندما صافحت مسامع (هيلاري) التفاصيل الأولى لذلك كان مترعاً أسى وحسرة أما وقد أصغى لبقية حديث عمته فقد لمعت بالسعادة عيناه.

ـ ألم تكتبي بعد زواجك وصية أخرى عمتي؟ سألها مجدداً.

وهزت العمة رأسها نفياً.

ـ كلا لم تكن ثمة حاجة لذلك ـ لم أكن أملك شروى نقير فيما كان (جون) ـ زوجي أقصد ـ يمتلك كل شيء، ثم توفي (جون) فاجتمعت لدي ثروة ولا أقارب، لدي ما عساي أفعل بذلك المبلغ؟

وسلّطتْ فجأة على (هيلاري) عينين ثابتتين لا تتحركان عنه قيد أنملة قبل أن تقول:

ـ ربما كان علي أن أتحدث إلى المحامي في ذلك ثانية!

وأكّد (هيلاري) لها أنْ لا داعي للاستعجال ثم غيّر الموضوع برمّته.

اتجه في اليوم التالي إلى إحدى المكتبات العامة ثم عاين كتاباً بعينه فتأكد من صحة معلوماته... عندما تتزوج المرأة فإن وصيتها السابقة تصبح لاغية ويتحتم عليها عندها أن تكتب وصية أخرى، فإن لم تفعل أصبحت تركتها من حق أقرب عائلتها... وكان (هيلاري) يدرك أنه قريبها ووريثها الوحيد تبعاً لذلك فخالجته طمأنينة بعد إذ استشعر ضمان مستقبله.

بعد عدة أشهر تأزمت أحواله المادية... وتأكد من صحة ما أخبره الطبيب بخصوص تدهور حالة عمته... كانت تلوذ بسريرها فلا تفارقه، وبدا واضحاً جلياً أنها قد لا تنهض منه أبداً ـ إن أراد الله ـ في الوقت الذي ازدادت حاجته إلى المال... كانت أذواقه تتطلب الكثير وإلى كثير من أصحاب الحوانيت، كان

مديناً ـ كذلك ـ بالكثير... كانوا يثقون به؛ لأن عمته كانت ثريّة على أن فواتيره كانت... باهظة.

وساءت ـ لسوء حظه صحة عمته كثيراً حتى ما عاد باستطاعته أن يتحدث بسهولة إليها... وأخبرته بعدم رغبتها ـ على الإطلاق ـ في الخوض في المسائل المالية، كانت تعاني بشدة حتى جافاها لذيذ الكرى؛ ولذا فقد كانت تستشيط غضباً إما جرى للمال ذِكْرٌ، وجرت أخيراً بينهما خناقة على مبلغ زهيد لم يتعدّ العشرة جنيهات اتهمته خلالها بمحاولة الاستيلاء على ثروتها!

ولم يغضب (هيلاري) كان يعرف أنها... مريضة مسنة وذاك كان سبب تصرفها بغرابة... وشرع يستعيد ما قاله الطبيب فسأل نفسه: أمن الشفقة أن ندعها تتعذب هكذا؟ أليس من الأفضل لها أن تخلد إلى راحة طويلة... طويلة وفكّر في ذلك ثم قرّر وعندما استلقى على سريره... كان لا يزال في ذلك يفكّر!

في صبيحة اليوم التالي فاجأته عمته بخبر غير عادي... ستستدعي المحامي السيد (بلنكنسب)! لسوف تكتب وصية جديدة. وشرع الشك يقرض أطرافه ثانية... قد لا تكون الوصية الجديدة في صالحه فتؤول الثروة برمتها إلى غيره... فماذا عساه يفعل؟ وتوصل إلى قرار واضح حازم مؤداه ضرورة إخلاد العمة المسكينة إلى راحة طويلة.

كانت تأخذ كل ليله دواء منوّمًا فقرر (هيلاري) ... مضاعفة الجرعة... ولم يخبرها بذلك... قرر فقط أن تنام قريرة العين إلى ما شاء الله، ولم يجد في مهمته تلك أدنى صعوبة بل إن عمته قد ساعدته في تنفيذ ذلك بعد أن طلبت من الممرضة المكلفة بإعداد الدواء المنوم أن تضعه وتذهب لأداء ما تبقى

عليها من واجبات ليقوم (هيلاري) بتقديم الدواء لعمته في الوقت المحدد... ما أسهل الأمر ـ كذا قال في نفسه ـ عليّ أن أضاعف الكمية فقط، فإن حدث ما ليس في الحسبان فهناك عذر مناسب ـ سأدّعي أني لم أعلم بوجود جرعة مسبّقة أصلاً ـ وعمد إلى تنفيذ ذلك... كانت جرعة زائدة طبعاً على أن أحداً لم يكن ليشكّ في العزيز (هيلاري) .

وتناولت العمة الكأس منه ونظرات الامتنان تلمع في عينيها:

ـ شكراً (هيلاري) ـ قالت ـ أريد أن أنام نوماً عميقاً هانئاً لا أصحو منه ـ تلك هي أقصى أمانيّ. ونظرت إليه فلم تحد ببصرها عنه أهذا ما تتمناه أنت أيضاً (هيلاري) لقد منحتك الفرصة سامحني إن أنا أسأت بك الظنّ... المرض يولد أكثر من هذا الظنون والأفكار كما تعلم. إن بقيت على قيد الحياة إلى يوم غد فسيكون ذلك في صالحك إذ إني قد طلبت من المحامي موافاتي كي أكتب وصية أترك لك فيها التمتع بكل ما أملك، أما إن وافتني المنية ـ بمشيئة الله ـ هذه الليلة فلن تحصل على شيء وستذهب ثروتي بكاملها إلى تلك الطائفة الصينية... إذ إن زواجي من جون (برويترو) لم يحصل، وهذا ما أغضب أباك الأحمق... حين التقيت بـ (جون) كان رجلاً متزوجاً؛ ولذا استحال زواجنا... كلاّ (هيلاري) دع الكأس إن فعلت فسوف أكتشف الحقيقة... حقيقة صدقك من عدمه وأنا في الواقع لا أريد أن أعرف!

قالت العمة ذلك ثم تناولت الكأس في هدوء الناسك ووضعتها على شفتيها وشرعت تشرب شيئاً فشيئاً!

توني كايتس... المخادع الكبير

للكاتب البريطاني : توماس هاردي؛ Thomas Hardy
(١٨٤٠ ـ ١٩٢٨)

لن أنسى ما حييت وجه (توني)، كان صغيراً مستديراً مشدوداً... أمرداً تماماً، ثمة علامة أو اثنتان تتخللانه نتيجة مرض أصابه إبان طفولته، على أن ذلك ما كان ليفسد وسامته في أعين النساء، وكان يبدو جاداً لا تعرف الابتسامة إلى فمه طريقاً... ذاك الشاب... إلى حد بدا معه كما لو أنه لم يكن في مقدوره أن يبتسم دون أن يؤذي ضميره. واعتاد أن يشدو بأغنيات مضحكة بطريقة رزينة تثير الدهشة؛ ولذا فلا عجب أن حاز على إعجاب الكثيرات! إلا أنه على مدار الأيام قصر محبته واهتمامه على واحدة بعينها... (ميلي ريتشاردز) لطيفة رقيقة الهيئة كانت... وسرعان ما شاع أنهما سيشهران خطبتهما.

وظهيرة أحد أيام السبت كان يستقل عربته عائداً من السوق، وأسفل التل أبصر شخصًا ينتظره أعلاه. كانت (يونيتي سالي) تلك الجميلة التي عرفها قبل أن تلج (ميلي) حياته فيخطبها!

ما إن حاذاها حتى بادرته:

أي عزيزي (توني) هلا أوصلتني في طريقك إلى المنزل؟

وابتسمت ـ قبل أن تسمع ردّاً ـ ثم قفزت بخفة إلى جواره ـ بالطبع ـ أجاب ـ ذاك سيكون من دواعي سروري، لا أظنك تحسبين أني قد أرفض لك طلباً.

وابتسمت والعربة تنطلق بهما قبل أن تباغته بالسؤال:

ـ (توني)! لماذا تركتني من أجلها؟... كنت ـ بزواجك مني ـ ستكسب زوجة أفضل وأكثر محبة لك... فكر كم من الوقت أمضينا سويّاً مذ كنا صغاراً في مدارج الطفولة نحبو أرأيت مني مذ ذاك ما تكره؟

ـ مطلقاً! رد (توني) بعد أن ارتطم بسياج الحديقة.

ـ وهل تستطيع أن تقول أني لست بارعة الجمال «توني»؟ تأملني!

وتأملها مليًا... أبحرت عيناه في محيط مقلتيها البعيد العميق!

ـ أبداً... بل إني لم أكن لألحظ كل هذا الجمال قبلاً!

ـ أجمل منها؟ سألته بمكر.

ولم تتحدّد طبيعة إجابته إذ إنه وقبل أن ينبس ببنت شفة أبصر في إحدى زوايا السور البعيد ريشة يعرف صاحبتها تمام المعرفة كانت ريشة قبعة خطيبته (ميلي).

ـ «يونيتي» ـ قال وجلاً ـ (ميلي) قادمة وإن لمحتك فقد يحدث ما لا تحمد عقباه ـ هلا اختبأت في مؤخرة العربة وسوف أغطيّك ببعض الأكياس حتى نتجاوز (ميلي) فنعبر منطقة الخطر! افعلى ذلك يا أعز من لي، ومن يدري فقد أطرح عليك أنت ذلك السؤال المصيري بدلاً من (ميلي)! ليس صحيحاً أننا قد اتفقنا على كل شيء!

ووافقت (يونيتي) على الفور، اختبأت تحت كومة من الأكياس فيما واصل (توني) سيره.

ـ أي عزيزي (توني) ـ صاحت (ميلي) وهو يدنو منها ـ لكم طال غيابك، ظللت أنتظرك أمداً طويلاً كيما نعود سويّاً فنناقش مستقبلنا وبيت الزوجية لقد طلبت مني أن أوافيك هنا هل نسيت سيد (توني)؟ بمرح قالت:

ـ نعم عزيزتي قد طلبت منك ذلك ويبدو أني قد نسيت الأمر برمته! أقلك «لتركبي معي» يا عزيزتي؟

ـ طبعاً لا أظنك تريد أن أعود مشياً على الأقدام بعد أن قطعت تلك المسافة كلها.

ـ أوه كلا... كلا ـ ظننتك ستذهبين إلى البلدة لمقابلة والدتك... لقد رأيتها هناك وبدت وكأنها تنتظر مقدمك!

ـ كلا.. لقد عادت إلى المنزل للتوّ... لقد اختارت الطريق الذي يخترق الحقول وعادت قبل مجيئك.

ـ آه لم أكن أعلم ذلك ـ قال توني ـ كان لزاماً عليه إذًا أن يُركبها إلى جواره ما من ذلك بدّ! قال لنفسه!.

وتحدثا بسعادة وانشراح، وألقيا على الأشجار والأطيار والفلاحين في الحقول نظرات جذلى إلى أن بصُرا بشخص يطل من النافذة العليا لأحد الأكواخ أمامهما. كانت (حنّة جوليفر) أول شابة وقع (توني) في غرامها قبل (ميلي) و (يونيتي)... بل إنه في حقيقة الأمر كان قد خطط للزواج منها يوماً،

بيد أن رحى الأيام دارت فابتلعتهما فيما ابتلعت... ـ هي مثيرة أكثر من (ميلي ريتشاردز) ـ قال في نفسه وهو يمد إليها بصره ـ هي في بيت عمتها الآن!

ـ أي عزيزتي (ميلي) يا زوجة المستقبل إن جاز لي أن أناديك بذلك ـ قال (توني) في رقة وخضوع... في صوت هو إلى الهمس أقرب مخافة أن تسمعه (يونيتي) ـ وتابع ـ أرى شابة تنظر إلينا من تلك النافذة أمامنا وقد جال بخاطرها أنني كنت أزمع الزواج منها يا (ميلي)؛ ولأنها قد اكتشفت بأني مرتبط الآن بفتاة أجمل فإني أخشى مغبة ما يحدث إن رأتنا سويّاً!

ـ قال مذعوراً بخبث ـ هلا أسديت إليّ خدمة يا عزيزتي؟!

ـ بالطبع (توني) أيا أعز من لي! ردت ببراءة.

ـ هلا تسللت خلف تلك الأكياس الفارغة في مقدمة العربة واختبأت حتى نتجاوز مرحلة الخطر ـ إنها لم ترنا وخير لنا أن نتجنب ما من شأنه إثارة الأحقاد والضغائن فالعيد على الأبواب.

ـ لا مانع لدي البتة إن كان ذلك سيدخل السرور والراحة إلى قلبك.

قالت (ميلي) ورغم أنها لم تكترث لذلك فقد انصاعت للأمر. وواصل (توني) انطلاقه حتى أصبح بمحاذاة الكوخ.

كانت (حنة) قد لمحته عبر النافذة:

ـ حسناً ألن تتحلى بشيء من الأدب فتسألني أن أعود إلى بيتي معك؟

سألته (حنّة) بعد أن شعرت أنه يوشك أن يتجاوزها مكتفياً بابتسامة وهزة رأس !

ـ أوه بالطبع ـ كنت سادراً في أحد أحلام اليقظة فمعذرةً ـ رد (توني) وتابع ـ يبدو أنك تنوين البقاء في بيت عمتك!

وجاءه ردها الغاضب:

ـ كلاّ... ألم تلاحظ أنني أرتدي قبعتي ومعطفي ـ عرجت على عمتي في طريقي إلى المنزل، يالك من غبيّ يا (توني)!

ـ في هذه الحالة إذاً... آ... يتعين أن تركبي معي طبعاً!. قال (توني) وعرق غزير يتدفق عبر مسامه طرّاً!

بعد دقيقة كانت تركب بجواره وعيناها مشدودتان إلى ناظريه.

ـ هذا بديع يا (توني) أليس كذلك؟ كم أحب مرافقتك!

وحدق (توني) في عينيها وكلما أبحر في مقلتيها انجذب إليها أكثر لم يكن سحرها ليُقاوَم... وتساءل عما دفعه إلى التطرق إلى مسألة الزواج من (ميلى) و (يونيتي)... وانطلقت العربة بهما في البر رخاء فدنا منها ودنت منه أكثر فأكثر حتى رق حديثه إليها وشفّ.

ـ لقد اتفقت و (ميلي) إذاً على كل شيء... على ما أظن ـ سألته.

ـ ك... كلا... ليس تماماً.

ـ ماذا قلت؟... حديثك هامس... بالكاد أسمع صوتك (توني)!

ـ أجل حلقي ملتهب قليلاً... قلت «ليس تماماً»!

ـ أظنك تزمع الزواج منها؟

ـ حسناً... أنا ـ واستقرت نظراته على محياها فأدرك كم كان أحمق حينما أخرجها من حياته.

ـ أيا حلوتي (حنة) ـ انفجر قائلاً ـ ثم أمسك بيدها وغلالة رقيقة من وجد دفين تحجب عن ناظريه العالم والناس (وميلي) و (يونيتي) وأجاب كالوسنان:

ـ رتّبتُ الأمر؟ لا أعتقد أني فعلت ذلك!

ـ اصغ! ـ قالت (حنّة) ـ لقد سمعت صرخة قصيرة حادة تنبعث من طيات تلك الأكياس... أنت قد حمّلت العربة ذُرةً فلا ريب أن مصدر الصوت كان بعض الفئران ـ أنا واثقة من ذلك ـ قالت (حنة) ذلك قبل أن تسارع مذعورة إلى رفع أطراف (تنّورتها)!

ـ كلا... قال توني ـ ذاك كان صوت العجلات دون شك ـ إنها تصدر ذلك الصوت حينما يكون الجوّ جافّاً!

ـ ربما ـ قالت (حنّة) كن صريحاً معي يا (توني) أتحبها أكثر مني، ولتعلم أنه رغم انقطاع ما كان بيننا فلازلت أكنُّ لك سيلاً من مشاعر الودّ، ولن أقول لا إن سألتني أن ... تعرف ما أرمي إليه!

وبدا (توني) كالمسحور بمعسول كلامها، فما زاد على أن نظر خلفه لوهلة قبل أن يهمس لها برقة متناهية:

ـ لم أطلب منها أن تتزوجني بعد، وأعتقد أني سأحيل هذا الطلب إليك!

ـ تعني أنك ستفسخ خطوبتك من (ميلي) فقط كي تتزوجني؟ ما أروع ذلك ـ صرخت (حنة) بانفعال واضح بعد أن أنهضها الفرح من مقامها وسمعت عند

ذلك صرخة قصيرة حادة غاضبة وندت عن الأكياس حركة مفاجئة ـ هناك شيء ما ـ قالت (حنة) بعد أن قفزت ذعراً!

وطمأنها (توني) ثانيةً مؤكداً لها أن مصدر الصوت كان بعض الأرانب التي اصطادها ووضعها في أحد الأكياس، وأنه ما أخفاها إلا لأنه اصطادها بطريقة غير قانونية من مزرعة أحدهم ـ لن تخرج الأرانب. أنت بأمان!

قال لها مطمئناً ـ وتابع: ياله من يوم جميل يا (حنة) هل ستذهبين إلى السوق السبت القادم ثم... خبريني كيف حال عمتك؟ أغرقها بسيل الأسئلة تلك كي لا تمضي في حديثها العاطفي فتثير غضب (ميلي) إن هي سمعتها.

على أن ذلك كان أمراً شاقاً فما كان منه إلا أن تذرع بالصبر محاولاً الخروج من ورطته تلك، وما إن دنا من منزله حتى رأى في الحقل والده رافعاً يده في وضعية من يرغب في التحدث إليه:

ـ هلا أمسكت بلجام الفرس دقيقة (حنّة) ـ سألها بارتياح بالغ، وتابع: كيما أرى ما يريد أبي؟!

ووافقت فأسرع لملاقاة أبيه في الحقل ونظر الأخير إليه شزراً:

ـ تعال يا (توني) واصغ إلى... لن يجدي ما تفعله نفعاً... إن كنت تنوي الزواج من (ميلي ريتشاردز) فبادر من فورك إلى ذلك. على أنه لا ينبغي أن تجوب البلدة مع ابنة (جوليفر) مثيراً القيل والقال! لن أسمح بذلك!.

ـ إنما طلبت منها... أقصد أنها طلبت مني أن آخذها إلى بيتها!

ـ حقّاً؟ فهو إذاً عذر أقبح من ذنب... لو أنها كانت (ميلي) لهان الأمر، أما أن تجوب بها أرجاء البلدة فذلك ما لا يقبل به عرف أو خُلُق.

ـ لكن (ميلي) هناك أيضاً يا أبي! قال ببراءة ساذجة!

ـ (ميلي)؟ أين؟

ـ إنها تحت أكياس الذرة ـ و(يونيتي سالي)، كذلك... أنها تجثم في الناحية الأخرى من العربة... جميعهن داخل العربة والله وحده يعلم ما ألاقي جرّاء ذلك من عنت... أيهن ستتزوج لو كنت مكاني يا أبي؟

ـ كنت سأتزوج من لم تطلب مني أن أوصلها إلى البيت!

ـ تلك كانت (ميلي) أقر بذلك إعطاءً لكل ذي حق حقه، فقد كنت من طلب منها أن ترافقني.

ـ فتمسك بها إذاً فهي خيرهن ـ قال أبوه بكل حكمة السنين ـ قبل أن يشير إلى العربة فجأة فيهتف: ـ لقد فقدتِ (حنّة) السيطرة على الحصان ما كان ينبغي أن توكل إليها ذلك! انطلق من فورك فأمْسِكْ برأسه قبل أن يقع حادث مّا!.

وكان الحصان قد شرع في الانطلاق لتوه فعدا صوبه وهو لا يزال يفكّر في (ميلي) لقد كانت توصية أبيه فيما يختص بالحفاظ على (ميلي) هي أشد ما رغّبه عنها... كلا لن يقترن بـ (ميلي) ولأنه لن يتمكن من الزواج بهن جميعاً فإن (حنّة) هي الأثيرة لديه ـ حدثته روحه وحديث الروح ذو شجون أحياناً.

على أن أحداثاً وفصولاً كانت تتمسرح على خشبة العربة.

كانت (ميلي) مبعث الصرخات القصيرة الغاضبة احتجاجاً على ما كان (توني) يتفوّه ل (حنة) به في حضرتها ولم يكن بمقدورها أن تخرج على الملأ مخافة أن تثير ضحكهم وسخريتهم ـ وأثناء تحركها لمحت قدم امرأة أخرى

بجوارها، فكاد قلبها ينخلع خوفاً إذ إنها لم تكن تعرف أن (يونيتي) كانت على متن العربة كذلك، فآثرت أن تبتلع تلك المشاعر قاطبة... أما وقد زايلها ما استشعرت من رعب فقد أصرت على معرفة هوية تلك الأخرى وتسللت تحت الأكياس كالأفعى حتى التقتِ بها وجهاً لوجه:

ـ هذا مشين! قالت (ميلي) في همس غاضب (ليونيتي)!

ـ هو كذلك ـ ردت (يونيتي) ـ أن تتسللي فتختبئي في عربة شاب على هذا النحو ـ أنت وسمعتك المتردّية!

ـ انتبهي لما تقولين ـ أجابت (ميلي) أنا مخطوبة له ولي مطلق الحق في التواجد هنا ـ فما الذي يخوّل لك أنت الظهور هنا؟ أرغب في معرفة ذلك بم وعدك؟ بُترّهاتٍ وخزعبلات! لا يهمني ما يحدّث (توني) به غيري!

ـ لا أنصحك بامتشاق مهنّد الثقة المطلقة يا فتاة ـ ردت (يونيتي) بحنق سيتزوج (حنّة)... لا أنت اختار ولا أنا! تأكدت بأذنيّ من ذلك وصدمت (حنّة) لما أن تطرقت إلى مسامعها تلك الجلبة المتصلة الملتحفة بالأكياس وفي تلك اللحظة تماماً جفل الحصان وانطلق يعدو فتخلّت عن محاولة السيطرة عليه والصخب السفلي يعلو وينخفض وعند نهاية الطريق حيث ينحني بشدة انعطفت العربة بسرعة فاختل توازنها وسقطت عجلاتها الأمامية قبل أن تنقلب على أحد جانبيها فتدحرجت كومة الفتيات تباعاً ليسقطن على الأرض والتفت الحصان إليهن في دهشة موشكاً أن يخرج لسانه، ثم جثم في مكانه لا يتحرك قيد أنملة!

حينما وصل (توني) إليهن مترعاً بالرعب... منقطع النَفَسِ... أطلق تنهيدة ارتياح لما اكتشف أن أيّاً منهن ما أصيبت بمكروه عدا بعض الخدوش

والكدمات الخفيفة هنا وهناك، على أنه انزعج كثيراً لما سمعه من شتائم متبادلة بينهن:

ـ هلا توقفتنّ عن الشجار لطفاً! قال بهدوء أضاف عليه الإعجاب كثيراً من الدعة ورقة الإحساس... ثم رفع في احترام قبعته لهنّ. على أنهن ما ألقين له بالاً واستمرت المعركة الحاسمة بينهن حتى أوقفهن الإنهاك فأمسكن مكرهات.

ـ سأتحدث معكن الآن بصراحة!

ـ قال (توني) بعد هدوء العاصفة واتضاح صوته ـ لقد طلبت من (حنّة) أن تتزوّجني ولقد وافقت. سنتزوج في...

ولم يفطن (توني) إلى وجود والد (حنّة) خلفه، كما لم يفطن إلى قطرات الدم التي شرعت تنساب من وجهها بفعل الأشواك الحادة التي سقطت عليها، على أنها لمحت أباها فأسرعت إليه وهي تبكي بمرارة!

ـ لا تنوي ابنتي الاقتران بك سيدي! قال السيد (جوليڤر) بحدة!

أجيبي (حنة)! اخبريه أن الزواج منه لن يشرفك إن كنت لا تزالين طاهرة عفيفة وشجاعة!

ـ هي كذلك وهن أيضاً ـ رد توني بغضب مماثل ـ وإن كان ذلك يبدو غريباً أقسم لك!

ـ لا زلت أتحلي بكثير من الشجاعة ـ قالت (حنّة) وأنا أرفض الزواج منه! أجابت بعد أن تنازعتها عوامل شتى، منها وجود أبيها كيف كان يحدثني بكل تلك الرقة إنني أستمع إلى مخادع مزيّف!

ـ ماذا؟ لن تتزوجيني؟ سألها (توني) وفكه السفلي يتدلى كفك جثّة هامدة.

ـ أبداً!... أفضل أن أعيش بلا زواج على الاقتران بك! ردت بعناد ولو أنها كانت ـ في واقع الأمر ـ قد دفعت نفسها إلى قول ذلك دفعاً!

إذ إنها لم تكن لتمانع لو أن الموقف كان غير الموقف... لو أن والدها لم يكن هناك ولم يكن وجهها مثخناً بالجراح... ومضت تاركة إياه على أمل أن يتقدم طالباً يدها ثانية في مستقبل الأيام.

وأسقط في يد (توني) ثانية فلم يدر ما هو قائل. كانت (ميلي) ما تزال تبكي بمرارة... و ... والده كان قد أوصى بها، فعلى بركة الله ـ قال لنفسه ـ والتفت إلى (ميلي) فقال: ـ هلا قبلت عزيزتي (ميلي) بي زوجاً؟

وفي كبرياء أجابت:

ـ وهل أقبل من رفضته (حنّة) كلا لست من يفعل ذلك!

ومضت (يونيتي سالي) كذلك تاركة أياهما رغم أنها كانت بين الفينة والأخرى تنظر خلفها عسى أن يكون قد لحق بها.

وخلا المكان إلا منه و(ميلي) وكانت الأخيرة تبكي بدمع عزير، فيما بدا (توني) كشجرة نزلت عليها صاعقة من السماء.

ـ حسنًا (ميلي) يبدو أن القدر أراد أن يجمعنا بعد كل ذلك ـ وإن لم يكن ما نريد فلنرد ما يكون.

ـ نعم (توني) ـ أجابت ـ وأنا واثقة أنك لم تكن تقصد ما قلت لهما؟

ـ على الإطلاق! رد (توني في هدوء الناسك).

وقام من فوره فأصلح عجلات العربة قبل أن تنطلق في جذل بهما.

وأتما مراسيم زفافهما الذي لم يتسنّ لي حضوره على أن المنطقة كلها قد تحدثتَ عن فخامته وحسن تنظيمه لاحقاً.

أبو الهول ... الذي لم تكن له أسرار

للكاتب البريطاني : أوسكار وايلد : Oscar Wilde
(١٨٥٤ ـ ١٩٠٠)

اتخذت لي مقعداً ـ ذات ظهيرة ـ أمام مقهى (دي لاپيه)، وشرعت أتأمل روعة وبساطة الحياة الباريسية أمامي وأنا أحتسي كأس العصير على مهل والعجب يأخذ مني كل مأخذ لما أراه من مفارقات تتبدى أمام ناظريّ... آلام وآمال... وفقر وفخر، وعزة نفس تجرجر أسمال الماضي... وسمعت فجأة أحدهم يهتف باسمي!

والتفت فرأيت زميل الكلية اللورد (مورتشيسون) وهو الذي لم ألتق به منذ غادرنا مقاعدها منذ ما يقارب العشر سنوات... عقد من الزمان مرّ! ولذا فقد سرّتني رؤيته وتصافحنا بحرارة ولهفة. في (أكسفورد) كانت صداقة حميمة تربطنا... وكنت أحبه كثيراً، فقد كان أنيقاً... وسيماً... ذا روح معنوية عالية... وجديراً بالاحترام والتقدير، وكنا كثيراً ما نقول بأنه لولا شغفه بقول الحق... لكان الأفضل قاطبة! على أن قدراً كبيراً من محبتنا له كان مصدره في واقع الأمر صراحته المتناهية.

ولمحت فيه تغيّراً ملحوظاً... بدا قلقاً محتاراً... أرّقه الشك حول قضية مجهولة. وحدست بأن الدافع ما كان شكوكاً دينيّة أو سياسية إذ إنه كان قوي الشكيمة واثقاً من نفسه معتدّاً بذاته. وخلصت إلى أن امرأة قد تكون وراء ذلك كله فسألته عما إذا كان متزوّجاً.

ـ لا أفهم النساء بما فيه الكفاية! قال بصراحته المعهودة.

ـ أي عزيزي (جيرالد)! قلت له ـ جُعِلت النساء لنعشقهن لا لنفهمهن!

ـ لا أستطيع أن أهوى امرأة لا أثق بها ـ أجاب.

ـ أعتقد بأن هناك لغزاً غامضاً في حياتك جيرالد ـ قلت ـ إليّ به!

ـ فلنذهب في جولة بالسيارة ـ الزحام شديد هنا ـ كلا ليست تلك العربة الصفراء... أي لون آخر... حسناً تلك الخضراء.

خلال دقائق كانت سيارة الأجرة تمخر بنا عباب الشوارع والأزقة باتجاه (مادلين).

ـ أين نذهب؟

ـ إلى أي مكان يروق لك ـ فلنذهب إلى أحد المطاعم، وهناك تحدثني عن نفسك.

ـ لكني أريد أن تحكي لي أنت أولاً كل شيء ـ قلت ـ وتفكّ طلاسم حياتك!

وأخرج من جيبه علبة مغربيّة صغيرة طليت بالفضّة، ثم دفع بها إليّ ففتحتها ـ داخلها... كانت صورة امرأة طويلة نحيلة وبدت غريبة بعض الشيء بعينيها الواسعتين الغامضتين وشعرها المنسدل بعفوية على كتفيها كقارئة بخت، ولاحظت أنها ترتدي قطعة من الفرو الثمين!

ـ ما رأيك بهذا المحيّا؟ أهو جدير بالثقة؟

وتمعّنت فيه فبدا كما لو كان وراءه سر كبير غامض! أكان سرّاً يحمل الخير أو الشر في طياته... ذلك ما لم أحزره، كان جمالها مزيجاً من أسرار

عدة... جمال معنوي لا شكلي، وتلك الابتسامة الواهنة تنزلق بين شفتيها... كانت تحمل المزيد من الغموض والأحجيات... هدوؤها كان ـ في واقع الأمر ـ يتعدى حدود العذوبة!

ـ حسناً ـ صاح في نفاد صبر ـ فماذا تقول؟!

ـ إنها « الموناليزا» في ثياب الحداد! قلت ـ أخبرني بكلّ ما تعرفه عنها!

ـ أحدثك بذلك بعد العشاء! وشرع يخوض في أمور أخرى.

عندما أحضرتِ لنا القهوة ذكّرت رفيقي بوعده. وهب من مقعده فذرع الغرفة جيئة وذهابًا ثم عاد إلى كرسيه وقص عليّ ما يلي:

ـ كنت أسير ذات مساء أسفل شارع (بوند) وكان ذلك في الخامسة مساءً كان الطريق مزدحماً إلى حدّ توقفت السيارات معه عن الحركة... وإلى غير بعيد من الرصيف لمحت سيارة خاصة شدّت انتباهي، وأثناء مروري بها أطل من نافذتها ذاك الوجه الذي رأيته في الصورة قبل قليل...، وسحرني ذاك المحيا على الفور...، ظل ذلك الوجه في خيالي طيلة تلك الليلة ونهار الغد لا يبرح فكري، وظللت أذرع ذلك الشارع... أتفرس في وجوه الركاب وأبحث عن تلك السيارة دون جدوى حتى وصلت إلى خاطرة مؤداها أن ما رأيته كان وهماً... حلماً جميلاً... أو طيفاً عابراً.

بعد أسبوع كنت على موعد عشاء في الساعة الثامنة... ولم يَقدم حتى بعد أن جاوزت الساعة الثامنة والنصف... حين أعلن الخادم عن وصول السيدة (ألوري). وكانت تلك التي رأيتها يومذاك، وخطرتِ في رداء رمادي في خطوات هادئة وجلة، فكأنما استحالت شعاعاً انسلّ من ذوءابات القمر، شد ما

غزت السعادة قلبي حين علمت بأنها ستشاركني العشاء، وبعد أن اتخذنا مقعدينا أعلنت لها ـ بمنتهى الصراحة ـ بأني قد رأيتها في تلك السيارة، فتضرّج خداها وشحب لونها فجأة... أما أنا فقد دهمني انزعاج لا يوصف جراء ذلك، فرحت أخوض في مجال الدراما الفرنسية بعد إذ اتسع الخرق على الراقع.

كان حديثها همساً... ولم تستطرد أبداً... جمل قصيرة كقطع موسيقية... كانت كمن يخاف أن يسمع حديثه أحد!

وغرقت في هواها فيما زادتني سحائب الغموض التي غلّفتها فضولاً في استشراف كنهها، وعندما غادرت المكان ـ بُعيد العشاء ـ سألتها عما إذا كان في مقدوري أن أراها ثانية... وتردَّدتِ لوهلة ثم التفتت لتتأكد من أن أحداً لم يكن يسترق السمع قالت:

ـ أجل! غدًا في الخامسة إلا الربع!

ورجوت إحدى المدعوات أن تعطيني مزيداً من المعلومات عنها فما زادت على أن أخبرتني بأنها أرملة تقطن في منزل جميل بـ (بارك لين).

وصلت مساء اليوم التالي في الموعد المحدد تماماً، على أن رئيس الخدم فاجأني بقوله: إن سيدته قد خرجت، وعدت إلى النادي أجرجر أذيال الخيبة والمرارة و... الدهشة وبعد تفكير طويل... كتبت إليها رسالة أسألها فيها لقاءً آخر.

ولم أتلقّ ـ لعدة أيام ـ ردّاً، ثم... وصلتني رسالة منها تقول فيها: إن بإمكاني أن أراها في الساعة الرابعة من يوم الأحد، على أنها ذيّلت رسالتها بملحوظة رجتني فيها ألا أكتب لها على عنوان منزلها ثانية ـ سأشرح لك المسألة حينما أراك ـ!

ولقيتها يوم الأحد ـ في الموعد المضروب ـ كانت ساحرة أثملني حسنها،

فأنا بها متيم واعداً نفسي بشريكة عمر رائعة، وعندما ودعتها أعطتني عنوانًا للكتابة لها: (هناك أسباب تمنعني من استقبال الرسائل هنا) قالت:

والتقيت بها كثيراً، على أن محيط الغموض الذي كان يغلفها ما فارقها أبداً... كنت أحياناً أميل إلى الاعتقاد بأنها تحت نفوذ رجل مّا، على أن عدم إمكانية الاتصال بها جعلني أطرح ذاك الاعتقاد جانباً... واحتار دليلي... ما وصلت إلى حل ... كانت شفافة حيناً وضبابية مبهمة حيناً آخر، وقررت أخيراً أن... أطلب يدها بعد أن أمضتني تلك السرية الرهيبة المتواصلة التي فرضتها عليّ ورسائلي. وكتبت إليها طالباً لقاءها في السادسة من يوم الإثنين، وجاء الرد بنعم فشعرت بأن باب النعيم قد فتح لي على مصراعيه! كنت متيّماً بها... مغرماً حتى الصبابة على أن غموضها ظل يؤرقني... لمَ أحببتها؟ وأرجعت كل شيء للقدر فاستسلمت لقبضته.

ـ إذًا فقد اكتشفت الأمر؟ سألتُ صديقي.

ـ أخشى ذلك... يمكنك أن تحكم بنفسك.

يوم الإثنين ذهبت للغداء مع خالي، وفي الرابعة منه وجدت نفسي في شارع (ماريليبون) ـ تعلم أن خالي يقطن في منطقة (ريجنتس پارك)، ولقد أردت أن أتوجه إلى الـ (بيكاديلي) فآثرت أن أسلك طريقاً مختصراً عبر عدد من الشوارع الجانبية الصغيرة، وفجأة لمحت السيدة (آلوري) أمامي! كانت ترتدي غطاء سميكاً وتحث الخطى في سير محموم! وعندما حاذت آخر منزل في الشارع صعدت السلم ثم أخرجت مفتاحاً عالجته في الباب فانفتح ـ هنا تكمن بؤرة الغموض! قلت لنفسي ـ وعاينت المنزل من الخارج... كان من تلك الدور المعدة للتأجير، ولاحت مني التفاتة فلمحت منديلها وقد استقر على السلم فالتقطته ودسسته في جيبي، ثم أعملت فكري في ما ينبغي اتخاذه

لاحقاً... ووصلت إلى قناعة مؤدّاها أنه ليس من حقي أن أتجسس عليها؛ ولذا فقد عدت إلى النادي وزرتها في السادسة. كانت مستلقية على أريكة وبدت غاية في الجمال.

ـ كم تسرني رؤيتك ـ قالت ـ إذ إني لم أخرج طيلة هذا اليوم.

ونظرت إليها في دهشة... ثم أخرجتُ منديلها من جيبي فدفعت به إليها.

ـ لقد أسقطت هذا اليوم في شارع (كومنر) سيدة آلوري! قلت بهدوء.

وفي هلع نظرت إليّ... على أنها ما حاولت أن تأخذ المنديل.

ـ ماذا كنت تعملين هناك.

ـ ليس من حقك أن تطرح علي هذا السؤال! أجابت.

ـ بل هو حق إنسان يحبك ـ قلت ـ، لقد جئت لأطلب يدك! ووضعت وجهها في راحتيها ثم... أجهشت في بكاء عميق!

ـ يجب أن أعرف! قلت لها!

ونهضت فجأة ثم نظرت إليّ مباشرة وقالت:

ـ سيد (مورتشيسون) ليس لدي ما أقوله لك!

ـ هل... ذهبت للقاء أحدهم ـ أهذا هو سرك الغامض؟

وشحب وجهها حتى شادى وجه ميت قبل أن تقول:

ـ لم أذهب للقاء أحد!

ـ صارحيني! ألححتّ!

ـ قد فعلت... أخبرتك بالحقيقة ـ ما ذهبت للقاء أحد... وغرقت في بحار من

الحيرة والدهشة حتى اضطرب كياني، فتلفظت بعبارات كوّرها الغضب فلم أتذكر منها شيئاً إلا أنه بدا جليّاً أنها كانت ألفاظاً لا تحتمل قبل أن اندفع خارجاً.

وتلقيت في الغد خطاباً منها فأعدته كما أتى... وسافرت إلى (النرويج) بعدها مع صديقي (آلان كويقل)، ثم عدت بعد شهر لأصعق بأول خبر أقرؤه! وفاة الليدي (آلوري)، بعد أن أصيبت بنزلة صدرية إثر حضور إحدى حفلات الأوبرا ومفارقتها الحياة في بحر أيام خمسة لاحتقان في الرئتين!

وحبست نفسي فلم أسمح لأحد بزيارتي، ظللت أقتات الألم والندم والحيرة والحسرة... لقد كنت متيمًا بها غاية، يا إلهي كيف اجتاح غرام تلك المرأة كياني.

ـ وذهبت إلى ذلك المنزل في شارع (كومنر)؟ سألته.

ـ أجل ـ جاءني رده ـ اتجهت إلى ذلك الشارع يوماً... لم أستطع أن أمنع نفسي من ذلك... إذ إن الشك قد زلزل ذرات ذاتي فلا يهدأ لي بال أو حال... طرقت الباب ففتحت لي سيدة مهيبة، وسألتها عما إذا كان لديها غرف للتأجير ـ حسناً سيدي ـ أجابت ـ يفترض أن تكون غرف الجلوس مؤجرة ـ على أني ما رأيت السيدة منذ أشهر ثلاثة، وبما أن موعد السداد قد حل فإن بإمكانك استئجارها سيدي.

ـ أهذه هي السيدة التي كانت تسكن فيها؟ سألتها مُرياً إياها الصورة.

ـ هي بعينها ـ أجابت في اندهاش ـ ومتى ستعود؟

ـ لقد ماتت ـ قلت ـ

ـ أواه سيدي! أرجو ألا تكون محقّاً ـ قالت في ألم ـ لقد كانت أفضل ساكن هنا. لقد كانت تدفع لي ثلاثة جنيهات كل أسبوع كي تمر فقط فتبقى قليلاً هنا!

ـ هل... كانت تقابل شخصاً ما... هنا؟ سألتها في لهفة شابتها لوعة وترقب.

على أن السيدة نفت ذلك تماماً، وأكدت بأنها كانت تأتي بمفردها دوماً ولا يأتي لزيارتها أحد.

ـ فماذا إذًا كانت تفعل هنا بربك؟ صرخت طارحاً سؤالي!

ـ كانت تأتي كيما ترتاح هنا وتنغمس في القراءة... وكانت أحياناً تحتسي الشاي هنا ـ جاءني رد المرأة!

ولم أدر ما أقول... احترت غاية ونفحتها جنيهاً فغادرتُ المكان... أترى يا صديقي معنى لكل ذلك؟ وهل تظن بأن المرأة كانت تكذب؟

ـ لا أظن ذلك.

فلماذا إذاً كانت مدام (آلوري) تذهب إلى هناك؟

ـ أي عزيزي جيرالد ـ قلت له بلطف ـ فتاتك تلك تهوى الغموض والإبهام... لقد اكترت ذلك المسكن كيما تغطّي وجهها وتتسلل إلى هناك خلسة فتقرأ وتقرأ وتتقمص شخصية بطلات الروايات... كانت ميالة للغموض غاية على أن المسكينة لم تكن في حقيقة الأمر أكثر من (أبي هول يبحث عن سر ينقصه).

ـ أتظن ذلك حقّاً؟

ـ بل إني متأكد منه تماماً!

وفتح العلبة المغربية الصغيرة فتأمل الصورة مليّاً ثم أعادها إليها وتمتم: ليت شِعْرِي أحقّاً هو؟!!

وصية الفلاح

للكاتب الإيطالي : أنطونيو فوجازارو: Antonio Fogazzaro
(١٨٤٢ ـ ١٩١١)

كنت في بداية حياتي أعمل مساعداً لمحام من (ڤينسنزا) حين وفد على مكتبنا في صبيحة أحد أيام شهر أغسطس، حوالي الساعة العاشرة فلاح من (ريتورجول)، ورجا المحامي أن يتجه معه إلى منزله كيما يكتب وصية أبيه الذي كان في (مرض الموت) كما وصفه.

ونهض المحامي معه، فطلب مني أن أرافقهما ففعلت، وركبنا عربةً ريفيةً مهترئة مخلّعة الأوصال «والزنبركات» تجرها فرس هرمة متعثّرة الخطى، وكانت مقاعدنا قاسيةً لا وسائد عليها فزاد ذلك في حجم ما كابدناه من معاناة. وألقيت نظرة خاطفة على محيا المحامي فإذا هو ينضح بالألم، وظل المسكين يصرخ كلما اهتزت العربة، أما أنا فقد كنت أعاني بصمت فيما عكست رباطة جأش الفلاح استفحال حالة والده الصحية والذي كان ذائع الصيت في بلدته.

حالما ابتعدنا عن القرية تركنا الطريق الرئيس ودخلنا درباً فرعيًا ضيّقاً موحلاً ظلت العربة تمارس عبره شتى أنواع الاهتزاز والذبذبة على أن معضلتنا بحمد الله لم تطل ـ إذ سرعان ما وصلنا إلى وجهتنا.

كان المنزل في حالة يرثى لها، وقد شيد وسط غابة من الوحل، أما الإسطبل فقد اعتلاه مخزن للتبن جُعَل ملجأ للمالك والبهائم على حد سواء.

وكنت والمحامي على وشك دخول المطبخ حين أحطنا علماً بأن المريض لم يكن في المنزل، إذ إن ما كان عليه من وضع سيئ وحرارة اضطرهم إلى نقله إلى مخزن التبن.

أما الصعود إلى حيث كان مستلقياً فقد كان غاية في الصعوبة، فقد تحتم تسلق سلم بدائي متأرجح. وغلت مراجل الغضب في فؤاد المحامي الذي رأى في ذلك إهانة له وتعريضاً للمخاطر، وأبدى رغبته في العودة من حيث أتى، على أن الرجل الذي كان يمسك بالسلم أفاده أنه لا خطر على الإطلاق في صعوده!

وصاح فلاح آخر جاء على صوت الجلبة فأمسك بالسلم كذلك:

ـ اصعد سيدي! لا تخف إنه قوي!

ولأني كنت أصغر من الأستاذ المحامي... وأكثر تمرساً بحكم هوايتي المتمثلة في صعود الجبال... يضاف إلى ذلك كله فضول غامر لاستكشاف كنه الأمر... فقد قفزت بخفة وتسلقت السلم حتى وصلت إلى المخزن دون خسائر في الأموال أو الأرواح، وشجع نهجي ذاك المحامي الذي سرعان ما اقتفى أثري فصعد خلفي.

في المتبن كان ثمة فراش من القشِّ... قذر بائسٌ، وعليه اضطجع شيخ في أسمال بالية وقد جعدّ المرض والشيخوخةُ ملامحه، وبدت عيناه خلواً من الحياة... انطفأ فيهما بريق الأمل فكأنهما تنوران خمدت نارهما. ورغم أن العليل كان يتنفس بصعوبة إلا أنه بدا جليًا أنه لم يكن يعاني، إلى جانبيه وقف رجلان يقطر التصنع والمكر من ملامحما، رغم أن وجهيهما كانا نظيفين حليقين.

وكان أحدهما مستغرقاً في تحريك غصن يطرد به الذباب عن وجه المريض فيما ظل الآخر يضع في فمه الأدرد قطعاً من الخبز والجبن.

ـ كل أبتاه! قال مخاطباً والده بلهجته الفلاحيّه.

وعلى مقربة منهما جلست امرأة واضعة وجهها بين يديها فيما اصطف عنها غير بعيد ثلة من الفلاحين جاؤوا للشهادة، كانوا يتحدثون بصوت منخفض كسرت طبيعة الموقف حدّته فيما لاحت طاولة ومحبرة وكرسي كيما تدوّن الوصية المرتقبة.

وعلمنا أن العجوز المريض كان مستعداً لإملاء وصيته عن طريق الإشارة فما كان قادراً على النطق.

وتردد المحامي في ظل شكوك شرعت تحوم حوله، على أنّ الأبناء تطوعوا لإثبات صحة دعواهم. هبّ من كان يطعمه رغيفاً وجبناً فدنا من أبيه وصرخ في أذنه:

ـ أبتاه... الخروف من نصيبي؟!

وهز المحتضر رأسه نافياً: كلاّ!

ـ هل جعلته (لتيتا)؟

ـ أجل! جاءت هزة الرأس ثانية موحيةً بذلك!

ـ وماذا عن حقل (بوليج) لمن تتركه؟

ونقل المريض بصره حتى وقع على الفلاح الذي جاء بنا.

ـ هو إذاً من نصيب (جيجيو) ـ أهذا ما رميت إليه؟

وهز رأسه بالموافقة ثانية.

ـ وإذا فقد رأيت بعينك سيدي المحامي أني لم أكن مخطئاً قال الابن.

على أن المحامي لم يكن مقتنعاً تماماً؛ ولذا فقد بادر إلى سؤل زوجته العجوز وكانت تجلس منحنية فوق كومة قش والتي انفجرت فجأة مؤكدة على ما أشار زوجها إليه، وأنه قد قضى بما سلف وهو في كامل وعيه وحواسه مدللة على صحة قولها بما وقع منذ نصف ساعة خلت حين اعترض زوجها المحتضر على إعدام الطبيب البيطري لثور مريض، واختتمت بأنها تعرف تماماً ما عقد زوجها النية عليه فيما يختص بالتركة ورغم أنها كانت تنضح ألماً وتأثراً إلا أن نبرات الصدق بدت جلية معبرة... نابعة من أعماق ذاتها الثكلى.. أجل ما كانت تنوي خداع المحامي فيما يختص بتوزيع التركة... ومقدارها فطبقاً لما قالته لم يكن هناك سوى أولادها الثلاثة الحاضرين، أما الإرث فيتمثل في خمسين هكتاراً من الأراضي الزراعية الجيدة، وبيت آخر ـ وقطيعٍ من الماشية وعدد من المعدات الزراعية إلى جانب بعض المتفرقات .

وأكدّ أبناؤها على ما قالته، وكذا فعل بقية الشهود، على أن المحامي اقترح توزيع الأرض بين الأبناء بالتساوي، إلا أن الجميع عارضوا ذلك مشيرين إلى ضرورة تنفيذ ما أوصى به العجوز بحذافيره.

وتقدم رجل بدا أنه كان يبزهم خَلْقاً وأخلاقاً، فقدم إلى المحامي علبة السعوط، ثم سار بخيلاء شأن من يرى علو قدره وباع معرفته وتميزه عمن سواه. قال:

ـ إن الرجل يوشك أن يرحل عن عالمنا، ولا أعتقد أن الوقت يسمح بتطبيق القانون بحذافيره. ووافق المحامي ثم شرع في إملائي كيفية توزيع التركة كما تقرر، على أنه قال مخاطباً العجوز كمن تذكر شيئاً:

ـ وماذا عن زوجتك؟ ألا تنوي ترك شيء لها؟

على أنه هز رأسه نافياً، فأصر الجميع ـ بما فيهم الزوجة ـ على ضرورة تنفيذ ما أراد.

واحتج المحامي حتى في حالات كهذه يقتضي القانون تطبيق مبدأ العدالة! ينبغي ألاّ نغفل ذلك!

ـ سيدي ـ قالت المسنّة بشجاعة ـ لا يهمني القانون لن أمسّ شيئاً حتى وإن مت جوعاً!

ورضخ سيدي المحامي لإرادة المرأة، ثم شرع في قراءة بنود الوصية بصوت مرتفع، وكنت قد قدمت مقعدي له ووقفت بجانبه.

وفجأة علا صياح أحد الديكة، ثم أقبلت ريفية شابه تحمل رضيعاً لها واللهاث يقطّع أنفاسها:

ـ ماذا يعملون هنا؟ أينهبونني وطفلي؟! قالت مسلطة عليّ والمحامي نظرات تقدح شرراً!

عند ذلك نهضت العجوز وأبناؤها الثلاثة، فاندفعوا صوب الوافدة ونهض المحامي كذلك هب قائماً وأمرهم جميعاً بالتزام الهدوء!

ـ من تكون هذه المرأة؟ تساءل ـ.

وردت العجوز بتردد:

ـ إنها... إنها ابنتنا... على أنها لا تصلح لشيء... كن على يقين أن أباها لن يترك لها شيئاً.

ـ ماذا؟ وأنت أيضاً يا أمي؟! قالت الفتاة بمرارة ـ لا آبه بما يقوله إخوتي أما أن يأتي ذلك الظلم من أمي فأمر لا يحتمل أنت تحطمين قلبي... قولي لي بربك... أي جريرة اقترفت وزوجي حتى أعامل كدخيلة؟ هاه...

ـ هذا يكفي ـ ألا تخجلون؟ هذا مشين ـ سأعتقل أول من يفتح فمه بتهمة الحنث باليمين! ياللعار! قال المحامي.

واصطبغت وجوه الأخوة بحمرة الغضب المتعاظم... أما الشهود فقد انكمشوا في رعب فيما تبادلت الأم وابنتها نظرات تفيض حقداً وكراهية وهم يرون المحامي يمسك بالوصية فيمزقها إرباً والغضب يكاد يعميه. وفجأة اندفعت الفتاة إلى الأمام دون أن يوقفها أحد إلى حيث يرقد أبوها على فراش الموت، ثم وضعت رضيعها إلى جانبه.

ـ أبتاه... أتريدني أن أموت جوعاً... دع على الأقلّ شيئاً من عصيدة الذرة لطفلي. وغشت محيا المحْتَضَر سحابة كدر ما تركها الموت تنبثق غيظاً إذ أنه سرعانَ ما أغمض عينيه.

لن أنسى ما حييت منظر الرأسين اللذين كانا يتوسدان المخدة. بداية الحياة... ومنتهاها... رأس تلمع فيه عينان ضاحكتان وغمازتان تتوسطان خدين متورّدين... ورأس العجوز المقطب الملامح وقد أطفأ الموت فيه وهج الحياة فكأنما هو يمٌّ بِلَيْلْ.

وجاء رجل الدين فقال إذ لمح الرأسين: هذا إذاً عوض عن ذلك ـ ما أعدلك يا أحكم الحاكمين!

ونهض المحامي الذي كان في عجلة من أمره فهبط السلم وتبعته بدوري على أني وقبل أن أنحدر أحببت أن أرضي فضولي فألقيت نظرة أخيرة عليهم.

كان الأبناء والشهود قد اختفوا فجأة فيما احتضنت الأم الشابة وليدها تهدهده وتناغيه ليهدأ، أما والدتها فقد كانت وفية لذكرى زوجها الذي أحبته وتفانت في طاعته حتى آخر لحظة في حياته. كانت جاثية لديه تدعو له بالمغفرة والرحمة.

وهبطت السلم بدوري ثم اتجهت والمحامي إلى المدينة وسط غابات من الحقول الشاسعة والخضرة اليانعة، وكان شجر الحَوَر متشابك الأغصان وقد طوقته دوالي تدلت منها عناقيد عنب قد استوى بعضها فبدى ذلك كله وكأن الجميع يخطر في رقصة نشوى... في خضمّ أحد الأعراس اليومية للطبيعة... فيما عبق الجو بشذى الأزهار وسمفونية الأطيار النشوى بما يضج به المكان تحتها من روعة وجمال ودفعني ذلك كله... وأنا أسير الهوينى إلى إعمال فكري لاستشراف كنه أمر استعصى عليّ فهمه... وقصر إدراكي عن بلوغه: كيف يمكن أن يكون نتاج ذلك الوهج المتلالي... عبق الزهور وهمس الطيور... في قلوب العباد حقداً مريراً وكراهيةً بغيضه؟!!

ـ لا أستطيع أن أفهم كيف! قلت للمحامي ـ يبدو أن الإنسان عاجز لا يجيد تسخير ما وهبه الله من قدرات للانتفاع بما قدّر له الخالق من كنوزٍ وهبات.

ـ أخشى أن تكون محقاً في ذلك ـ ردّ المحامي ـ على أنك لو تمعّنت في مصدر الغلط هنا لوجدته ينبع من أرذل الخطايا... الأنانية المقيتة وحب الذات. ما علينا... دع الخلق للخالق فهو علاّم الغيوب سبحانه وهو القادر على كل شيء... لسوف يجدون سويًا ومع مرور الأيام دواء شافياً، إذ أني ما رأيت مواسيًا كالزمن.

الصقــــر

للكاتب الإيطالي : جيوفاني بوكاسيو: Giovanni Boccaccio
(١٣١٣ ـ ١٣٧٥)

لطالما أصغينا بشوق ولهفة إلى حكايات السيد (كوبو دومينيشي) وهو أحد شيوخ مدينتنا المسنين ممن نالوا رصيدًا كبيراً من التقدير والاحترام النابع من فضائل ذاتية سامية وأخلاق نبيلة هيأت له في القلوب مودة وقبولاً أكثر مما مهّده له جلال الحسب وصيت علو النّسب!

وكان له أسلوب مميز في طرح قصصه ورواياته، تدعمه ذاكرة قوية وحس يقظ، وهو ما صيّرنا دوماً كالمسحورين إما شرع في سرد ما وقع من أحداث في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، وكان مما رواه شيخنا الجليل... هذه الحكاية التي ترسخت في ذواتنا أمداً طويلاً... قال الشيخ:

عاش في (فلورنا) في غابر الزمن شاب يدعى (فريدريكو البيريغي) اشتهر بالشجاعة والبأس، وحقق إنجازاتٍ رائعة جمّة ما سجلها أحد من أقرانه من قبل في (توسكانيا).

وكان هذا الفارس مولعاً بغادة تدعى (مونّا جيوفانّا)... فاقت بنات جيلها جمالاً ودلالاً وحسنًا وكمالاً وعقد العزم على الإقتران بها.

وبذل فارسنا المستحيل للفت انتباهها علها ترق فيميل فؤادها إليه، وتبادله ذات المشاعر والخلجات، فقارع الصناديد وقهرهم، وأقام الولائم

والمآدب تترى... على أن ذلك كله باء بالفشل فما أبهت به أو اكترثت وما حرّك في عواطفها ساكناً بل إنها زادت على ذلك بأن اقترنت بغيره فكاد يذوب حزناً وحسرة.

ولأن الجود يفقر والإقدام قتّال، فقد نضب ما كان لديه من معين وافتقر، فما كان من فارسنا الشهم إلا أن رفع راية الاستسلام وركن إلى ما تبقى من ثروة ناضبة... حقل في ناحية قصية بالكاد يفي باحتياجاته وأسلم للقدر شراعه.

وكان لديه صقر نفيس ما شهد القوم شبيهاً له في البأس والجمال والقوه... والانقضاض. وشرع صاحبنا يقتات الصبر في خلوته ويقارع ما لا سلطة له عليه ولا غلبة له فيه... تباريح الغرام وذل الحاجة، وحدث أن مات زوج الغادة الفاتنة (مونا) بعد أن أوصى بكل ثروته لزوجته، ولزمت (مونا) إحدى ضياعها وكانت مجاورة لحقل (فريدريكو) ودأب ابنها على زيارة (فريدريكو) في مزرعته، وكان الصغير مولعاً بالصقور وكلاب الصيد، ولما بصر بصقر (فريدريكو) افتتن به، وود لو كان مالكه، على أنه لم يجرؤ على التصريح لصاحبه برغبته الجارفة تلك، فقد كان يعلم مقدار حبه لصقرة وتعلقه به... وبعد أيام مرض الولد فكاد صواب أمه يطير... كان وحيدها وأحبته الحب كله، وظلت تسهر على راحته وتسأله بين الفينة والفينة أن يطلب ما بدا له، وأنها ستحقق له كل ما أراد... عله يشفى من مرضه سريعاً...

وبعد إلحاح من الأم الرؤوم التفت إليها فتاها في ضعف وقال:

إن استطعت يا أمي العزيزة أن تحصلي لي على صقر السيد (فريدريكو) فسأشفى من مرضي بإذن الله ـ لا أخال برئي يتأتى إلا بالحصول عليه... كم أنا مغرم به.

وداخلت فؤاد الأم الملهوفة طمأنينة وسعادة إذ لاح لها بريق أمل كالبادي للغريق إما بَصُرَ بنور الفنار في بحر لجي... وشرعت تعمل فكرها فيما عساها فاعلةٌ لتحقيق أمنية فلذة كبدها الذاوي شيئاً فشيئاً كزيت مصباح يوشك أن ينضب، وتذكرت ـ في ندم ـ أن (فريدريكو) كان مغرماً بها فما جادت عليه بنظرة أو ابتسامه... فكيف تجرؤ على الذهاب إليه لتطلب منه أغلى وأعز ما يملك كيف !؟؟ وكيف تحرمه من أثمن ما تبقى له بعد ضياع ثروته؟ من مؤنسه الوحيد... وأرهقها التفكير وتقليب الأمور واحتار دليلها فيما هي مجيبة فلذة كبدها به... ظلت تتقلب على أتون الحيرة والتردد والرجاء والخوف... والرغبة والرهبة... والأمل والألم...

وغلب حب الأم ما عداه... طغى على ما سواه فقررت أن تتجه إليه شخصيّاً... إمعاناً في ضمان موافقته وإن شق الأمر عليها، إذ إن قلقها على ما أصاب ابنها كان أدهى من ذلك وأشق، قالت لفتاها:

اطمئن بنيّ العزيز... ونم قرير العين... سيكون أول شيء أفعله صباح الغد هو التوجه إلى مزرعة جارنا السيد (فريدريكو) فأحضر لك ما طلبت... فطب نفساً يا قرة عيني. ذاك المساء كان الصبي في أوج سعادته وبدت علامات الإبلال من المرض ظاهرة على محياه.

في صبيحة اليوم التالي صحبت السيدة (جيوڤانا) إحدى صديقاتها واتجهت إلى مزرعة (فريدريكو) المتواضعة قبل أن تطلب رؤيته، وكان هو جالساً في حديقته إذ أن الجو ذلك اليوم لم يكن مناسباً للقنص، وبعث بحاجبه ليرى من بالبوابة وكاد يصعق حينما قيل له إن السيدة (مونا جيوڤانّا) ترغب في رؤيته... ولم يتمالك نفسه، أحس وكأن السعادة قد أنبتت له أجنحةً شفافة

تحلق به في فضاءات الأمل والنشوة والخيال والرؤى، وهب للقائها فتقدمت بكل احترام صوبه وحيّته في رقة وأدب وقالت:

سيد (فريدريكو) لقد أتيت لأعتذر إليك عما سببته لك سالفاً من ألم وكدر وأحزان. أحببتني بعمق... وكنت تنظر إليّ بكل الود والتقدير... وضعتني في منزلة رفيعة فقابلت ذلك كله بالازدراء والتهكم، وها أنا اليوم أجيء إليك معتذرة عما بدر مني... وكتكفير عما سلف فإني ورفيقتي سنكون ضيفتيك على العشاء!

وأجابها في أدب جم:

ـ لم أنل على يديك أذى سيدتي... ولو أن ثَروتي عادت إلي لما ترددت في إنفاقها في سبيل نيل رضاك... أنت لا تدرين مقدار ما أكنه لك من حب وتقدير.

ولأنه كان فقيراً... لا يملك أجر الخدم فقد قال للسيدة:

سأكلف هذه السيدة اللطيفة بمرافقتك والقيام على شؤونك أثناء العشاء... إنها زوجة المزارع ولن تدخر في خدمتك وسعاً! سأذهب لأعد الطعام.

ومضى المسكين يقدم رجلاً ويؤخر أخرى إذ إنه لم يكن لديه مال يكفي!...

كان فقيراً معدماً لا يملك شروى نقير. وما إن غيبته جدران غرفته حتى انهار على سريره وهو يتمنى لو أن الأرض انشقت فابتلعته ليهرب مما كان يستشعره من ألم وخجل ومهانة... ـ يالسوء الحظ!

ـ قال في نفسه ـ أفقرت نفسي في سبيل إرضائها ولفت انتباهها، وهاهي الآن تدق بابي ضيفة فلا أجد ما أقدمه لها!

وجرى كالملدوغ في أرجاء البيت لا يدري ما هو صانع... والحيرة تنشب أظفارها في فكره... إذ لا مال لديه ولا مؤونة، والوقت يمر سريعاً، وعلا وجيب قلبه... وفجأة لاحت منه التفاتة إليه... إلى صقره النادر... القريب إلى روحه... كان متكأ على مجثمه فدنا منه وجسه ولما تيقن أنه كان صحيح الجسم سميناً ما تردد... ذبحه ثم سلمه إلى ابنة المزارع وأمرها بنتف ريشه وصنع وجبة عشاء فاخرة منه وعاد بعد فترة إلى السيدة داعيًا إياها لتناول الطعام. وتوجهت مع رفيقتها إلى غرفة الطعام فاتخذتا لهما مكاناً و(فريدريكو) يروح ويجيء في سعادة جمة...

ولما أحضر الطائر مشوياً تناولتاه بشهيّة دون أن تدركا كنهه. وحالما فرغتا من ذلك بعد حديث حول المائدة ممتع نهضتا فاتجهتا صوب غرفة الجلوس عندها أحست السيدة (جيوفانا) بأن الوقت قد أزف لمفاتحته في الأمر الذي قدمت إليه من أجله قالت:

لقد لاقيت مني الكثير من الإذلال سالفاً سيد (فريدريكو) أعترف بذلك لكني رغم ذلك سأتجرأ فأطلب منك شيئاً يعني لي الكثير... ولا أشك بأنك ستجد عذراً لجرأتي على ذلك دون رصيد تعامليّ يشفع لي... بعد أن أميط اللثام عن السبب الذي يدفعني لذلك... ولو أنه كان لك أبناء تقيّدك محبتهم بأغلال لا تحل... لو أنك عرفت حب الأم لأبنائها لعذرتني من فورك.

فاعلم إذاً ـ سيد (فريدريكو) ـ أنني بدافع من غريزة الخوف على وحيدي الذي تركته يصارع المرض، قد جئتك راجية تحقيق مطلب عزيز لديه... ربما كان فيه شفاؤه مما أصابه... إنني.. أرجو أن تتنازل لابني عن صقرك!

أعلم أن في ذلك أنانية وصفاقة مني إذ إنه مصدر سلواك الوحيد بعد أن فقدت كل ما تملك... على أن خوفي على وحيدي من أن تسوء حالته إن لم أحقق أمنيته تلك... يدفعني إلى ذلك دفعاً... إنني أهيب بك أن لا تخيب أملي: لا بدافع ما تكنه لي من محبة ولكن بدافع من شهامتك وكرم أخلاقك... إن فعلت سيدي فسأكون مدينة لك طوال حياتي.

وكأنما كان على رأسه الطير! ذهل المسكين... وأمضّه ذلك الشعور المرّ بأنه لن يتمكن من تلبية طلبها العزيز إلى قلبها وقلبه واتّحد الفقر، وفقد طائره وإحساسه بالعجز عن تلبية طلب من ملكت عليه جوارحه فانخرط ـ أمامها ـ في بكاء عميق.

وظنت السيدة أن مرد حزنه وكربه كان حزنه على فراق طائره إن لبى طلبها فتوقعت الأسوأ... وهيأت نفسها لسماع عبارات الاعتذار عن مشقة تحقيق أمنيتها تلك بالنسبة له. على أنه قطع الطريق على كل ذلك حينما قال لها فجأة:

ـ حتى تلك الساعة ـ سيدتي الكريمة ـ والتي ملكت فيها جوارحي عليّ... كنت أحسب أن الدهر قد أناخ علي بكلكه وأصابني ـ عبر سلسلة مصائبه ـ في مقتل... لكني راهناً على يقين من أن طلبك هذا قد قضى على آخر آمالي... حينما شرفتني بزيارتك في مزرعتي المتواضعة هذه بعد أن ذهب عني مالي وأصحابي... لم أجد طعاماً أقدمه لك فما ترددت في ذبح صقري وتقديمه مشويًا إليك وجبة متواضعة، على أني بعد أن علمت برغبة ابنك العليل في اقتنائه أحسست بأن الجدران تكاد تطبق ـ من ألم وغمٍّ ـ عليّ... لا أخال السعادة ستعرف بعد اليوم إلى قلبي طريقاً. وليؤكد لها صحة ما قاله أتى

بريش الصقر ومنقاره ومخالبه، ولم تتمالك (مونا جيوڤانا) نفسها فلامته على ذبح الطائر وعنفته بشدة إذ أنه كان قد عُرف بأنه ـ أفضل ما يطير قاطبة ـ دون أن تخفي ـ في الوقت ذاته ـ إعجابها بكرم الرجل وشهامته وتضحيته في سبيلها، وغادرت المكان وسحب الكآبة تخيم عليها، إذ إنها لم تدر بم تقابل وحيدها العليل به وهي تعود إلية خالية الوفاض إلا من دموع الشجن!

ولم تمض أيام حتى قضى الصبي نحبه إما حزناً على الطائر الذي لم يحصل عليه أو لسبب آخر، وكادت أمه الكليمة من فرط المواجع والأحزان أن تلحق به، وظلت تلعق جراحها وأحزانها وهناً... ثم رأى إخوتها أنه لابد لها من زوج يصون شبابها وثروتها. ولما صارحوها بذلك أخبرتهم عن شهامة (فريدريكو) ونبله وما صنعه من أجلها، وأنها إن تحتم أن تتزوج فلن تقترن بغيره، عندها تبسم إخوتها وهم يقولون في دهشه: أتقترنين بفقير معدم؟ ما هذا الهراء؟!

وجاءهم ردها وكان حكيمًا سبكته مطارق الألم والمواجع:

أعلم أن الحق... كل الحق هو فيما تقولون على أني أروم ـ إن سمحتم لي ـ رجلاً يعوزه المال لا مالاً يعوزه الرجل!

ولما أدرك أخوتها إصرارها على ما قالت واسترجعوا حقيقة كون (فريدريكو) رجلاً من طراز نادر في الشجاعة والشهامة والكرم رغم فقره وعوزه، زوجوها له بكل ما تملك من ثروة... وكم كان (فريدريكو) سعيداً وهو يزف إلى فتاة أحلامه التي عاش العمر كله على ذكراها وأشرقت له الأيام بالتبسم بعد طول عبوس وتجهم.

الحُبُّ والخبز

للكاتب السويدي : أوغوست سترايندبرغ: August Strindberg
(١٨٤٩ ـ ١٩١٢)

حينما تقدم الشاب (غوستاف فولك) والذي كان يمتهن عملاً متواضعاً طالباً يد (لويس) من والدها رسمياً كان أول سؤال وجهه المسن المهذب له هو:

ـ كم تكسب؟

ـ ليس أكثر من مائة (كرون) شهريّاً سيدي، لكن...

ـ دعك من الباقي! ـ قال صهر (فولك) المستقبلي ـ أنت لا تكسب ما يكفي.

ـ لكني و (لويس) نهيم ببعضنا ـ إننا واثقان من ذلك تمام الثقة.

ـ نعم... ذاك أمر جد محتمل... ولكن أخبرني ألا يتعدى مجمل دخلك السنوي ألفاً ومائتي (كرون)؟

ـ لقد كانت بداية تعارفنا في (ليدينغو)..

ـ أليس لك دخل إضافي إلى جانب راتبك الحكومي؟ أصرّ والد (لويس)!

ـ حسناً... أجل.. أظن أنه سيكون لدينا ما يكفينا... ثم أتعرف... هناك ذاك الغرام المتأجج ما بيننا ـ...

ـ أجل... بالضبط ـ لكن دعنا نجري بعض العمليات الحسابية!

ـ آه... قال الخاطب المتحمس ـ أستطيع إحراز دخل كافٍ بامتهان عمل إضافي!

ـ وما نوع ذلك العمل؟ ثم... كم سيدرّ عليك؟

ـ بإمكاني إعطاء دروس في الفرنسية... والقيام ببعض الترجمة كما وأن باستطاعتي تصحيح بعض البروفات الطباعية.

ـ وما مقدار ما تنوي إنجازه من أعمال الترجمة ـ قال الأسن والقلم بيده.

ـ لست متأكداً يا سيدي ـ على أني أعكف راهنًا على ترجمة كتاب فرنسي مقابل عشر (كرونات) للورقة.

ـ وكم مجمل صفحات الكتاب؟

ـ دزينتان، فيما أظن.

ـ حسن جدّاً لنقل أن ذلك سيعود عليك بمائتين وخمسين كروناً، وكم سيَرِدُ عليك فيما عدى ذلك؟

ـ أوه... لست متأكداً... يغلف الأمرَ بعضُ الضبابيه.

ـ ماذا؟ لست متأكداً وتعتزم الإقدام على الزواج... يبدو أن أفكارك فيما يختص بالزواج غريبة نوعاً أيها الشاب... ألا تعي ماهية كلمة مسؤولية؟ ألم تضع في الحسبان أنك قد ترزق بأطفال ستكون مضطراً لإطعامهم وكسوتهم... ناهيك عن تنشئتهم!

ـ ولكن ـ قال (فولك) فيما يشبه الاعتراض... قد لا نرزق بأطفال باكراً... ثم... شد ما نهيم يا سيدي ببعضنا إلى حدّ...

ـ إلى حدّ يمكن لكما معه التنبؤ بالموعد الذي سترزقان بالأطفال فيه بكل أمان واطمئنان!

ورقّ فؤاد والد (لويس) قبل أن يردف:

ـ يبدو أن كليكما عاقد العزم على الزواج... ويبدو جلياً كذلك أنكما غارقان في نهر الغرام... ليس هناك بدٌّ إذاً من الإذعان لكل ذلك. وكل ما أرجوه أن تستثمر فترة الخطوبة خير استثمار بما يرفع من رصيدك المادي.

وغمرت الشاب موجة فرح غامرة أشرقت معها ملامحه. وافق الشيخ إذاً! وانحنى على كفه يقبّلها... يا إلهي! كم أنا محظوظ!

ـ ناجى نفسه ـ (ولويس)... لا شك جذلى ستكون.

وكم كانا سعيدين وهما يخطران بفخر سوياً حينما خرجا لأول مرة بعد إعلان خطوبتهما يده في يدها، وقلباهما يرددان حلو الأغاريد، وتلك السعادة... تنبض مع دقات قلبيهما... وترتسم على شفاههما شلالات فرح لا تكف عن الانهمار.

في المساء... جاء ليراها... جالباً معه أوراق تصحيح البروفات الطباعية التي تعهد بالقيام بها... وتلك كانت إيماءة سعد بها الأب كثيراً وأكسبت الشاب المُجِدّ قبلة من لدن خطيبته.

لكنهما ذهبا إلى المسرح ذات مساء وعادا في سيارة أجرة فناهزت كلفة ذلك العشر كرونات، كما وأنه تقاعس عدة أمسيات عن إعطاء الدروس مفضلاً الخروج في نزهة مع خطيبته.

ولما أن أزف الموعد المحدد للزفاف كان عليهما أن يبتاعا ما تحتاجه شقتهما من أثاث.

بدءا بشـراء سـريرين أنيـقين من خـشب الجـوز الأصلي وفـراشـين بنوابض (زنبـركـات) وأبّان ابتيـاع اللحـاف حـرصـا أن يكون مـا يـخص (لويس) أزرق اللون إذ أنها كانت شقراء.

وابتاعا بعد ذلك مصباحاً يهتن ظلالاً حمراء فاتنة ومجسماً من البورسلين لـ (ڤـينوس) ـ ومدت الأم لهمـا يد العون في انتقـاء أدوات المطبخ مسـتعـينين بخبرتها في هذا المجال.

وبدا الخطيب المسكين غـارقاً في يم المسؤوليـة حتى أذنيه... فـمن بحث عن مسكن وعمـال ـ إلى تنسيق أثاث وتحرير شيكات عده، فتمخض كل ذلك بطبيعة الحـال عن قصـور في اكتسـاب أي دخل إضـافي، لكنه سيعوض كل ذلك بسهولة بعيد الزواج... وحـاولا الاقتصـاد مـا أمكنهمـا. سيكتـريان شقـة من غرفتين بادي ذي بدء... وسيسهل صغر حجمها عملية فرشها... واستأجرا شقة في الطابق الأرضي بستمائة (كرون)... تحوي غرفتين وثالثة لحفظ اللحوم.

ارتأت (لويس) بدءًا اسـتئـجـار شـقـة من غـرف ثلاث في الطـابق الأعلى... ولكن... ماذا يهم؟ لا شيء البتة طالما كان الحب يضمهما في دثار من سعادة.

وانتهيـا أخيـراً من تأثيث الحـجـرات... فـبدت غـرفـة النوم كـملاذ فـردوسيّ صغيـر... سريران يقفـان جنبًا إلى جنب كما لو كانا يتناجيان إبّان سيرهما في رحلة الحياة الطويلة، وتـلألأ المخدع بجمال الأثاث أغطية زرقـاء بلون السمـاء... شـراشف بيـضـاء كندف الثلج النـاصع، وأكيـاس المخـدات وقد نقـشت عليـهـا الأحرف الأولى من اسميهما المشتبكين في عناق أزلي... واحتل بيانو كبير أحد الأركان في الغـرفـة الأخـرى... كان ثمنه ينيف عن ألـف ومـائتي (كـرون)... أمـا الغرفة ذاتها فقد استُغلّت للقراءة والجلوس إلى جانب استخدامها كغرفة طعام

هنا أيضاً... وضعت مائدة من خشب الصنوبر ومكتب ومدخل مذهب الإطار ورف للكتب فتكاملت تبعاً... أسباب الراحة طرّاً.

أقيم حفل الزفاف ليلة سبت وعندما أطل صباح الأحد كان الزوجان السعيدان نائمين ما برحا.

واستيقظ (غوستاف) أولاً ورغم أن ضوء الصباح الوضّاح كان يتسلل عبر مصراعي النافذة إلا أنه لم يفتحها لكنه أضاء المصباح ذا الظلال الحمراء فتساقطت شعاعاته موشية جسد (ڤينوس) في غموض وردي أخّاذ.

كانت الزوجة منهمكة في نوم عميق... ولم يوقظها صخب عربات سوق الغَجَرْ، فقد كان ذاك يوم الأحد! وتتابعت دقات الساعة الكبيرة وسط المدينة في مرح كأنما لتحتفل بمولد رجل وامرأة.

عندما وصل (غوستاف) إلى المطبخ لطلب (الغداء) كان للمعدات والأواني النحاسية وميض ولمعان يخطف الأبصار، وبدا سعيداً... ثملاً بنشوة الزواج والاستقرار... تلك الأواني كلها... إنها له... ولها. وأوعز للطباخ بطلب غداء لهما من المطعم المجاور، ذاك كل ما يحتاجه صاحب المطعم التذكير بالموعد فقط، إذ إن الأوامر طرّاً قد أصدرت له قبل ذلك بيوم.

ويعود العريس إلى غرفة النوم فيدق الباب برفق:

ـ هل لي أن أدخل؟

وتعلو صرخة قصيره: كلا... يا أعز من لي... هلا انتظرت قليلاً!

وأشرف (غوستاف) على المائدة بنفسه وما إن وصل الطعام حتى كانت أواني الأكل البراقة تتوسط المفرش المصنوع من الكتان الأبيض... وعندما

قدمت عروسه الحسناء في دثار صباحي مطرز... حيّتها شعاعات الغزالة كانت لما تزل مرهقة بعض الشيء، فقرب لها كرسيّاً دفعه حتى أوصله إلى المائدة، سيعيد إليها بعض الشراب المنعش حيويتها... لا ريب... أما الكافيار فسيفتح للأكل شهيتها... ما أجمل ذاك الإحساس بالحرية يعترينا فيمنحنا ألقاً... وصلاحية لعمل ما يحلو لنا ـ ناجى نفسه ـ لكم استمتع إبان عزوبيته بوجبات كهذه لكنها لا تماثل روعة تناولها مع زوجته والهوى ثالثهما... كان يناجي بذلك نفسه وهو يتلذذ بطبق من المحار وكأس من العصير، يالهم من حمقى مغفلين ـ استرسل في النجوى ـ أولئك العزّاب... كيف لا يتزوّجون... ويالها من أنانية محضة... ينبغي فرض ضريبة عليهم تماماً كما هو الحال مع بعض السائبة على أن (لويس) الرقيقة لم تشاطره ذات الرأي، إنها قالت إن حالتهم تستدر الشفقة... لاشك أن المال هو ما يعيق هؤلاء المساكين ولو استطاعوا الباءة لتزوجوا قالت في حنان...

وأحس (جوستاف) بما يشبه الوخز في فؤاده... السعادة لا تقاس بالمال لا ريب... كلا... كلا... لكن... لكن... لا تقلق ـ قال لنفسه ـ سيكون هناك كثير من العمل لا ريب... وستسير الأمور من حسن إلى أحسن... فليستمتعا راهناً بأطايب الطعام... حجل محمر بالصلصة الفاخرة وشراب لذيد. تلك الأصناف الفاخرة من الطعام والشراب النادر، دق لدى الزوجة أجراس الإنذار... وسألت (جوستاف) في قلق:

ـ أتظن أن باستطاعتنا تحمل مثل هذه التكاليف؟ لكنه شرع في طمأنتها وإزالة مخاوفها: ـ يوم واحد لا يمثل الأيام كلها... وعلى المرء أن يعب من نبع السعادة ما أمكنه... أواه ما أُحيلى الحياة.

في السادسة تماماً توقفت عربة أنيقة يجرها حصانان أقلت العريسين في نزهة حالمة، وبدت (لويس) مأخوذة بما حولها وقد استرخت في هدوء رومانسي عذب، والعربة تخطر بهما بمحاذاة المنتزة... وقابلا كثيراً من الرفاق الذين أومؤوا لهما محيين... مشدوهين... غابطين، لقد أحسن (جوستاف) الاختيار إذاً فانتقى فتاة من عائلة غنية، أما هؤلاء المساكين فقد كان عليهم أن يسيروا... أواه ما أجمل الاسترخاء على تلك الأرائك ـ فكروا ـ ذاك رمز لما سيكتنف هذين الاثنين من سعادة في دوحة العمر.

كان الشهر الأول حافلاً بشتى أنواع السعادة ـ حفلات وسهر وسمر... ومسارح... على أن الوقت الذي كانا يقتسمانه في المنزل معاً ظل الأحلى دوماً.

كم أحس بالنشوه... بالفرح بالحرية وهو يحمل (لويس) بين ذراعيه إبّان عودتهما من زيارة والديها ليلاً... فيفعلان ما يحلو لهما... كانا يؤبان إلى عشهما الصغير فيتناولان عشاء خفيفاً... يظلان بعده يسمران ويتناجيان حتى ساعة متأخرة من الليل. ولطالما أرّقته فكرة ترشيد الاستهلاك... الفكرة فقط إذ إنه لم يفكر بجدية في ذلك قط!

وذات يوم عمدت العروس الفتية ومدبرة المنزل إلى طهي سمك مدخّن وبطاطا فلم يخف العريس امتعاظه من تواضع ذلك رغم اجتهادهما في صنعه... واتجه الزوج المرفه ـ حينما اقترب اليوم المخصص للسمك المدخن ـ إلى السوق فاشترى زوجاً من الحجل بـ (كرون) واحد، وهرع إلى عروسه يطلعها على صفقته الرابحة لكنها لم توافقه على ذلك فقد ابتاعت زوجاً من الحجل مرة بسعر أقل... كما وأن تناول الصيد كان أمراً مكلفاً وتبذيراً محضاً لكنها لم تحبذ الاختلاف مع زوجها في أمر تافه كهذا.

بعد شهرين أصيبت (لويس) بنوع من التوعك غريب... أتراها أصيبت بنزلة برد؟ أم أنها قد تسممّت ـ صدفة ـ من جراء معدات المطبخ المعدنية... على أن الطبيب الذي استدعي على جناح السرعة ابتسم مطمئناً إياهما بأن الأمر جد طبعيّ... يا للتشخيص الغريب ـ فكر الزوج ـ فيما تعاني زوجته المسكينة الأمرّين.. ربما... ربما كان هناك شيء من (الزرنيخ) في ورق الجدران.

واتجه (فولك جوستاف) بشيء منه إلى الصيدلي راجياً إياه أن يحلله بدقة فجاء التقرير مثبتاً خلو ورق الجدران من أي مادة ضاره.

ولأن العلة لم تبرح زوجته فقد أخذ (جوستاف) على عاتقه مهمة تقصي الأمر عبر ما تحويه كتب الطب، فعثر على حل ناجع ـ حمامات الأقدام الساخنة! وتحسنت حالتها كثيراً في غضون شهر واحد إلى أن اكتشفا فجأة ما أثار دهشتهما، ستغدو أمّاً وسيغدو هو أباً... بهذه السرعة؟! لكنهما حلّقا في أجواء السعادة حتى تبدت لهما ألوان الكون أسفل منهما برّاقة زاهية بهية كوميض الأمل للمدنف الباكي ـ سيرزقان بذكر ـ إن شاء الله ـ ينبغي التفكير في اسم له عاجلاً.

وانتحت (لويس) بزوجها ناحية فذكرته بأنه منذ أن عقد زفافهما لم يحصل على أي دخل إضافي يديم مرتّبه الذي اتضح أنه ليس كافياً ألبتّه! حسن إذاً ـ فكر ـ فقد ظلا يعيشان في بذخ ورفاهية على أن تغييراً طفيفاً سيضع الأمور في نصابها لاشك.

في اليوم التالي ذهب (جوستاف) لرؤية صديقه المحامي ورجاه أن يحور له سنداً أذنياً (كمبيالة) ـ ذلك سيتيح له الاقتراض أنى شاء لمواجهة ما قد يطرأ من مصاريف كما أوضح ذلك له.

ـ أجل ـ رد رجل القانون موافقاً ـ لا ريب أن الزواج وتكوين أسرة هو مسؤولية جسيمة لم يتسنّ لي خوض غمارها! ناهيك عن تحمل كلفتها!

وكبّل الخجل (فولك جوستاف) فلم يقدر على الإلحاف في السؤال وعاد كما جاء صفر اليدين خلوهما إلا من يأس ممضّ! ولما أن بلغ منزله استقبلته أخبار مفادها أن اثنين يسألان عنه! آه لابد أن يكونا ملازمين في الجيش ـ فكر جوستاف ـ وأنهما من حامية (حصن ڤاكسولم). كلاّ! جاءه الرد لا يمكن أن يكونا كذلك فهما كبيران في السن نوعاً:

ـ حسن إذاً لابد وأنهما رفيقان قديمان من صحبه في (أوپسالا) وأنهما قد وفدا كيما يهنئانه بعيد سماعهما بنبأ زفافه! استطرد في تحليلاته الدقيقه. على أن الخادم كان له رأي آخر:

ـ ليسا من (أوپسالا) سيدي بل من (استكهولم) وكانا يحملان عصيّاً!

ـ ما أغرب ذلك ـ قال (جوستاف) وقد أخذ منه العجب كل مأخذ ـ على أنهما لابد سيعودان!

وعاد الزوج الشاب إلى التسوق فابتاع كمية من الفراولة قال عن ثمنها أنه (صفقة رابحة).

ـ تأملي ذلك ـ قال الزوج بفخر لزوجته: من يصدق! لتر من هذه الفاكهة (بكرون) ونيّف! في مثل هذا الموسم.

ـ أجل عزيزي (جوستاف)... لكن ميزانيتنا لا تحتمل ذلك!

ـ دعك من القلق يا عزيزتي ـ سأؤمن دخلاً إضافياً!

ـ ولكن... ماذا عن تلك الديون التي أثقلت كاهلنا ـ قالت في ألم.

ـ ديون! آه أجل لا تراعي غاليتي... لسوف أقترض مبلغاً كبيراً أسدد به ما علينا دفعة واحده!

ـ آه... ـ عارضته (لويس) ـ ألن يعني ذلك ببساطة قرضاً جديداً؟!

ـ لا يهم ذلك... سيكون ديناً إرجائيّاً كما تعلمين... على أنه لا ينبغي التفكير في أمور تبعث الكدر والهم... انظري!... يالها من حبات فراولة كبيرة... أليس كذلك يا عزيزتي... شد ما يتوافق ذلك مع كأس من النبيذ الفاخر! وأرسل الخادم لإحضار زجاجة منه غالية الثمن طبعاً.

عندما استيقظت زوجة (جوستاف) من قيلولة ذلك النهار عادت معتذرة إلى موضوع الديون المتراكمة ـ ورجته ألاّ يغضب مما ستتفوه به:

ـ أغضب؟ كلا بالطبع ـ قال في نفسه ـ لكن ما الأمر؟ تراها ستطلب شيئاً من المال؟ وشرحت (لويس) الأمر:

ـ لم ندفع للبقال! وقد هددنا الجزار إن لم نسوِّ حقوقه، كما وأن مسؤول تأجير العربات يصر على سداد ماله علينا من فواتير.

ـ أهذا كل ما هنالك؟! رد الزوج في هدوء يحسد عليه ـ سأدفع لهم غداً حتى آخر قرش، دعينا الآن من ذلك ما رأيك بنزهة قصيرة في الحديقة العامة!... لا تفضلين اكتراء عربة؟ حسن! سنستقل الترام إذاً .

وذاك ما كان! اتجها إلى المنتزه ثم أنهيا ذلك بعشاء فاخر في مطعم (الحمراء)... استمتعا بذلك كثيراً... إذ إن من كانوا هناك ظنوهما عاشقين مرحين... وبدا (جوستاف) غاية في السعادة رغم أن لويس قد جفلت قليلاً لما أن وقعت عيناها على المبلغ المدون في الفاتورة!

كان بالإمكان شراء الكثير للمنزل بتلك القيمة!

ومرت بضعة أشهر فكان لابد من الاستعداد للوافد الصغير بالكثير... سرير وملابس رُضّع وخلاف ذلك. لكن تدبير ذلك لم يكن أمراً ميسوراً بالنسبة لـ (جوستاف) إذ أصر الجميع على تسوية مستحقاتهم، فهم أرباب أسر مثله، ولم يتسنّ له أبداً الحصول على سلفة! يا للمادية الصاعقة!

وجاء اليوم المنتظر فكان عليه تأمين ممرضة لزوجته! شدما كان بائساً إذ إنه استدعى فيما كان يحمل ابنته بين يديه ـ كيما يهدئ ثورة دائنيه!

وأثقلت الأعباء والمسؤوليات الجسام كاهله حتى كاد ينهار ـ صحيح أنه تلقى عروضاً للترجمة... ولكن أنى له بوقت لإنجازها وهو يكلف بين الفنية والأخرى بعمل منزلي... وفي هذا الخضم لم يجد مناصاً من اللجوء إلى والد زوجته... على أن الشيخ استقبله بفتور ظاهر:

ـ سأمد يد العون لك هذه المرة فقط، إذ أني أيضاً لا أملك الكثير وأنت لست ابناً وحيداً لي كما قد تعلم.

وكان لابد من توفير الحلويات والدجاج للأم... كما تحتم دفع مستحقات الممرضة... واستردت الأم الصغيرة عافيتها سريعاً لحسن الحظ... ورشاقتها كذلك... وتفاقمت حالة الرشاقة تلك حتى استحالت هزالاً امتقع معه لونها! فكان لابد لوالدها من التحدث إليه في ذلك:

ـ لا مزيد من الأطفال إن سمحت... إلا أن أردت أن تجلب الدمار لحياتك.

وظلت عائلة (جوستاف) الصغيرة تقتات لفترة من الزمن على... الحب والديون إلى أن طرق الباب يوماً ولما فتح الزوج أدرك أن الطارق ـ وياللهول ـ كان الإفلاس!

كانت مصادرة ما بالبيت من أثاث أمراً رهيباً... ثم تلا ذلك مجيء صهره الذي أخذ ابنته وحفيدته معه... وعندما انطلقت بهم سيارة الأجرة دهمه خاطر غريب مفاده أنه قد أعار ابنته لرجل أعادها بعد عام كسيرة ذليلة! وكان بإمكان (لويس) ألا تغادر منزلها، على أنه لم يكن ثمة طعام بالمنزل تقتات ورضيعتها منه. وبقي الزوج المطلوب وحيداً يرقب مأموري مصادرة الأثاث - ذوي العصي - وهم يخلون الشقة من كل شيء الأثاث وأدوات المطبخ والأسرّه حتى عادت الشقة جرداء خاليه كما بنتها أمها.

عند ذلك فقط بدأت الحياة الفعلية (لجوستاف) بعد أن نجح في إيجاد عمل كمصحح بروفات طباعية لجريدة صباحية فكان عليه أن يعمل في مكتبة حتى ساعة متأخرّة كل ليلة. وبما أن إفلاسه لم يكن قد أعلن فقد سمح له بالاحتفاظ بعمله الحكومي وإن خلت يداه من أية ترقية مستقبلية محتملة.

وتنازل والد زوجته فسمح له برؤية (لويس) وابنته أيام الأحد وإن اشترط عدم اختلائه بهما، وعند انصرافه كانتا تصحبانه حتى البوابه ليودعهما ونياط قلبه تتقطع ألماً وحسرةً... ومهانة... قد يستغرق تسديد ما عليه عشرين عاماً وبعدها - أجل ماذا بعد ذلك؟ ترى سيكون باستطاعته إعالة زوجته وابنته؟ كلا قد لا يكون ذلك بالإمكان... ولو قدر لصهره أن يموت فستحرمان من المأوى! عليه إذاً أن يبدي امتناناً لذلك الشيخ العتي الذي فرّق بينهما دون هواده.

آه... أجل قاسية هي حياتك يابن آدم... فحين تحصل السباع في البرية على قوتها... يأتيها رغداً... تكدّ أنت وتكدح... يا للعار! إنه أمر مخجل حقاً ألا يمنح كل إنسان حجل مشوية وفراولة مجانية!

محاولة ... إصلاحية

للكاتب السويدي : أوغوست سترانيدبرغ: August Strindberg **(١٨٤٩ ـ ١٩١٢)**

رأت هي بعين السخط أن الفتيات قد جبلن على الاستعداد للزواج وتربية الأولاد والسهر على راحة أزواجهن؛ ولذا فقد تعلّمت حرفة تكفل لها ـ إما توحدت وبقيت دون عائل ـ حياة كريمة... أجادت صياغة الأزهار الاصطناعيه.

ورأى هو بناظر الأسف والحسرة أن الفتيات قد نُشّئن على جبلة انتظار أزواج المستقبل كيما يتولّوا مسؤولية الإنفاق عليهن، فعقد عزماً أكيداً على اختيار فتاة تكون قادرة على إعالة نفسها... فتاة عصرية حرة تكون شريكة لحياته في السراء والضراء لا مدبرة منزل فحسب.

وشاء الله أن يلتقيا... أجل... وافق شن طبقة.. كان هو فنانًا فيما امتهنت هي كما أسلفنا صياغة الأزهار التقليديه. وكانا آنذاك يعيشان في باريس لما اختمرت في باليهما تلك الرؤى والنظريات... وجاء زواجهما انعكاساً لذوقهما المهني... اكتريا منزلاً من ثلاث غرف ف (پاسي)، غرفة له وأخرى لها واستديو في الوسط جاء فاصلاً بين المخدعين ـ ما اتخذا كغيرهما غرفة النوم التقليدية المتعارف عليها تلك العادة المقيتة البغيضة التي ولدت مساوئ جمة كان أقلها الملل والرغبة في التغيير، وأراحهما ذلك النهج المنزلي من الحاجة

إلى تغيير الملابس أمام بعضهما البعض، فكانت غرفة «الاستديو» منطقة محايدة تفصل ما بين الجبهتين وملتقى أثيراً مشتركاً.

ولم يتخذا خادمة مقيمة بل اكتريا عاملة تقوم بالخدمة صباحاً ومساء قبل أن تتجه إلى بيتها... كانت فكرة رائعة خُطِّط لها بدقة وبعد نظر:

ـ ولكن لنفرض أنكما رزقتما بأطفال؟ تساءل بعض المشككين.

ـ هراء... لن يكون هناك أية أولاد.

وسار الأمر على خير ما راما... كان يذهب إلى السوق صباحاً فيبتاع ما يحتاجان إليه ثم يعود فيعدّ القهوة... أما هي فكانت ترتب الأسرّة والغرف قبل أن تنضم إليه فينهمكان في العمل. وعندما لا يكون هناك عمل مّاً فإنهما يتبادلان الأحاديث الشخصية والقيل والقال، ثم يقدم كل منهما لشريك حياته نصيحة يتبعانها بضحكات عالية تنبض محبة وتفهّمًا وأُلفة.

في تمام الثانية عشرة ظهراً كان يوقد النار، فيما تقوم هي بإعداد الخضار... ويطبخ اللحم، بينا تتجه هي إلى الفناء القريب لتعود بعيد ذلك فتحضر المائدة وترص الأواني فوقها.

صحيح أن كلاّ منهما كان يحب شريك حياته كما يتبادل الأزواج أقداح المحبة... وكان كل منهما يبادر صاحبه بتحية المساء قبل أن يتوجها إلى مخدعيهما على أن بابي غرفتيهما كانا مفتوحين دوماً إما رغب أحدهما في زيارة الآخر مساء...

في الصباح... كان للقائهما المتجدد حول مائدة الإفطار طعم رائع لا يمل، وكان كالماء العذب النمير المنبثق من باطن الأرض لا يشوبه كدر أو ركود.

وكان من عادتهما الخروج لتمضية السهرة سوياً والالتقاء بالصحب والأصدقاء، ولم يكن لها اعتراض على رائحة التبغ أو خلافه... وظل الجميع يحسدونهما... على ذلك الزواج المثالي النادر... وتلك السعادة تحلق فوقهما فتهتن أنساً وألفة وانسجاماً.

على أن والدي الفتاة... وكانا يقطنان بعيداً عنهما ما فتئا يبعثان برسائل عدة يستفسران فيها عن سبب تأخر انجابهما...

«إن الهدف الأساسي للزواج هو إنجاب الأولاد» ظلت أمها تكتب لها على أن (لويسا) كانت ترد دائماً بأن تلك لا تزيد على كونها فكرة قديمه لم يعد ثمة وجود لها في عصرهم الحديث... ورجتها أمها أن تفكر فيما إذا كان ما تدين الفتاة به من اعتقاد سيؤدي إلى انقراض الجنس البشري أم لا! على أنها وزوجها ما اهتما بذلك بل إن ما اعتمراه من حلل السعادة قد زاد من غبطة الناس لهما.

كانت الحياة سعادة دائمة ونعيماً متصلاً... لم يكن بينهما سيّد ومسود، بل إنهما ظلاّ يتقاسمان تكاليف كل شيء... وكان ما يكسبه ينيف تارة على ما تجنيه هي... فيما تزيد حصتها هي تارة أخرى، على أن إسهامهما المشترك كان يوحّد كل الأرقام ويلغي الفروقات فيما بينهما طرّاً.

ثم كانت صبيحة ذكرى يوم ميلادها... أيقظتها العاملة المنزلية وهي تقدم إليها باقة ورد وبطاقة كُتب فيها بين طاقات الزهور التي رسمت حولها بدقّه.

«إلى أجمل وأعذب البراعم... من قاطفها المتيّم.. الذي يتمنى لها عمراً مديداً وأعياداً سعيده... ويتمنى أن تشرفه بمشاركته طعام إفطار... رائع... في الحال!

وطرقت عليه الباب: ـ تفضلي!

وشرعا يتناولان طعام الإفطار على سريره هو فيما أبقيت العاملة لتدبير أمور المنزل طيلة ذاك النهار... كانت مناسبة لا تنسى ولم يخبُ وهج سعادتهما لعامين ظلا فيهما يتقاسمان كؤوس النعيم... خابت تنبؤات المرجفين! كان زواجاً مثاليّاً!

على أن الزوجة الشابة سقطت ـ بعد عامين ـ طريحة الفراش، وعزت هي ذلك إلى ما قد يحويه ورق الجدران من بعض السموم ـ فيما أعاد السبب في ذلك إلى بعض الميكروبات الداخلية واحتار دليلهما... ثمة شيء ما... شيء تسلل إلى خدرهما فجأة دون سابق إنذار ما الخطب؟ تساءلا... أهي نوبة برد؟ ثم زاد وزنها فجأة! أهو ورم ما؟ أجل ذاك ما كانا يخشيانه!

وذهبت تستشير طبيباً فيما حل بها فجأة، ثم عادت والدموع تسبقها... أجل كان نمواً داخلياً ذاك الذي دهاها، لكنه كان نموا من النوع الذي سيرى النور يوماً لينبض بالحياة ويؤتي ثماراً!

ولم تدمع عينا الزوج على الإطلاق، بل إنه وجد فيه نوعاً من التميز جديراً بالفخر... والتقى الشقي بأصحابه فأفضى إليهم بالأمر، فيما واصلت المسكينة البكاء... كيف سيكون وضعها الآن... سوف لن تقوى على اكتساب المال فتغدو عالة عليه، ولسوف يحتاجان إلى خادم... أوووه... أولئك الخدم... كم تكره الفكرة! إن كل ما شيداه من عناية وحذر ووعي قد تحطم فجأة.

على أن والدتها ظلت تبعث لها بالرسالة تلو الأخرى مذكرة إياها بأن الله تعالى قد شرع الزواج للاستيلاد والحفاظ على الجنس البشري لمن شاء له الذرية... وبأن رأي الزوجين ليس بذي بال.

وأقنعها (هوجو) زوجها بأن تهمش فكرة عدم قدرتها على العمل والتكسب ثانية! أليست تقوم بدورها كاملاً كأمّ... ألا يعدل ذلك لذة كسب لقمة العيش... ولأن المال هو العمل فقد وصلت إلى قناعة ذاتية مؤداها أنها لا زالت كما كانت وأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان!

على أن الأفكار التشاؤمية ظلت تراودها حتى أطل الجنين فجأة فغيَّر كل شيء... وظلت زوجة خيّره ورفيقة لا تُملّ... تماماً كما كانت في ماضي الزمان، بل زادت على ذلك بأن أصبحت أما لابنة ورأى هو أن ذلك يعدل كنوز الدنيا!

البحار وتاجر اللؤلو

عن كتاب: (Great Shart Stories of the World)

من الأدب الفارسي: من التراث القديم

المؤلف: كاتب هذه القصة مجهول. وقد جُمِّعت تلك القصة ومعها قصص أخرى في إيران قبل أن تجلب إلى إنجلترا لتهدى ـ من ثم ـ إلى مكتبة (بودلين).

وقصة البحار وتاجر اللؤلؤ هي مثال رائع للفن السحري الباهر لدى كتّاب القصة من أهل فارس.

توطئة: تلك القصة هي أقرب إلى الأساطير التي يزخر بها أدبنا العربي الثرّ، إنها مليئة بالإثارة والتشويق... بالأحداث المتتالية في إبهار يحبس الأنفاس، وهي أشبه ما تكون بحكايا ما قبل النوم... أطفال نحن؟ نعم ولو تحسس كل منا ذاته لوجد بها طفلاً تقطر من ملامحه البراءة، ويتشوّق في لهفة لسماع قصة كل ليلة... وهل شهريار من ذلك ببعيد!

(البحار وتاجر اللؤلؤ)

يحكى أن رجلاً يدعي (أبو الفوارس) كان يعيش في البصرة وكان يلقب بشيخ الصيادين إذ لم يكن ثمت ميناء ما رست عليه سفينته وذات يوم كان يفترش رمل الشاطئ يحيط به بحارته إذ أقبلت عليهم سفينه نزل منها رجل مسنّ اتجه إلى (أبي الفوارس) فقال له:

ـ أرغب يا صديقي أن تؤجرني سفينتك لستة أشهر وسوف أدفع لك ما تريد!

ـ إنني لا أقبل بأقل من ألف دينار من الذهب.

قال البحار قبل أن يناوله التاجر على الفور ما طلب والذي أخبره بأنه سيعود في اليوم التالي محذراً إياه بأن سفرهم سيكون دون إبطاء.

وأخذ البحار الذهب فاتجه به إلى بيته ثم شرع في إعداد سفينته لخوض عباب البحار، وودّع زوجته وأولاده قبل أن يتجه إلى الشاطئ، وهناك وجد الرجل العجوز ومعه أحد العبيد وحمولة عشرين بغلاً من الأكياس الفارغة، وحيّاه (أبو الفوارس) ثم أخذ الجميع أمكنتهم على ظهر المركب الذي سرعان ما أبحر بهم.

واتخذوا سبيلهم في اليم أشهراً ستة مهتدين بأحد النجوم حتى بدت لهم على البعد إحدى الجزر فوجّه المسن دفة المركب نحوها، وسرعان ما حطّوا عليها الرحال. وأمر العجوز خادمه بحمل بعض الأكياس الفارغة ثم اتجهوا جميعاً إلى جبل لاح على البعد لهم، وبعد ساعات من المشي وصلوا إلى ذلك الجبل الذي تسلقوا قمته حيث بدت لهم أرض مستوية واسعة كان بها أكثر من مائتي حفرة. وشرح المسن الأمر للبحار قائلاً بأنه تاجر وأنه عثر في تلك البقعة على منجم مجوهرات:

ـ والآن... بعد أن منحتك ثقتي وأفضيت إليك بسرّي فإني على يقين من إخلاصك وأمانتك... وسوف أطلب منك النزول في تلك الفوهة لتبعث لي منها ما يكفي لملء هذه الأكياس، وسوف أعطيك نصف الكمية، وسيكفل لنا هذا عيشاً رغيداً طوال العمر. عندها سأله البحار عن كيفية وصول ذلك اللؤلؤ إلى

تلك الفوهة فأجابه العجوز بأنها وجدت طريقها عبر ممر يربط الحفرة بالبحر حيث يسبح المحّار ليجتمع في تلك الحفرة التي وجدوها صدفة. وأكد الشيخ للبحار بأنه ما أتى به إلا لحاجته إليه، ثم طلب منه أن يكتم السر فلا يعلم به إنسان كائن من كان.

وانحدر البحار إلى قاعة الحفرة يدفعه حماس جم، حيث وجد كثيراً من المحّار ودلىّ العجوز له سلة ملأها مرّات ومرات حتى صرخ الرجل المسن في النهاية قائلاً بأن المحار خال من اللؤلؤ فغادر البحار الحفرة إلى أخرى... كانت ملأى باللؤلؤ... وعندما حل المساء وأرخى الليل سدوله كان التعب قد نال من البحار كل منال، فصاح بالتاجر العجوز أن يرفعه إلى السطح، وجاء رد التاجر صاعقاً إذ قال بأنه ينوي تركه في تلك الحفرة إذ من يضمن له بأنه لن يقتله إن هو أخرجه كيما يستولي على كل تلك اللآلئ، واحتج البحار بشدة قائلاً إنه لا يطمع في شيء من ذلك، إلا أن العجوز أدار له أذناً صماء وعاد إلى المركب يطوي به لجج المحيط.

لثلاثة أيام ظل (أبو الفوارس) نهباً للجوع والعطش وبينما كان يحاول العثور على طريق للنجاة لمح هياكل وعظاماً بشرية، فأيقن بأن عجوز النحس قد غدر بكثيرين قبله وبالطريقة الرهيبة إياها.

وظل يحفر فيما حوله والقنوط يملأ جوانحه إلى أن لاحت له فتحة صغيرة أخذ يوسعها بيديه حتى أصبح بإمكانه أن يزحف عبرها حيث وجد نفسه بعد لأي واقفاً وسط الطين والظلام يلطّخ المكان والزمان، وسار في ذلك الخضم حتى وجد نفسه مغموراً بالماء حتى رقبته، ماء أحسّ بملوحته تملأ فمه، فأدرك أنه يسير في الممر الذي يفضي إلى البحر، وظل يسبح في ذلك

الاتجاه حتى بدا له شعاع من نور خافت وانتشى فؤاده بأمل النجاة فأخذ يسبح بقوة حتى وصل إلى نهاية الممر، وما إن اجتاز ذلك حتى صافحت عيناه مرأى البحر فألقى بنفسه عليه ساجداً لله أن أنجاه مما حل به، عندها نهض عائداً إلى اليابسة فوجد معطفه حيث تركه، أما التاجر فلم يكن له أي أثر وكذا كان الحال بالنسبة للسفينة فما كان منه إلا أن جلس على حافة الماء وقد ملأ اليأس روحه وأخذ منه التعب والقنوط كل مأخذ فلا يدري ما هو فاعل... وفيما كان يحدّق في البحر لاحت له على البعد سفينة، ما إن دنت حتى أدرك أنها ملئت بالرجال، فقفز من مكانه وخلع عمامته ملوحاً بها بكل ما أوتي من قوة، صارخاً بأعلى صوته... وعندما حاذته السفينة عقد العزم على أن لا يصارحهم بما حدث له؛ ولذا فإنهم عندما أركبوه وسألوه عما جاء به إلى تلك الجزيرة أخبرهم بأنه كان في سفينة عصفت بها الأنواء فحطمتها وأنه تعلق بلوح ألقى به اليم إلى الساحل، وحمدوا الله على سلامته، ولما سألهم عن وجهتهم أفادوه بأنهم قد قدموا من الحبشة قاصدين «هندوستان» فأخبرهم بأنه لا يرغب في التوجه إلى هناك وطمأنوه بأنهم لاشك سيلاقون سفناً متجهة إلى البصرة فينضم إلى إحداها، فوافق عندها على المضي معهم وأبحروا في لجج متلاطمة وظلوا يمخرون عباب البحر لمدة أربعين يوماً ما رأوا خلالها أثراً لليابسة، فما كان من «أبي الفوارس» إلا أن سألهم عما إذا كانوا قد أضاعوا الطريق، عندها صارحوه بأنهم ولخمسة أيام خلت كانوا يجرون على غير هدى، واستبدت بهم سورة قلق وهمّ فخرُّوا سجدّاً يرجون رحمة الله، وبقوا على حالتهم تلك يدعون ربهم أن ينجيهم إلى البر وأبحروا ثانية، وفيما كانت السفينة تتهادى على أديم اليم برز من البحر فجأة ما يشبه المنارة، وخيل إليهم أنهم لمحوا وميض مرآة صينية وأدركوا من ثم ـ ويالهول ما

أدركوا ـ أدركوا بأن المركب قد أخذ في الانزلاق على سطح اليم دون تجديف منهم ورغم سكون الريح... وجرى البحارة ـ وقد أخذت منهم الدهشة كل مأخذ ـ صوب (أبي الفوارس) سائلين إياه عما عساه يكون قد ألمّ بالمركب لتنزلق على تلك الحال... ورفع عينيه فتأوه بألم حين أبصر جبلاً هائلاً ينبثق من أعماق اليم فجأه، وصفق عينيه بيديه في رعب قبل أن يصرخ قائلاً:

ـ سنهلك جميعاً! كثيراً ما أوصاني والدي ـ إن أنا ظللت طريقي في اليم أن أبحر صوب الشرق دائماً لأني إن اتجهت ناحية الغرب فسوف أقع في فم الأسد، وعندما سألته عما يكون فم الأسد هذا؟ قال لي بأن الله عز وجل قد خلق ثقباً وسط المحيط بجانب أحد الجبال وبأن ذلك هو ما يعرف بفم الأسد... لقد كان عنيفاً بحيث كان بمقدوره اجتذاب السفن على بعد مئات الفراسخ، ولا يمكن لسفينة اصطادها الفكاك منه على الإطلاق... شد ما ترهبني فكرة أن ذاك هو ما ينتظرنا وأننا قد سقطنا في فم الأسد.

واشرأبت أعناق البحارة والرعب يقفز من محاجرهم وهم يرون سفينتهم تتجه نحو الجبل بسرعة البرق، ووقع المحذور إذ اجتذبهم الإعصار فراح مركبهم يدور مع الدوامة بشدة، ورأوا حطام آلاف السفن تدور بدورانها إلى الأبد، واتجه البحارة والتجار إلى (أبي الفوارس) سائلين إياه عما يمكن عمله للنجاة مما هم فيه من بلاء، فصاح بهم أن يحضروا جميع ما على ظهر السفينة من حبال وسيسبح هو خارجاً من الدوامة وعندما يصل إلى الشاطئ فإنه سيربط حبلاً إلى شجرة قوية قبل أن يلقوا إليها بحبالهم فيخرجهم من قلب العاصفة. وكم كان حظه سعيداً وهو يمتطي صهوة الموج ليلقي به فيما يشبه المعجزة على الساحل، فما كان منه إلا أن سارع بربط الحبل حول شجرة

قوية وصعد الجبل لا يلوي على شيء بحثاً عن طعام، إذ إنهم لم يذوقوا شيئاً لأكثر من أربعة أيام، وعندما وصل إلى قمة الجبل رأى أمامه سهلاً بديعاً منبسطاً ممتداً كحلة خضراء قشيبة، وأبصر وسطه قوساً من الحجر الأخضر، وعندما دنا منه ودخله لمح عموداً طويلاً من الفولاذ علّق فيه بسلسلة طبل من البرونز الدمشقي، يغطّيه جلد أسد وتدلت من القنطرة كذلك لوحة كبيرة حفر عليها التالي:

«يامن تصلون إلى هذا المكان اعلموا أن الإسكندر حينما بلغ هذا الموضع الرهيب المسمى بفم الأسد أدرك حجم المأساة فيه، وبأنه موئل للنكبات والكوارث... فنادى من كان معه من الحكماء وكان عددهم أربعة آلاف وسألهم المشورة فيما عساه ينجي العباد من تلك البقعة، واجتمع الحكماء ثم تشاوروا فيما بينهم مقلبين الأمر على عدة أوجه إلى أن أشار «أفلاطون» ببناء ذلك الطبل الذي ما إن يقرعه من تقع مركبه في براثن ذلك الإعصار ثلاث مرات حتى ينجو مركبه من الغرق بإذن الله ويخرج إلى السطح.

وما إن أتم البحار قراءة ذلك حتى مضى من فوره إلى الشاطئ وصاح مبشراً صحبه بقرب النجاة، لكنه اتفق معهم على أن يبقى على الجزيرة مخاطراً بنفسه شريطة أن يعطوا زوجته وأولاده عند عودتهم نصف ما معهم من ثروة، وعندما أقسموا على الوفاء بذلك اتجه صوب القنطرة حيث حمل عصاً كبيرة فأهوى بها على الطبل ثلاث مرات، وما إن رددت التلال ذلك الصدى الرهيب حتى انطلقت السفينة من عين الدوامة كما ينطلق النشاب من القوس، فصاح البحارة في فرح مودعين (أبا الفوارس)، متجهين صوب البصرة حيث وفوا بوعدهم فأعطوا زوجته وأولاده نصف ما كان معهم من ثروة.

وأعلنت عـائلتـه الحـداد عليـه يغـمـرهـم حـزن شـديد وأسـى، إلا أن (أبا الفـوارس) وبعـد نوم عـميق في تلك القنطرة قـام فحمـد العلي القـدير أن أنجـاه من الغـرق، واتجه صـوب قـمة الجبل ثانيـة وفيمـا هو كذلك أبصـر دخاناً أسـود متصاعداً من قمته، واعترضته أنهار عدة اجتازها عبر السهل، وكان المسكين على شفا الموت جوعاً وتعباً حينما لاح له فجأة في بعض الجهات أحد المراعي، وكانت به غنيمات ترتع وترعى وملأ الفرح قلبه... هاقد وصل إذًا إلى منطقة مـأهولة... ودنا من القطيع فـأبصـر بجـانبهـا شـاباً طويل القـامـة كـجبل وقـد التحف عباءة رثة أو لبّاداً أحمر رغم أنه كان يلبس على رأسه وجسده درعاً، وحيّاه البحار فرد تحيته قبل أن يسأله: متى أتيت إلى هنا؟

فقص عليه أبو الفوارس ما حل به من مصائب، فما كان من الراعي إلا أن استغرق في ضحك عميق قبل أن يقول له:

ـ أنت مـحظوظ إذ نجوت من ذلك اللج المدمّر... لا تثـريب عليك فـسوف آخذك إلى قـريتي... قـال ذلك قبل أن يضع أمـامـه بعضـاً مـن الحليب والخبـز داعياً إياه إلى تناول شيء منه، وما إن فرغ من طعامه حتى قال له:

ـ لا يمكنك البقاء طوال اليوم هنا ولسوف آخذك إلى البيت معي حيث تنال قسطاً من الراحة.

وهبطا سويًا إلى سفح الجبل حيث اعترضتهما بوابة كبيره اتكأتَ عليها صخرة هائلة لا يمكن لمئة رجل رفعها، إلا أن الراعي وضع يده في ثقب فيها فرفعها داعياً (أبا الفوارس) إلى الدخول، ووضع الحجر في مكانه قبل أن يمضي هو في طريقه.

أما ما كان من أمر التاجر فإنه ما إن دخل حتى أبصر حديقة غنّاء مزدانة بأطيب الثمار... وكان بداخلها (كشك) صغير، وهمس أبو الفوارس لنفسه بأنه لابد وأن يكون بيت الراعي ودخل فيه ثم صعد إلى سطحه ملقياً نظرة على ما حوله، فأبصر بيوتاً عدة إلا أنها كانت خلواً من الناس! ونزل بسرعة فاتجه صوب أقرب بيت ما إن دخله حتى رأى عشرة رجال عراة، كلهم غاية في البدانة حتى لا تكاد أعينهم تبين... كانوا يبكون بمرارة وقد أسندوا رؤوسهم إلى ركبهم! وعلى صوت وقع أقدامه رفعوا رؤوسهم متسائلين: من أنت؟ فأخبرهم بأن الراعي قد استضافه وصرخوا صرخة عظيمة قائلين:

- هاقد انضم إلينا تعيس منحوس آخر، ووقع في قبضة ذلك الغول الرهيب، إنه مخلوق حقير وهو يدور باحثاً عن فريسة متنكراً في زي راع، وما إن يظفر بها حتى يسمّنها ويلتهمها إننا جميعاً بحارة ألقت بهم الرياح العاتية على ظهر تلك الجزيرة حيث أمسك ذلك المارد بنا وأبقانا على تلك الحال.

وأدرك البحار المسكين ساعتها أن ساعة وفاته قد دنت حقاً هذا المرة، وأنه هالك لا محالة... لحظتها أبصر الراعي قادماً ومعه أغنامه التي أدخلها إلى الحديقة قبل أن يعيد الصخرة إلى مكانها فيتجه إلى «الكشك» وكان يحمل في يده حقيبة ملئت لوزاً وتمراً وفستقاً ومكسرات، ووضع ذلك كله أمام البحار آمراً إياه أن يقتسمه مع البقية... ولم يعلّق (أبو الفوارس) بشيء واكتفى بتناول ما جلبه الراعي مع رفاقه، وما إن أتموا طعامهم حتى اقترب الراعي منهم ساحباً أحدهم بيده قبل أن يذبحه ويشويه ويزدرده أمام أعينهم، وعندما شبع استدنى جراباً من الجلد مُلئ نبيذاً فشرب حتى ثمل وراح في سبات عميق.

التفت البحار إلى رفاقه ساعتئذ وقال: بما أني هالك لا محالة فسأحاول القيام بشيء للنجاة من هذا المارد البغيض، لكني بحاجة إلى مساعدتكم.

وأجابوه في تردد بأنه لم يعد لديهم ثمة قوة تمكنهم من مد يد العون إليه. وكان أبو الفوارس مقداماً قيادي الروح، ونظر حوله فأبصر السّفودين الذين شوى الغول زميلهم بهما، فما كان منه إلا أن تقدم دون وجل ووضعهما في النار حتى احمرا ثم أدخلهما في عيني ذلك الغول الرهيب.

وصرخ الغول صرخة عظيمة قبل أن يقفز من مكانه محاولاً الإمساك بالجاني الذي انطلق يجري هنا وهناك في محاولة لتضليله، وفي يأس تحسس الغول طريقه نحو الصخرة فرفعها وأخرج الأغنام واحدة تلو الأخرى كيما تتسع المساحة أمامه فيسهل عليه الإمساك بالبحار، لكن (أبا الفوارس) فطن إلى ذلك فسلخ إحدى النعاج ولبس جلدها ثم اندس بين الأغنام في محاولة للخروج من ذلك الموضع، إلا أن الغول فطن بدوره إلى ذلك حينما وضع عليه يديه وقفز وراءه محاولاً الإمساك به فتخلص (أبو الفوارس) من الجلد وجرى هارباً كالريح أو هو أسرع حتى وصل إلى اليم فألقى بنفسه فيه، أما الغول فإنه ما إن عدى نحوه في البحر بضع خطوات حتى كر راجعاً إذ إنه لم يكن ملماً بالسباحة.

وسبح البحار في رعب قاتل حتى وصل إلى الناحية الأخرى من الجبل حيث لقي عجلاً أطعمه وسقاه، لكنه اكتشف بأنه كان غولاً كذلك، وأسقط في يده، لكنه أدرك أن الهم والأحزان لن يسعفاه، فأعمل فكره ثانية واستطاع بذكاء إقناع زوجة الغول بأن تقنع زوجها بدورها أنه بالإمكان الإبقاء عليه والاستفادة منه في أعمال المنزل وكان له ما أراد. وعهد إليه الغول بعد أيام بالرعي، وظل يخطط للهرب لكنه كان يدرك بأنه لم يكن هناك سوى طريق واحد عبر الجبل على أن ذلك كان مراقباً.

وعثر أبو الفوارس يوماً ـ أثناء تجواله في الغابة ـ على مستودع للعسل داخل تجويف أحد الأشجار، فأخبر زوجة الغول عنه، وأمرت زوجها بدورها أن يذهب لجلبه مع البحار الذي انقض عليه في طريق العودة فشد وثاقة إلى إحدى الأشجار قبل أن ينزع خاتمه ليريه زوجة الغول... قائلاً لها بأن زوجها قد أخلى سبيله وأن الخاتم هو خير دليل على صحة ما يقول، لكن زوجة الغول كانت أشد مكراً، فقالت: ولمَ لمْ يأت زوجي معك بنفسه ليقول لي ذلك؟ ثم جذبته من ردائه وأخبرته بأنها ستذهب معه لاستقصاء الخبر ومزّق أبو الفوارس ملابسه بسرعة متخذاً طريقه إلى البحر عَدْواً... جارياً كالغزال تاركاً زوجة الغول تصارع أمواج الغضب والدهشة حتى بلغ البحر، وظل يسبح ويسبح في رعب لعدة ساعات حتى وافته سفينة اكتظت بالبحارة الذين ما إن أبصروه حتى اتجهوا نحوه فحملوه إلى ظهر المركب. ولما سألوه عما ألقى به في تلك البقعة النائية قصّ عليهم كل ما مر به من أهوال.

وتصادف لحسن حظه أن قبطان السفينة كان ينوى المرور بالبصرة بعد أن يعرج على أحد الأمكنة فكاد أبو الفوارس يطير فرحاً، ولم يمض شهر حتى كان (أبو الفوارس) بين زوجته وأولاده، وما أشد سعادتهم يومها به، وكان شعره قد اشتعل شيباً من هول ما مر به من مخاطر وأحداث تشيب لها الولدان.

وخلد (أبو الفوارس) إلى الراحة أيامًا عدة وعاد إلى الشاطئ ثانية فلمح يوماً تاجر اللؤلؤ العجوز ذاته والذي ما إن رآه حتى عرض عليه أن يؤجره مركبه لستة أشهر، ولم يدرك التاجر أن ذاك كان (أبا الفوارس) إذ إن صروف الدهر قد غيرته كثيراً.

ووافق (أبو الفوارس) على طلب التاجر طالباً ألف دينار من الذهب دفعها التاجر له على الفور مخبراً إياه بأنه سيكون عنده في الغد دون إبطاء. وما إن

ذهب ذاك التاجر العجوز حتى حمل الذهب إلى زوجته التي رجته بأن يتوخّى الحيطة والحذر كي لا يلاقي ما لاقاه من مخاطر، فأكد لها بأنه قد صمم على الانتقام لنفسه ولآلاف المسلمين ممن ألقى بهم ذاك المسنّ في فجوة الهلاك.

قدم التاجر في الغد ومعه عبد أسود وأبحروا ثانية حتى أشرفوا بعد أشهر ثلاثة على جزيزة اللؤلؤ، فربطوا مركبهم واتجهوا بالأكياس إلى قمة الجبل ثانية، وما إن وصلوا حتى كرر التاجر طلبه بأن ينزل أبو الفوارس فيملأ الحقائب باللؤلؤ، لكنه تذّرع بأنه غير ملمّ بالمكان وارتأى أن ينزل التاجر أولاً كيما يتحقق من ألا خطر هناك، وأكد له التاجر بأنه لم يؤذ في حياته نملة قط وبأنه لن يرسل (أبا الفوارس) أبداً إلى القاع لو أن ثمت خطر كان يتهدده، إلا أن البحار أصر على طلبه قائلاً إنه ما لم يؤكد له بنزوله ألا خطر هناك فلن ينزل هو إلى القاع أبداً، وبكثير من التردد قبل العجوز بالنزول إلى قاع الحفرة مدلين إياه عبر سلّة ربطت بحبل وملأ السلة محاراً صائحاً في (أبي الفوارس): ـ أرأيت ليس هناك أدنى احتمال للخطر فلا تقلق... أسرع برفعي فأنا مسنّ كما ترى وليس بي طاقة على المكوث هنا. ورد عليه البحار قائلاً:

ـ طالما أنك قد نزلت فإني أرى أن تبقى هناك لإتمام المهمة، وسوف أنزل بنفسي غداً في حفرة أخرى فأرفع لك من اللؤلؤ ما يكفي لملء السفينة.

وظل التاجر يعمل ويعمل مرسلاً آلاف اللآلئ حتى أنهكه التعب فصرخ منهكاً.

ـ شد ما أنا مجهد يا أخي ـ هلا رفعتني!

عند ذلك صرخ أبو الفوارس وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ:

ـ كيف تألم لما يصيبك ولا تأبه بما سببته لأولئك الأبرياء أيها الظالم المتجني الحقير، أأنت أعمى؟ كيف لم تعرفني أنا (أبو الفوارس) البحار الذي ألقيت به يوماً في إحدى هذه الحفر ولقد نجوت بفضل من الله... أما الآن فقد حان دورك... افتح على الحقيقة عينيك، وتمعن فيما فعلته بكثير من التعساء... وصاح الرجل العجوز متوسلاً... طالباً الرحمة، لكن ذلك لم يُجدِه نفعاً فقد أحضر (أبو الفوارس) صخرة عظيمة سد بها فتحة الحفرة قبل أن يستدير إلى العبد ليرشقه بوابل من التهديدات، فما كان منه إلا أن أذعن له.

وحملا ما تجمع من لآلئ إلى السفينة وأقلعا عائدين إلى البصرة فوصلا إليها بعد ثلاثة أشهر حيث قص أبو الفوارس على أهله وأصحابه ما جرى عليه من أهوال ومخاطر فعجبوا أشد العجب، ومنذ ذلك اليوم هجر (أبو الفوارس) حياة البحر، وآثر حياة الدعة والراحة حتى توفاه الله، وظلت تلك القصة تذكر الناس به، والله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين.

الكنّة الفاضِلة

للكاتب الصيني : پوسنغ لينغ : Pu Sung-Ling
(١٦٢٢ ـ ١٦٧٩؟)

كان (تا ـ تشينغ) ابناً قحّاً لعائلة آل (تشونغ ـ تشينغ) ولقد توفي والده الذي حصل على درجة الماچستير... في سن مبكرة، أما أخوه (إرشينغ) فكان صبيّاً صغيراً لما يزل.

وكانت زوجة (تا ـ تشينغ) تنتمي إلى عائلة (شن) وكان اسمها (شانهو). ورغم أنها كانت شابة مطيعة وفيّة لزوجها إلا أن المسكينة قد عانت الأمرّين جرّاء تسلّط حماتها عليها وقسوتها التي أحالت حياتها جحيماً... وفؤادها حميماً غسّاقاً يضطرم بلهيب المواجع... ورغم ذلك كله فما اشتكت أو اعترضت على شيء، بل إنها كانت تلبس أجمل الثياب كل صباح ثم تذهب إلى حماتها فتحييها بأرق الكلام وأعذبه.

وحينما مرض (تا ـ تشينغ) يوماً عنفتها لأنها ارتدت ملابس جميلة فما كان منها إلا أن بدلت ذلك بملابس عادية، ورغم انصياعها للأوامر إلا أن ذلك لم يكن كافياً لإخماد غضب الحماة العجوز التي شرعت تنتف شعر رأسها كمداً، فما كان من ابنها البار (تا ـ تشينغ) إلا أن انهال على زوجته ضربًا حتى كادت تفقد الوعى، ومنذ تلك اللحظة تناذر غضب الأم وتنامت كراهيتها لكنّتها التي كان بها من الخصال الحميدة ما تتمناه أي حماة في هذا العالم!

ما كلمتها أو ألقت إليها بالاً، وكذا فعل ابنها (تا- تشينغ) كيما يُرى أمه تعاطفه الكامل معها، ورغم ذلك كله فما استطاعت الكنّة كسب رضاها... وظلت الحماة تحاسبها على كل شاردة وواردة:

- إنما تُتَزوج المرأة كيما تقوم على خدمة حماتها!

كذا كان زوجها يقول لها: «ولا يبدو أنك تقومين بأيٍّ من ذلك... لا فائدة منك ترجى! و... طردها من بيته! أرسل معها خادمة لإيصالها إلى بيت أهلها على أنها فور خروجها من بوابة القرية... انهارت المسكينة فجأة فانخرطت في بكاء عميق وقالت:

كيف يتأتّى لفتاة أخفقت في حياتها الزوجية أن تواجه والديها. أفضِّل الموت على لقائهما... ياللخزي! وهكذا فقد أخرجت مقصًا طعنت حلقها به فسالت الدماء أنهاراً سربلت بالنجيع ثيابها، وأمسكت الخادمة بيدها فانتزعت المقص منها وأعانتها حتى وصلت إلى منزل (خالة) زوجها، وعادت الخادم فأخبرت الزوج بمستقر الزوجة، فرجاها أن لا تسرّب لأمه خبراً عن ذلك قمعاً لثورة بركانها إمّا درت.

بعد مرور عدة أيام... برئت جراح (شانهو) فتوجه (تا- تشينغ) إلى خالته طالبًا منها طردها؛ فما كان منها إلا أن رجته بأن يعيد النظر فيما اتخده من قرار... وتشبث الزوج برأيه حتى احتدم بينهما جدل جاءت (شانهو) على إثره وطلبت منه أن يخبرها عما اقترفته يداها من جريرة، ولما بيّن لها أنها قد أخفقت في واجباتها تجاه زوجها ووالدته نكّست رأسها وظلت عيناها تهميان بدموع من دم بقّعت ملابسها... فما كان من الزوج الذي هزه ذلك المشهد إلا أن غادر المكان بصمت.

ولم تمض عدة أيام حتى سمعت الأم بذلك فقدمت على عجل إلى منزل أختها وعاودت مخاشنة الكنّة المسكينة. وغضبت الخالة... منحية باللائمة على الحماة آمرة إياها بعدم التدخل في حياة (شانهو) إذ إن الأخيرة قد غادرتهم إلى الأبد.

ـ لا شأن لك بها بعد اليوم... إنها ما عادت كنّة لك!

صرخت الخالة في الحماة بعد أن عيل صبرها... فما كان منها وقد رأت صرامتها وتشددها إلا أن غادرت البيت مغضبة ودموعها تسبقها.

وكذا كان حال (شانهو) التي ارتأت أن تبحث لنفسها عن ملجأ آخر. فما كان منها إلا أن اتجهت إلى منزل السيدة (يو) الأخت الكبرى لمضيفتها وكانت في الستين من عمرها... توفي ابنها فترك زوجته وابنه في معيتها. وشدما كان ولع العجوز بـ (شانهو) خصوصاً بعد أن علمت من مجريات الأمور أن اللائمة تقع على أختها... حماة الزوجة المسكينة، وقررت أن تعيد (شانهو) إلى منزلها فتعود الأمور بينها وزوجها إلى مجاريها. على أن (شانهو) أبت ذلك... وعاشت معها في سعادة ومودة وانسجام... فكانت لها أمّاً ثانية. ورفضت دعوة أخويها أن تعود فتتزوج ثانية... وظلت تكسب قوتها مما تحيكه من صوف.

ومنذ اليوم الذي تركت (شانهو) منزل زوجها مرغمة... كانت الحماة تبذل جهوداً حثيثة لإقناع (تا ـ تشينغ) بالزواج من امرأة سواها، على أن ما شاع عنها من قسوة وتسلط قد جعل الكثيرات يعزفن عن الزواج من ابنها مخافة أن يصيبهن ما أصاب الزوجة السابقة من ويل وثبور وعظائم أمور.

بعد ثلاث سنوات أو أربع على تلك الحادثة كبر الأخ الأصغر (إرشينغ) وكان لابد من اختيار زوجة له أولاً، وخُطِبَتْ له عروس شابه اسمها (تسانغ ـ كو)

على أنه تبين بعد مرور عدة أيام أنها لم تكن لتقل عن حماتها غلظة وشراسة وتسلطاً وبذاءة لسان... إذ إن العجوز ساعة تشارف على الغضب كانت العروس الجديدة تلاقيها بما هو أشد وأعتى، فتشرع في الشجار والصراخ... ولا تملك الحماة ساعتها إلا الانزواء ورفع راية الاستسلام... فما كانت نداً لها... أما زوجها (إرشينغ) فإنه كان خنوعاً ذليلاً لا يجرؤ على الانحياز لأيّ منهما؛ ولذا فإن الحماة كانت توشك على الموت فرقاً وهلعاً كلما توترت العروس الجديدة وتسارع إلى إخماد ثورتها بابتسامة مذعورة!

ولم تكن الحماة قادرة على إرضاء كنتها هذه أبداً... تلك التي كانت تعامل والدة زوجها كما لو كانت عبدة مملوكة لها... أما (تا- تشينغ) فلم يكن باستطاعته مد يد العون لوالدته إلا بمشاركتها غسل الأطباق أو كنس أرضية المنزل، وكانا كثيراً ما ينتحيان من البيت ركناً قصيّاً فيتشاكيان ويفضي كل منهما إلى الآخر همه وحزنه جراء تسلط (تسانغ ـ كو) عليهما دون أن يستطيعا درء ذلك الخطر الكامن المحدق... المحيط بهما إحاطة السوار بالمعصم... وما مرت أيام حتى سقطت الحماة (آن) طريحة الفراش ولم تجد من يقوم على خدمتها ويسهر على راحتها سوى ابنها (تا- تشينغ) ظل المسكين يرعاها ليل نهار حتى احمرت عيناه وتورمتا، وحينما طلب من أخيه الأصغر تحمل جزء من المسؤوليه أمرته زوجته (تسانغ ـ كو) بترك المنزل!

واتجه المسكين إلى السيدة (يو) يبثها حزنه وألمه وما أتم حديثه المؤطر بالمواجع حتى دخلت عليها فجأة زوجته (شانهو) فهب من مكانه واندفع صوب الباب، لكنها وضعت يديها عبره. في محاولة لمنعه فما كان منه إلا أن مر تحت يديها وجرى إلى الخارج لا يلوي على شيء.

ولم يجرؤ على إخبار والدته بما حدث إلا أن السيدة (يو) وصلت بعد فترة فغمرت السعادة فؤاد الأم العليلة التي رجتها أن تبقى معهم. وظلت الهدايا ترد تباعاً للضيفة الغالية... رغم تذكيرها مراراً وتكراراً بأنه لم يكن ثمة داع لذلك، إذ إن المريضة التي جاءت للعناية بها هي أختها... وظلت تدفع إليها بكثير مما يأتيها من أطايب الطعام والشراب حتى أبلت العليلة من دائها أو هي تكاد... وكان حفيد السيدة (يو) يتردد يومياً للسؤال عن صحة المريضة العجوز (آن) جالباً لها بعض الكعك كلما أتى فتأثرت بذلك أيما تأثر...

وانتهزت شقيقتها (يو) إحدى لحظات صفائها فسألتها عن كنتها السابقة (شانهو) وعن سبب ذلك التوتر الذي كان يغلف علاقتها بها... والذي استحال عداءً ومقتاً...

ـ ماذا فعلت (شانهو) لتلقى منك ما لقيته؟ أكانت على تلك الدرجة من السوء؟

ـ لم تكن مثالية يا عزيزتي ـ ردت العجوز (آن) على أنها ليست ببذاءة وسوء امرأة أخرى أعرفها!

ردت العجوز ـ لكنها مع ذلك ليست كالتي لديك طيبة ونقاء معدن.

ـ عندما كانت (شانهو) هناك كان لديك القليل من الأعباء المنزلية... وكانت تستحمل ثوراتك ونوبات غضبك فكيف تقولين بأنها كنة فاشلة؟

وكأنما كان ذلك القشة التي قصمت ظهر البعير إذ إن السيدة (آن) انخرطت إثره في بكاء عميق قبل أن تبدي جمّ أسفها وندمها على ما بدر منها تجاه المسكينة... مستفسرة من أختها عما إذا كانت (شانهو) قد تزوجت. ووعدتها السيدة (يو) بالاستفسار عن ذلك.

بعد بضعة أيام شفيت المريضة تماماً على أنها تشبثت بشقيقتها السيدة (يو) لتبقى معها وإلا فإنها ـ على حد زعمها ـ ستموت إن تركتها!

واقترحت السيدة (يو) أن يسكن (إرشينغ) وزوجته في بيت آخر... على أن الزوجة الغاضبة دوماً (تسانغ ـ كو) أبت بشدة وأذاقت (تاـ تشينغ) وأمه صنوف العذاب جراء ذلك مما اضطر (تاـ تشينغ) إلى التخلي عن جزء كبير من حصته من الأرض لهما وكتبت معاهدة بذلك.

وفي الغد أتت السيدة (يو) بكرسي متحرك وضعت فيه شقيقتها التي أنهكها ما حل بها من سقم ودفعتها إلى أن أوصلتها حيث تقطن هي، وما إن وصلتا حتى طلبت السيدة (آن) رؤية كنة أختها والتي طالما تمنت ـ لفرط ما سمعت عنها من فضائل ـ أن تراها.

ـ أجل ـ قالت شقيقتها (يو). إنها رائعة ولكنّ لها هفوات صغيرة أحياناً كمعظم البشر ـ على أن كنتك السابقة (شانهو) وإن كانت مثلها تماماً فإنك قد أخفقت في تقدير ميزاتها وفضائلها النادرة!

ـ أجل ـ ردت العجوز (آن) ـ لقد كنت جامدة كتمثال أخرس حيال كل ما قدمته... كم أنا آسفة لعدم تمكني من رؤية ما عملته من أجلي... يا للمسكينة... لقد لقيت مني كثيراً من العنت والتسلط والظلم.

ـ وماذا تظنينها قائلة عنك بعد إذ أهنتها وطردتها؟

ـ لا ريب وأنها تشتمني في سرها... ولا ألومها أبداً.

ـ ابحثي أخية في طيات ذاتك دائماً فإن وجدت ما يدعو لأن ينعتك الناس بالسباب فلا تلومي إلا نفسك... ولو أنك طردت أحداً من منزلك فأبى

مفارقتك فإن ذلك لهو أكبر دليل على إخلاصه ووفائه. ذاك كان رد فعله في الضراء فكيف بالسراء... ماذا لو أنه لقي معاملة كريمة فما تخالينه ساعتها فاعلاً. فلتعلمي إذًا أن ما أصابك من خير وأطايب طعام إبان فترة مرضك كانت تبعث به (شانهو) كنتك أنت لا كنتي! إنها تقيم معي منذ زمن طويل وقد عملت طويلاً... حاكت ليل نهار كيما توفر المال اللازم لشراء كلّ ذلك لك!

وشهقت المسنة (آن) باكيةً وطلبت أن ترى كنتها الفاضلة فأتت (شانهو) على عجل وقبّلت رأسها ويديها وغشي الأولى خزي وندم وألم على ما كان وجرى، فشرعت تضرب رأسها بيديها في عصبية ظاهرة وتدخلت السيدة (يو) فأصلحت ذات بينهما ورجعتا لحسن الحظ... كأم وابنتها وعادتا إلى منزلهما... على أن (تا- تشينغ) وقد رأى أن ما كان لديهم من مؤونة ما كان كافيًا فاضطر للعمل بقلمه، فيما عملت (شانهو) بصنارتيها... ورغم أن أخاه كان موسرًا إلا أنه ما مد لهما يد العون وما سألاه بدورهما.

وأما (تسانغ - كو) فإن حدة طباعها وشراستها قد حالت دون اتصال (شانهو) بها، وكانت تصب جام غضبها على زوجها وخدمها. وذات يوم انتحرت إحدى خادماتها فرفع والدها دعوى ضد سيدتها (تسانغ - كو) مبينًا أنها السبب في موت ابنته، وتوجه (إرشينغ) إلى المحكمة ليقوم بدور المحامي مدافعاً عن زوجته فما خرج بغير ضرب مبرح تبعه أمر بحضور المتهمة شخصياً حتى ولو كانت تملك مال قارون، وكان لها أنصار ومؤيدون!

وكان عقابها آنذاك أن تُلْوَى أصابعها حتى يفارق اللحمُ العظم!

ورغم قسوة الحكم إلا أن القاضي كان حازماً غليظ القلب، فزاد على ذلك بأن ألزمها بدفع غرامة كبيرة.

وتحتم تبعاً أن يرهن (إرشينغ) أملاكه كيما يؤمن مبلغاً يكفي لإخلاء سبيل زوجته... إلا أن مدة الرهن شارفت على الانتهاء قبل أن يتمكن من جمع المبلغ الجزائي المطلوب، فاضطر إلى الدخول في مفاوضات مع أحد الأثرياء من قريته. وكان رجلاً مسناً يدعى (جنّ) ولأن هذا الأخير كان يدرك أن (إرشينغ) ليس له سوى نصف الأرض... وأن النصف الآخر مملوك لأخيه (تا- تشينغ) فقد اشترط توقيع الاثنين على الاتفاقية.

عندما عاد (تا- تشينغ) إلى منزله كان متعباً غاية فاستسلم للكرى وظهر له فجأة طيف أبيه السيد (آن) في المنام وقد انتفخت أوداجه واحمر وجهه غضباً:

«ومن يكون هذا العجوز (جِن) كي يبتاع أرضي؟!

سأله ابنه!

- أواه يا أبي... إنك تملك القوة... فساعد أخي على تسديد ما عليه!

- ذاك الابن العاق؟ وزوجته الثعلبة؟ محال! اذهب الآن من فورك فاسترجع أرض آبائك وأجدادك!

- وكيف... ولا مال عندي يا أبي؟

وفكر الأب الحكيم ثم قال:

- احفر تحت شجيرة الآس وستجد كنزاً من الفضة! استخدمه لهذا الغرض!

وأراد (تا- تشينغ) أن يطيل الحوار أكثر فما استطاع... تلاشى فجأة طيف أبيه... كما تتلاشى قطرات الندى يشرق عليها شعاع الشمس أوان الفجر!

وجـرى من فـوره إلى أخيـه فـأخبـره بمـا نصـحـه أبوه به وكـانت رأس الأفـعى (تسـانغ ـ كو) تسـترق السـمع فـمـا أتم (تاـ تشينغ) تفـاصـيل كنز الفضـة حتى جرت بخدمـهـا فـحفـروا بضـعـة أقـدام فـي المكان المحـدد لكنهم لم يعـثروا على شيء سـوى بضع قطع من الطـوب والحـجـارة، فـعـادوا أدراجـهـم و(تسـانغ ـ كو) تتميز من الغيظ.

وذهبت (شـانهـو) فـوجـدت كـثـيـراً من الفـضـة، وجـاء زوجـهـا على عـجل فاحتملا ما عثرا عليه، لكنهما كـانا يدركان أن ذلك كان متاعاً إرثياً لا يخصهما فقط؛ ولذا فقد اقتسـمـه مع أخيـه. على أن (إرشـينغ) وزوجتـه صـدمـا حينمـا وجدا أنّ مـا كـان معـهـمـا مـا زاد على حفنة مـن البـلاط والمخلفـات فـاسـتـشـاطا غـضـبـا وتوجـه إلى أخيـه من توه فـوجـده يـحـصـي مـا معـه من قطـع فـضـيـة ولما أطلعه على ما جـرى اغتم (تاـ تشينغ) وعـرض أن يأخذ (إرشـينغ) حصتهمـا فمـا تردد الأخير وشكره كثيراً.

أما (تشانغ ـ كو) فقد أكدت لزوجها أن تنازل أخيه عن حصتهم من الفضة لهو أكبر دليل على أنه خدعه وإلا فلماذا أقدم على ذلك!

في اليوم التالي بعث المرتَهِنُ بخطاب مفاده أن المال المدفوع كان مزيفاً وأنه بصـدد رفع الأمـر إلى السـلطات. وتفـضلت (تسـانغ ـ كو) ـ لا فـض فـوهاـ ثانيـة فأفادت (إرشينغ) بأنها لم تكن لتعلم بأن (تاـ تشينغ) كان يضمر لأخيه كل ذلك العداء... وأن كـراهيتـه له قد بلغت به حد تسـليمه للسلطات كذباً واقـتـراء وكذا إزهاق روحه!

وجـرى المسكين إلى المرتهـن لا يلوي على شيء إلا أن السـيـد (جن) كـان قـد بلغ أوج غضبه ولم يُصغِ لتوسـلاته سمعاً، فما كـان منه إلا أن دفع له بما يملك من عقار فأعيد له المال.

وتفتق ذهــن (تسـانغ ـ كو) عــن خطة يلقـون من خـلالها بالمسؤوليـة على (تاـ تشينغ) فبعثـا له بالفضـة المزيفـة وكانـت لا تزيد على مكعبـات من الطوب تغطيها طبقة رقيقة من الفضة في سماكة قشرة بصل، وقالا بأنهما يتنازلان له ـ فوق ذلك ـ عن نصيبهمـا في الأرض فشكرهما دون أن يفطن إلى مـا أضمراه له. على أن (تاـ تشينغ) ذهب فدفع بقطع الفضة تلك ـ والتي استحـالت فضـة حـقـيـقـيـة ـ إلى المرتهن الذي اطمـان إلـى أصـالتـهـا، فـدفـع له بأوراق الأرض المرهونة. ولما علم أخـوه لم يُحِـرْ جـواباً إذ إنه مـا اسـتطـاع إيجـاد تفـسـيـر لما حـصل... وجـاءت (تسـانغ ـ كـو) فـأرعـدت وأزبدت عندها علم (تاـ تشـينـغ) وزوجـتـه بما دبّراه لهـمـا فـمـا زادت (شـانهـو) على الابتسـام قـائلة وهـي تدفع بالأوراق إلى عديلتها المزمجرة: ولم الغضب وقد عادت الأرض؟!

وذات ليلة رأى (إرشينغ) والده في المنام مهدداً متوعداً لسوء ما يلقاه أخوه وزوجته منه. قال له طيفه في المنام: ـ ويلك أيها الابن العاق والأخ الشرير لقد دنت نهايتك! .

فارتعدت فرائصه وعرض على (تسانغ ـ كو) إعادة الأملاك إلى أخيه فما زادت على أن ضحكت ساخرة من سذاجته وضيق أفقه.

على أن أكبـر ولديهمـا مـات بالجـدري فـارتاعـا لذلك، وأمـرته زوجتـه أن يسـرع إلى (تا – تشينغ) فيـرد إليـه صكوك الأرض وفـعل، إلا أن الأخيـر رفض بشدة... ومـا مرت أيام على ذلك حتى مات الابن الثاني فسارعت أمـه المكلومة بإلقاء الصكوك في أرض الأخ الأكبر وتفرّغ (تاـ تشينغ) للعناية بالأرض المقفرة حتى أينعت وأصـبـحـت بهـجـة للناظرين ومـورد دخل ثرٍّ لا ينضب... وتبـدلت (تسـانغ ـ كو) منذ ذلك الحين فـأصبحت رقيـقة ودودة... رحيمـة وعندما مـاتت

حماتها السيدة (آن) بعد ذلك بستة أشهر حزنت عليها أشد الحزن، وتمنت لو أن الله أمد في عمرها لتخدمها أكثر فتكفّر بذلك عما اقترفته هي من آثام.

ورزقت (تسانغ ـ كو) وزوجها بثلاثة عشر صبياً ما عاش منهم أحد فتبنيا أحد أولاد (تا- تشينغ) وزوجته اللذين عمرا طويلاً، وتحصل اثنان من أبنائهما على درجة الدكتوراه. وقال كل من عرف تلك العائلة بأن ما أصاب (تا- تشينغ) وأهله من نعيم كان مرده ما تحليا به من حب للخير وصلة الرحم... وهكذا فإن الله يمهل ولا يهمل... وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان!

أطفال وشيوخ

للقاص السلوفاني: إيفان كانكر: Ivan Cankar
(١٨٩٤ ـ ١٩١٩)

اعتاد الأطفال قبيل توجههم للنوم كل ليلة أن يتجاذبوا أطراف الحديث في ألفة وحميمية ـ كانوا يفترشون رف الفرن العريض المغطى فيثرثرون بما يعنّ لهم، وعبر النافذة المعتمة كان غسق المساء الساحر يمد إلى الغرفة نظرات ناعمة ثملة ترنو بها لواحظ أثقلتها الأحلام والرؤى... وتصاعدت من كل زاوية أطياف صامتة تحمل في طياتها حكايا وأقاصيص غريبة!

كانوا يتحدثون بكل ما يخطر على بال لهم، على أن ما كان يجول بخواطرهم لم يتجاوز بحال الأقاصيص السعيدة المبهجة تضمخها بالطهر والبراءة والضياء شعاعات الصباح الأولى تنسجها أنوال الحبّ والأمل.

وكان المستقبل بالنسبة لهم إجازة رائعة لا تنتهي، وهناك... في مكان ما خلف الستارة المطرزة بالزهور بدت الحياة لهم رامشة راعشة نابضة منسكبة في هدوء عبر الضياء إلى... الضياء...، كان الحديث همساً نصف مفهوم... ولم يكن للحكايات البريئة بداية أو نهاية... كانت ببساطة مبهمة الصيغه. وكثيراً ما كان الأطفال الأربعة يتحدثون في وقت واحد، على أن ذلك لم يكن ليقف عائقاً دون فهم ما يقال، وكانوا يحدقون مسحورين... مبهورين مأخوذين في ذاك النور السماوي الرائع الأخّاذ... حيث تقطر كل كلمة صفاء وصدقاً...

وحيث تكتسي القصص معالم واضحة حية، والحكايا وقد اتشحت بدثار ختامي معبر مجيد!

كان الشبه بينهم شديداً حتى إن محيا أصغرهم وهو (تونشيك) ابن الرابعة كان يشادي في الشفق الخافت وجه أكبرهم (لويزكا) ابنة العاشرة، وكانت وجوههم طويلة نحيلة ونواظرهم كبيرة غاية في الاتساع... فاحصة مستقطبة.

في ذلك المساء امتدت يد غير معروفة من مكان غامض مخترقة ذياك الوهج السماوي فحطمت دون هوادة أو رحمة تلك الإجازة الأبدية... وتلك القصص والحكايا والأساطير البريئة! حمل البريد إليهم أخباراً مفادها أن الأب (قد سقط) على تراب إيطالي ... وشخص أمام الأطفال تبعاً... شيء مجهول... تجسد أمامهم طويلة القامة... عريض المنكبين... إلا أنه لم يكن له وجه أو عينان كما... لم يكن له لسان أو شفتان... طيف غريب المنشأ... لا صلة له بالمدينة أو شوارعها... ولم يكن لينتمي إلى ذاك الشفق الدافئ المحيط بالفرن، ولا إلى الحكايا والأساطير، ذاك الشيء الغريب المتطفل لم يكن مثاراً للسعادة، كما لم يكن مبعثاً للأحزان على وجه الدقة، فقد كان ميتاً... ولم تكن له عينان يستشف الأطفال عبرهما شيئاً عن كنهه... أو فم يعبر به عن ماهيته. ووقف الفكر الغض خاضعاً خائفاً أمام ذاك الطيف الهائل كما يقف المرء أمام صخرة هائلة سوداء صماء... عاجزاً من المضي قدماً فهو لا يحيد أو ينثني:

ـ لكن متى سيعود؟ تساءل (تونشك) متعجباً ورمقته (لويزكا) بنظرة غاضبة: وكيف يعود إن كان قد سقط؟

وغرق الجميع في صمت مطبق رهيب... وقفوا طرّاً أمام ذاك الجدار الأسود دون أن يستشفوا ما خلفه.

ـ أنا ذاهب إلى الحرب أيضاً...! فاجأ (ماتيش) ابن السابعة الجميع كما لو أنه أصاب برشاقة صائب القرار.

ـ أنت لا تزال صغيراً! ذكره (نوتشيك) ابن الرابعة بنبرات عميقة وكان لا يزال يرتدي (المراييل).

أما (ميلكا) وهي أنحفهم وأكثرهم تعرضاً للنكسات الصحية والتي بدت وهي ملتحفة بشال أمها كصرة عابر سبيل، فقد تساءلت بصوت رقيق حزين عن الحرب.

ـ كيف هي الحرب أخبرنا يا (ماتيش) قص علينا أحداثها!

وشرح لهم (ماتيش) في شيء من خيلاء:

ـ حسناً... تلك هي الحرب يطعن الناس بعضهم بالخناجر، ويشقون أجساد خصومهم بالسيوف، ويطلقون النار على بعضهم البعض!

وكلما أمعنت في القتل والطعن كنت الأفضل والأقوى... ولن يلومك أحد على ذلك؛ لأن هذا هو في الواقع ما ينبغي القيام به! إنها الحرب !

ـ لكن لماذا يمارسون عمليات الطعن والضرب هذه؟ سألت (ميلكا) بإلحاح بريء!

ـ إنهم يفعلون ذلك بأمر من قادتهم!

وران صمت عميق نشر ظلاله في أرجاء الغرفة.

ولاح لهم في الأفق المظلم البعيد... شيء رهيب تبدى لنواظرهم الحائرة... كان يومض بإشراقة المجد... وجلس الأطفال دونما حراك ... وأنفاسهم تتردد ثقيلة تكاد لا تجرؤ على الخروج من أفواههم كما لو كانوا في لحظة خشوع مطلق وترقب.

وجمع (ماتيش) بخفة بنات أفكاره... ربما ليكسر طوق الجمود المخيم:

ـ أنا ذاهب أيضاً إلى نزال الأعداء في معمعة الحرب!

صف العدو لنا... كيف هو؟ أله قرون؟ استفسرت (ميلكا) فجأة!

ـ بالطبع له قرون وإلا فكيف يكون عدوّاً؟

رد (تونشيك) بنبرات جادة غاضبة... عندما لم تكن ثمة إجابة صحيحة هناك... حتى لدى (ماتيش)!

ـ لا أعتقد أن له... قرنين! رد ببطء.

ـ وكيف تكون له قرون؟! إنه مثلنا! قالت (لويزكا) بتردد قبل أن تتابع مستدركة:

ـ على أنه لا إحساس لديه ولا شفقة!

بعد برهة ليست بالقصيرة استفسر (تونشك):

ـ لكن كيف يسقط الإنسان في المعركة... هكذا؟... على ظهره؟ قال ممثلاً ذلك.

ـ إنهم يزهقون روحه... أوضح (ماتيش):

ـ لقد وعد أبي أن يحضر لي بندقية!

ـ وكيف يجلب لك بندقية وقد مات؟! عقبت (لويزكا) بحدة.

ـ وقتلوه حتى الموت؟

ـ حتى الموت!

وعبر تلك المقل اليانعة المتسعة حدق الصمت والأسى في ملامح الظلام... في شيء مبهم غامض... شيء يحار القلب والفكر في سبر أغواره وكشف أستاره واستجلاء مكنونه.

في الوقت ذاته، وعلى دكة قبالة الكوخ جلس الجد والجدة وعبر أوراق الحديقة لمعت بقايا شعاعات الشمس الواهنة.

كان المساء هادئاً صامتاً إلا من نحيب طويل... غدا لطول مكثه أجشاً... يمزق نياط القلوب... وكان الإسطبل مصدره... أنه... لاشك عويل الأم الشابة التي ذهبت لإطعام الماشية.

وجلس العجوزان وقد تعاظم إنحناء ظهريهما فكأنما كانا ينوءان بحمل ثقيل... جلسا متلاصقين وقد احتضن كل منهما كف الآخر في يده كما لم يفعلا منذ أمد بعيد، وشرعا يحدقان في تفاصيل الغسق السماويّ الباهر بمآقٍ غارت فيها الدموع... ولم ينبسا ببنت شفة.

الذبابة الخضراء

للكاتب المجري : كالمان ميكثراث: Kalman Mikszath

(١٨٤٩ ـ ١٩٢٢)

وقع الفلاح المسن ـ أغنى أغنياء القرية طريح الفراش وشارف على الموت، لكأنما جعله الله عبرة لمن يعتبر أن: اعتبروا يا أولي الألباب... يامن تتمنون الخلود فلا تفكرون في بعث أو حساب... أيها الطغاة المتكبرون من بني آدم، اتعظوا بما ترون واعلموا أنكم لا تساوون عند الله جناح ذبابة فها هو (جون غال) ذاك الثري المرموق... ذاك الذي تقف البلدة له احتراماً... ويتسابق الكبار لمصافحته... تمعنوا فيما حل به... تدبروا قدرة الله على قهر أغنى الأغنياء وأقوى الأقوياء... ها هو (جون غال) أمامكم... له مال قارون ولكنه ممدد كما ترون... لم يرسل الله طوفانًا عليه... لم يسلط عليه ذئباً يتضوّر جوعاً، ولم يسقط عليه كسفاً من السماء أو يرديه بشجرة بلوط هائلة تهوي فتقع عليه... لكنه سلط عليه ذبابة صغيرة قرصت ذراعه فأقعدته.

وذلك ما حدث قرصته فتورمت يده ثم شرعت تسود تارة وتحمر أخرى. ونصحه أعيان البلدة باستدعاء الطبيب، ولم يكن لديه ثمة اعتراض على ذلك لكن أكثر المحيطين به نصحوه باستقدام مختص من (بودابست). ووقع الاختيار على البروفيسور (بيرلي) ورغم أنه كان سيتقاضى ثلاثمائة (فلورين) عن الزيارة الواحدة إلا أن ذلك كان من باب وضع الشيء في موضعه كما أخبره أصدقاؤه.

ـ هراء قال الفلاح ـ لا يمكن أن تكون تلك الحشرة الصغيرة قد أحدثت بي ضررًا يعدل ثلاثمائة (فلورين) وعرضت إحدى الكونتيسات التكفل بدفع المبلغ فوافق على مضض، فقد كان عنيدًا، وبعث بالبرقية إلى الطبيب فقدم على الفور... كان شاباً نحيلاً عاديًا ذا نظارة سميكة، ولم يكن فيه ما يبشر بخير وفير... أقلته عربة جعلت في انتظاره بالمحطة وحيته السيدة (غال) لدى البوابة، وكانت شابة بهية الطلعة في ريعان الشباب:

ـ أأنت طبيب (بودابست) الشهير... يستحسن أن تلقي نظرة على زوجي فهو لا يكف عن الشكوى من لدغة ذباب صغير حتى ليخيل للسامع أن ما عضّه كان فيلاً!

وقد كذبت وزوجها من الصادقين، إذ إن المسكين لم ينبس ببنت شفة لم يكن ليتحدث عما أصابه إلا حينما يُسأل... وكان ـ مع ذلك ـ يرد باقتضاب... وهو مستلق في شيء من اللامبالاة... رأسه مستند إلى حشية من جلد الماعز (وغليونه) في فمه.

ـ ما الخطب أيها الشيخ؟ سمعت أن ذبابة لدغتك!

ـ ذاك ما حدث. أجابه العجوز بلا اكتراث.

ـ ما نوع تلك الذبابة؟

ـ كانت ذبابة خضراء ـ رد الفلاح.

ـ تابع تقصي الحالة أيها الطبيب، أما أنا فلدي ما يشغلنى لقد تركت عشرة أرغفة في الفرن ـ قالت الزوجة.

ـ حسناً يا أمي. أجابها الطبيب شارد الذهن، والتفتت إليه فجأة كالملدوغة وقالت واضعة يديها على جانبيها:

ـ ماذا... إنك في مقام والدي سنّاً ـ أجابته نصف غاضبة ونصف متباهية ـ لا يبدو أنك ترى جيداً عبر هاتين النافذتين على عينيك. واستدارت بخفة ثم غادرت المكان وطبقات تنورتها المثقلة بالنشأ تبعث في الجو طبقات هوائية عبقة وتياراً يستمد العذوبة مما تستشعره من قوة الشباب وأوج نشاطه.

وتبعتها عينا الطبيب... غاية في الجمال كانت... وأصغر منه هو بكثير... وأصغر ـ بطبيعة الحال ـ من بعلها كثيراً جداً، وأراد أن يقول شيئاً... أن يعتذر... لكنها كانت قد غادرت المكان.

ـ حسناً... دعنا نلق. على ذراعك نظره. أتؤلمك؟

ـ كثيراً! أتاه الرد.

وفحصها قبل أن تحمل قسماته علامات الحزن العميق:

ـ الحالة سيئة جداً... لابد وأن الحشرة كانت سامة.

ـ ربما ـ رد الفلاح دون أدنى عاطفة، حسه كان متبلداً غاية ـ يبدو أنها لم تكن حشرة عادية.

ـ لقد حطت على جثة قبل أن تلدغك.

ـ سحقاً! قال الفلاح العجوز ولم يزد.

ـ من حسن حظك أني قد وصلت في الوقت المناسب بإمكاننا عمل شيء على أنك لو تأخرت في استدعائي إلى يوم غد لكنت من المنضمين إلى أصحاب القبور.

ـ غريب هذا ! قال الفلاح ضاغطاً التبغ في (غليونه) بإصبعه.

ـ إن التسمم الدموي يتم سريعاً ـ وعلينا اتخاذ اللازم عاجلاً، حافظ على رباطة جأشك أيها الشيخ... لابد من بتر ذراعك.

ـ ذراعي؟ تساءل في دهشة ساخرة!

ـ أجل... لابد من إجراء ذلك.

قال له ذلك فما أجاب... اكتفى بهزة من رأسه واستأنف تدخين غليونه.

ـ أتعلم... ـ مضى الطبيب شارحاً بنبرة إقناعية ـ لن تشعر بشيء ستنام حتى انتهاء العملية، فتنجو من موت محقق، وإلا فستغدو جثة هامدة كفأرة ميتة!

ـ هلا تركتني لوحدي ـ قال وقد بدا جليًا أنه سئم الكلام ـ وأدار وجهه صوب الحائط قبل أن يغلق في كدر عينيه.

ولم يتوقع الطبيب ذلك... فتوجه إلى زوجته محاولاً إقناعها بضرورة تخليه عن عناده!

ـ كيف هو الآن؟ سألت الطبيب في برود دون أن تترك عملها تأدباً فتصغي إليه... كانت ترمى إلى إشعاره بما تكنه له من جفاء وسخط.

إنه في حالة يرثى لها. هلا أقنعته بضرورة بتر ذراعه؟

وشهقت في فزع: ـ يا إلهي... وامتقع لونها حتى حاكى شحوب رداء الطبخ الذي كانت ترتديه ـ أيتحتم ذلك؟!

ـ نعم، وإلا لقي حتفه في غضون أربع وعشرين ساعة.

واكتسى وجهها بلون أحمر قبل أن تأخذ الطبيب من ذراعه إلى غرفة زوجها فتنتحي به ناحية وتقول واضعة يديها على جنبيها:

- أتظنني سأرفع هامتي فخراً إما أصبحت زوجة لمعاق؟

سأقضي نحبي خجلاً إن حدث ذلك. والتفتت إلى زوجها فصاحت به لا تدعه يقطع ذراعك يا (جون) إياك أن تصغي لما يقول!

ورمقها الفلاح العجوز بنظرة ودّ وامتنان قبل أن يقول لها مطمئناً.

- لا تقلقي يا (كريسكا) فليس في نيتي التخلي عنها.

وعبثاً حاول الطبيب إقناعه... ظل يصف له سواد الموت وكآبته وجمال الحياة وحلاوتها... دون جدوى... ولما أعياه ذلك استعان بأعيان البلد لإقناعه فما استطاع - رفض الفلاح أن تبتر ذراعه مهما كان الحال. وعجب الطبيب لرباطة جأشه وهدوء أعصابه كان مستعدًا للقاء الموت دون خوف أو وجل ما سكب مر الدموع وما سكنت الآهات صدره... ما تنازعته المخاوف فقد كان على يقين بأن ما أصابه لم يكن - بأي حال ليخطئه - فإن دنت المنية كان لزامًا عليه أن يسلك ذاك الطريق الذي سار عليه أبوه وجده من قبل.

وأسقط في يد الطبيب بعد أن أدرك ألا شيء يجدي نفعاً في إلزام العجوز بقبول ما أشار به... وظل يتوسل إليه حتى لان قلبه وأحس بالشفقة عليه فشرع يواسيه في رقة... وزاد ذلك في إصرار الطبيب على محاولة إقناعه بالرضوخ للواقع... وتذكر فجأة حرص الفلاحين على المال فقرر استعمال ذلك كورقة أخيرة قال:

ـ ستدفع ثلاثمائة (فلورين) على أية حال... سواء أجريت العملية لك أم لم أجرها ... صدقني... لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق!

ـ يمكنك وصف مرهم طبي لي وبذا ستكون قد (حلّلت) ذلك المبلغ!

رد الفلاح في برود... كأنما كان يقايضه على حذاء ما.

وبلغ الضيق واليأس بالطبيب منتهاه فخرج مغضبًا وطفق يسير مفكراً فيما عساه أن يفعل لإقناعه وكيما يستشير حكماء البلدة في حل للمعضلة ناجع... ولم يعثر في كل ذلك على ضالته. كان من الصعوبة بمكان إحضار قوات الأمن والطوارئ إلى سرير العجوز... وكانت زوجة الفلاح الشابة هناك دائماً... نصّبت نفسها للاعتراض على كل كلمة يتفوه الطبيب بها... دون أن تنس أن تشد من عضد زوجها فتقوّي فيه روح العناد والإصرار، وبلغ سيل الطبيب الزبى فنهرها:

ـ أغلقي فيك حين يتناقش الرجال!

ـ ليست الدجاجة كمّاً مهملاً فوق مزبلة الديك! أجابته في تحدّ.

وسارع زوجها في فض الاشتباك:

ـ اهدئي (كريسكا) وأحضري بعض الشراب للزوار.

ـ ومن أي برميل تريد ذلك؟

ـ من ذي المائتين، أما ذي الثلاثمائة فخذي منه عند تشييع جنازتي... لقد تغير طعمه قليلاً وأخشى أن يفسد.

كان جليًا أنه مطمئن للقاء ربه! ما خامره خوف أو وجل وتركه الجميع ليسوي باقي حساباته مع ذاته.

في الساحة التقى الطبيب بأجير الفلاح... وكان شابًا قويًا وسيمًا.

ـ أعدّ لي العربة سأذهب في غضون نصف ساعة قال للعامل ثم أردف: وأخبر السيدة (جال) أني لن أبقى للعشاء!

قال ذلك ثم وقف حائراً لا يدري ما هو بعد ذلك صانع، ولاحت منه التفاتة عبر فجوة البوابة فرأى الأجير يتجه إلى السيدة (جال) ولم تفته نظرة الإعجاب التي رمقته بها وهو يسير نحوها في ثقة بالنفس واعتداد. بدا جليًا أنهما كانا يلعبان بالنار وأن للموضوع صلة. كلما ما كان عليه الآن عمله هو إجراء مزيد من التحقيق في الأمر! قال لنفسه وبصيص من الأمل يتخلل فؤاده كلجين الشمس ينساب شعاعاً عذباً رقيقاً عبر ثنايا سحابة داكنة كئيبة. لابد وأن عجوز القرية على علم بذلك... وجاءه الخبر الأكيد قالت له العرّافه:

ـ إنها الساحرة العجوز (ريبيك) وهي تقطن عنهم غير بعيد.

ونفحها الطبيب قطعتين من الفضة نظير معلومتها القيمة تلك ثم اتجه صوب الساحرة العجوز:

ـ لقد وقعت في غرام امرأة وأريد شيئاً يجعلها تبادلني ذات الشعور ـ قال.

ـ ذلك مستحيل يا ولدي فأنت تبدو كفزاعة الطيور والنساء عادة لا يقعن في الحب مع أمثالك.

ـ نعم ـ أمي ـ لكني على استعداد لأن أهبها ما تطلبه من المال والجاه.

ـ ومن هي تلك المرأة؟

ـ إنها السيدة (جال)!

ـ بإمكانك يا بني قطف جميع الورود... عدا تلك التي قُطِفَتْ للتو!

وذاك ما كان الطبيب يرمي إلى معرفته:

ـ ومن ذلك الآخر؟ سألها.

ـ أجير يعمل لديهم (پول ناغي) إن شئت معرفة اسمه. لابد وأن السيدة (جال) متيمة به؛ لأنها غالبا ما تأتي إلى هنا لابتياع (جرعات الحب) لقد أعطيتها رماد العام الماضي لحشرات زاحفة عمرها ثلاث سنوات كيما تذرّ ذلك في شرابه.

ـ وهل يشك (جون جال) في شيء من ذلك؟

ـ لا يمكن لرجل يا بني التغلب على كيد النساء ومكرهن مهما كانت درجة فطنته.

وعاد الطبيب إلى منزل عائلة (جال) فإذا هما لا يزالان في غي الغرام سادرين، وهمس الشجن المحرّم يدور بينهما، فيما كان العاشق يمسح ظهور الجياد بقطعة قماش كانت معه استعداداً لنقل الطبيب إلى المحطة.

ودست المرأة يدها في صدرها فأخرجت له قيمة الكشف:

ـ نظير أتعابك أيها الطبيب ـ قالت وهي تناوله المبلغ المتفق عليه.

ـ حسناً لكن تذكري أن ضميرك أيتها الجميلة سيعذبك إذ إني لا أستحقه!

ـ روحي كفيلة بتحمل وزر ذلك فلا تقلق.

ـ مريهم إذًا فليحضروا إلى العربة حقائبي بينا أودع زوجك، ودخل عليه فإذا هو في مرقده لما يزل كان (غليونه) معمرًا وعيناه مغمضتين فكأنما استسلم لأطياف الكرى، على أنه ما إن سمع صوت الباب حتى رنا صوبه بعين واحدة.

ـ جئت لوداعك ـ سيد (جال) قال الطبيب.

ـ أذاهب أنت ـ ألقى سؤاله دونما اكتراث.

ـ لا عمل لي هنا.

ـ هل أعطتك المرأة أجرتك؟

ـ أجل ـ إنها جميله جداً... زوجتك أعني.

وفتح المريض عينه الثانية وقال وهو يمد إلى الطبيب يده السليمه:

ـ أليست كذلك؟

شفتاها كحبات الكرز!

ـ فهي إذًا كذلك؟ قال الفلاح المريض وابتسامة سعادة ترتسم على شفتيه.

ـ لا ريب أن أجيركم (پول لوفر) سيسعد بصحبتها!

وتخللت العجوز رجفة مباغتة قبل أن يقول:

ـ ماذا قلت أيها الطبيب؟

ووضع الطبيب يده على فيه فجأة كمن تفوه بمحظور:

ـ هراء... ليس ذلك من شأني للمرء قلب ولسان وله عينان يرى بهما وعقل يرشده ويترجم ما تقع ناظراه عليه ـ لقد ساورني الشك ساعة رفضت هي أن أقوم ببتر ذراعك ـ ألم يخامرك الشك أنت في ذلك ـ على أني بدأت الآن ألمّ بتفاصيل الصورة... بالطبع... بالطبع! وشرع (جون) في نفض كلتا قبضتيه ناسياً الألم النابض في إحداهما فأنّ من شدة الوجع تباعاً!

ـ أواه ما أشد الألم في ذراعي ـ لا تقل شيئاً فالألم لا يطاق.

ـ أي شيء؟ سأله الطبيب في خبث.

ومزّقت صدر العجوز تنهيدة حرى أعقبها بالإطباق على ذراع الطبيب بذراعه اليمني:

ـ أي (پول) تقصد ـ من يكون؟

ـ أتعني إفهامي بأنك لا تعلم شيئاً عن (پول ناغي) أجيرك الوسيم!

واكتسى لون الشيخ بياض الثلج... وارتجفت شفتاه فيما اندفعت الدماء بسرعة إلى قلبه ـ لم تعد يده الآن تؤلمه... ورفع رأسه إلى السقف فضرب جبهته فجأة:

ـ يا لي من مغفل أحمق ـ كان يجب أن أفهم ما يدور منذ زمن ـ تلك الحية الرقطاء.

ـ سوف لن يجديك قذفها بأقذع النعوت نفعاً ـ إنها شابة تضج دماؤها بالحياة هذا كل ما في الأمر ـ ربما كانت بريئة من كل ذلك على أنها ستتزوج بعد فراقك الذي لا أخاله يطول!

وبصعوبة استدار الفلاح العجوز صوب الطبيب الذي واصل حديثه:

ـ لن تخسر أنت شيئاً بزواجها من شاب بعد موتك ولن تعلم عن شيء من ذلك بعد أن يواريك ظلام اللحود... ثم ... يجدر بك أن تسر؛ لأنها ستختار شابًا وسيمًا بعد وفاتك ـ ما أجمله!

وصك الفلاح المسكين على أسنانه حتى خُيِّل للسامع أنه صوت احتكاك نابين هائلين:

ـ لا تكن طماعاً سيد (جال) ودعهما يعبان من كؤوس الغرام ما يشاء لهما الشباب ـ ياله من ذكي ذلك ال (پول) إنه سيعرف مآل ثروتك وحقلك... كما وأن زوجتك تود أن تستمتع بشبابها وجمالها، ويؤسفني أن أقول بأنك المغفل الوحيد. وعقد الفلاح جبينه فيما غشاه سيل من العرق وأحس مرارة في قلبه توشك أن تفيض:

ـ أعتقد سيد (جال) بأنه من الأفضل أن تحتضن زوجتك بذراع واحدة ذلك خير من ألا تتمكن من احتضانها على الإطلاق !

ولم يعد الشيخ يطيق صبراً بعد أن بلغ السيل الزبى... فاض به الوجد والغضب والغيره فقفز من مكانه ومدّ للطبيب ذراعه:

ـ أحضر مشرطك أيها الطبيب واقطعها على الفور.

نُذُر الشّــرّ

للكاتب البولندي: ستيفان زيرومسكي: Stefan Zeromski
(١٨٦٤ ـ ١٩٢٥)

«**صورتان**»(١)

كنت قد أمضيت ساعة كاملة أنتظر القطار، حدقت خلالها بلا مبالاة في وجوه عدة سيدات ظللن يتثاءبن في ملل في زوايا صالة الانتظار بمحطة السكة الحديد... ثم شاغلت الملل بحيلة أخرى... لمحت فتاة صغيرة فركزت عليها النظر... ظللت أحملق فيها... وكانت جميلة بحق، أنف صغير أبيض، وخدّان ورديّان، وعينان شبيهتان بزهرة (لاتنسني) ولم تلبث تلك المشاغبة الصغيرة أن أخرجت في تحد لسانها... أحمرَ كخشخاش الحقل، عندها أُسقط في يدي ولم أدر ما أنا صانع لإزجاء الوقت.

وكان الحظ رفيقاً بي إذ ولج القاعة بعد ذلك طالبان صغيران.

هيئتهما كانت رثة وبديا كما لو أنهما خاضا بحيرة وحل لتوهما، كانت وعثاء السفر قد أخذت منهما كل مأخذ... أشعثان... أغبران مُرْهَقَيْنِ كانا.

وبدا أحدهما ـ وكان بَهيَّ الطلعة طلق المحيا وسيماً ـ شارد الذهن أو مكتئباً... اتجه إلى زاوية فخلع معطفه قبل أن يدفن بين يديه وجهه. وأحضر رفيقه تذكرته له فجلس بمحاذاته ممسكاً ـ بين الفينة والفينة ـ بيده.

ـ ولم الإمعـان في اليـأس؟ لا تقنط من رحـمـة الله يا (أنطوان)... ودع المقادير تجري في أعنتها... لسوف يبدل الله من حال إلى حال، أصغ إليّ!

ـ كلا... لن يجدي ذلك نفعاً... إنه يموت... أعرف ذلك... أعرف! قد يكون فارق الحياة الآن!

ـ محض هراء... لا تصدق تلك الخيالات السقيمة... أَسَبَقَ لوالدك وأن تعرّض لتلك النوبة من قبل؟

ـ أجل... ظل يعاني من متاعب قلبية لثلاث سنوات خلت، وكان يحتسي ـ من آن الآخر ـ أم الكبائر فلا عجب... فكِّرْ في حجم المأساة... ستة أولاد جُلُّهم صغار... وأم ضعيفة البنية كثيرة الأسقام... وأبي... كان سيحال على التقاعد بعد ستة أشهر فقط! أسمعت بطالع أسوأ من ذلك؟!!

ـ قُدّر لك ملاقاة الصعاب والسّير حافياً في رمضاء المآسي في مقتبل عمرك (أنطوان)!

ودق الجرس فجأة فعمت الفوضى أرجاء القاعة... سارع المسافرون إلى حمل حقائبهم فيما تصادمت الأجساد في خضم فورة الاندفاع المحموم، أما البواب المسكين فما استطاع مواجهة سيل الأسئلة والاستفسارات يجتاحه من كل حدب وصوب..

ودخلتُ عربة الدرجة الثالثة حيث يجلس الفتى الوسيم ورفيقه، بدا واضحاً أن رفيقه أراد حجبه عن المنغّصات قاطبة، إذ إنه قد أجلسه بجوار النافذة في حين جلس هو في المقعد المفضي إلى الممرّ... وأمره بالأخذ بأسباب الراحة والانشغال بذلك عما سواه... كما لو كان قاصراً، وتشنج محيا الوسيم في اهتزازات راعشة، فيما وارتْ أجفانه عينين بللتهما الدموع:

ـ (أنطوان)... رفيقي العزيز ـ قال رفيقه مواسياً ـ دعك من اليأس.

لا تقنط من رَوّح الله ـ من يدري لربما كان الأمر الآن خلاف ما تتصور!

ودق الجرس الثاني... فالثالث، فقفز الصديق من مكانه وغادر العربة ملوحاً له بيده والقطار يستجمع للانطلاق قوى أوهنها القدم والبلى، تبدت له قبضة الرفيق المؤسي وهو يلوح له مودعاً غريبة بعض الشيء كان كمن يهزها مهدداً متوعداً!

وضجت العربة بخليط من الفقراء... وبنات يرتدين عباءات فضفاضة شققن طريقهن بالمرافِق وجلس يثرثرن أويدخّنّ.

ووقف الفتى محدقاً عبر النافذة في أعماق اللاشيء، ومر أمام زجاج نافذته شرر كثير شادى أتون لهب حي... وكرات هائلة من الضباب والبخار والدخان... مزقتها الريح أشلاء قبل أن تقذف بها إلى الأرض، فيما تعرّج الدخان ملتفاً حول الشجيرات التي نمت وترعرعت ناهلة ماء الحياة من أمطار الوادي. وضمّخ غسق الخريف مناظر الطبيعة بلون كالح حزين مفجّرا في القلوب كآبة لا توصف... ياللفتى المسكين... لكم يعاني، همست لذاتي ـ ذلك الحزن يدمي فؤاده وهو في مدارج العمر لما يزل... وتلك الوحدة والعزلة تطبق عليه أنيابها... منبثقة من أعماق الألم واليأس والأسى، ذلك كله هو ما ترجمته تلك النظرة القلقة في عينيه وهو يرنو عبر النافذة إلى آكام المجهول يستمطره رحمة وحناناً فيهمي عذاباً وأحزاناً.

وكنت واثقاً أن محور تلك العواطف والمشاعر المؤلمة هو الخوف من المجهول، وبأن وراء حدود العقل الواعي... كان ثمة خيال غير معروف يغزل له خيط أمل.

ما رأى شيئاً أو سمع، فيما كانت عيناه الخاليتان من أي تعبير تتابعان كرات الدخان... وفيما كان القطار يقطع المسافات تولَدّ لدي اقتناع مفاده أن الفتى قد بلغ من التعاسة والبؤس غايته، وبأنه كان يرغب أن يختلي بنفسه ليظل بكل دموع العمر يبكي ويبكي في صمت. والتفّ خيط الأمل حول فؤاده... من يدري؟ ربما أبلّ والده من دائه فهو موفور الصحة معافى.

وفجأة... حدث ما توقعت! اندفع الدم إلى وجهه وشحبت شفتاه في توتر... كان يرنو صوب البعيد البعيد بناظرين متّسعين. وبدأ كما لو أن يداً مهدِّدةً مخيفة... مخترقة الحزن والمواجع والرعب المتأجج في كيانه كانت تشير إليه... كما لو أن الريح التي تعوي بجوع في الخارج كانت تفح هامسة «حذار»، وانشدَّ خيط الأمل في أعماقه إلى درجة الانقطاع فبدت له الحقيقة المرة ماثلة له كعين الشمس ـ ولم يكن قبل تلك اللحظة قد واجهها عياناً ـ واخترقت فؤاده فقدته كحد مهند أو يماني بتّار!

ولو أنني ـ وقدر الله وما شاء فعل ـ قد اتجهت ساعتها إليه فأنهيت إلى علمه بأني أعرف قريته حق المعرفه ـ بأني عالم ببواطن الأمور وبأن أباه لا يُحَتَضَرُ لارتمى عليّ فقبلني بكل امتنان ولصدقني... ولكنت قد أسديت إليه معروفاً لاحدّ له، بيد أني ما فعلت!

لم أقل له شيئاً ولم أربت على يده، كل ما وددت القيام به كان ينحصر في الرغبة الجامحة في مراقبته... في استقراء مشاعره وانفعالاته بكل ما يثير القلب البشري في أعمق أعماقي من فضول عارم لا يقاوم.

«دع الأيام تفعل ما تشاء»[٢]

(الإمام الشافعي)

في أقــصـى زوايا الجناح وعلى الســرير رقم (٢٤) اضطجع فــلاّح في الثلاثين من عمره لأشهر عدة، وعلى طرف سريره عُلِّقتْ لوحة خشبية سوداء كتب عليها (مريض بالسل) تظَل تتراقص كلما تحرك المريض.

تحتم بتر ساق المسكين إلى ما فوق الركبة نتيجة لاستشراء السّل في عظامها... وكان فلاحاً بسيطاً... زارع بطاطا... حرفة ورثها عن آبائه وأجداده... لكنه سرعان ما استقل بذاته بعد أن تزوج ـ وكان ذلك منذ ثلاث سنوات ـ وأنجبت زوجته صبياً شادت خصلات شعره لون الكتّان. على أنه ودود، ودون سابق إنذار استشعر فجأة ألماً في ساقه سرعان ما أعقبه ظهور قروح شتى... واكترى عربة إلى مستشفى المدينة حيث تكفّلت جمعية خيرية بدفع أتعاب علاجه.

وعاده طوفان الذكريات يحمل في جعبته صدى لأحداث مضت وتولت وخربشاتها على حائط التذكار لما تزل. رأى نفسه وزوجته متجهين إلى المستشفى وقد ركبا عربة فاخرة في ظهيرة يوم خريفيّ... وكيف كانا ينتحبان في خوف وحزن... طفقا يبكيان ويبكيان، ولما انتهيا من ذلك تناولا بيضاً مسلوقاً... على أن ما تلا ذلك من أحداث بدا مشوشًا غاية... ضبابياً إلى درجة لا توصف ولم يكن ذلك كل شيء!

في خضم دورة الأيام إبان إقامته في المستشفى بكل رتابتها ومللها لم يبق في ذاكرته من ذلك كله سوى بئر من الأحزان لا ينضب ماؤه، وبدا ذلك كحجر أُلقي به فوق قبر... وتغلغل ذلك كله في ثنايا روحه وأعماق ذاته فانغرس ألماً

مسعوراً فوق حدود المحال لازمه أشهراً ليس يبرحه، وليس يبرأ أو يخفف من غلوائه، ما علق بذاكرته كان شذرات مما أجراه الأطباء له ذلك اليوم، إذ إنه بعد أن استحم وطعم، شرع الجراح يعاين منطقة العملية بمبضعه. ونقل إلى غرفة وقف بها سادة كثر يرتدون مآزر مبقعة بالدماء، على أنه استرجع في خياله تلك الشجاعة التي واتته يومها فآزرته، وهو إليها بأشد الحاجة... كانت يداً رقيقة حانية كيدٍ من خلال الموج مُدت لغريق!

تذكر كيف حدّق في تلك الجمهرة المحيطة به في شبه دائرة ـ قبل أن تحمله نوارس النوم على أجنحة وردية لتبعده ـ في حدب ـ عن ذلك المشهد المرعب الدامي. ما استطاع تحليل ذلك الدرس البليغ الذي يلقنه سيد المواقف طرّاً ـ النوم ـ لبني الإنسان، فأما ما تلا العملية من وقائع فقد ضرب الكلل والتعب عليها حجباً.

واستمر علاجه على ذلك النسق على أنهم مزجوا له في ظهيرة وليلة ذلك اليوم شراباً ثقيلاً ككرة حجرّية ما إن استقر في جوفه حتى انبعثت منه إشعاعات دفء لذيذة استشعرها في أصابع قدمه السليمة... وظلت الذكريات تهتن لتتجمع في إحدى زوايا عقله ككرات من الزئبق، وفيما كان يسبح في لجة من العرق وجفناه منطبقان دون وعي منه شرعت الأحلام في التقاطر على شاشة إدراكه كان اللاوعي مصدرها... لا المنام رؤى تخالج الوجدان بين اليقظة والمنام... أما ما عدا ذلك من وقائع فقد بدت وكأنما هي في رحم الغيب لما تزل... ولم يتبق له غير فضاء قاتم أجوف كئيب مشبع برائحة المخدر. وبدا كما لو كان يسبح داخل كوز عملاق يمتد بطول الأرض كنفق سرمدي، ونهايته تلوح من بعيد كنقطة ضوء لامعة! فقط لو استطاع الوصول إلى تلك الفتحة في نهاية النفق.

وأحس بأنه يسبح ليل نهار داخله... بأنه يحلق في أجواء دوامةٍ رهيبة... وجسده يلامس تعرجات بطانته الحلزونية السرمدية فينساب بين إنثناءاتها... مندفعاً تجاه نهايته. كان يشعر بأنه مسيّر في إبحاره القسري ذاك... وغمرته التناقضات فإذا هو بين إحساسين متباينين... كان يحس بأنه بطيء كحلزون رغم أن شيئاً كان يمور في داخله، ويقفز كأرنب وقع في فخ فهو يحاول الإفلات جاهداً... أو كجناحين خفاقين يرفرفان داخل روحه... كان يعلم يقيناً ما ينتظره لو اجتاز تلك الفجوة آخر النفق... هناك كان حقل البطاطا الذي يملكه... بكل روعة الأمل والشوق واللهفة... لا يفصله عنه سوى أمتار قليلة، على أنه كان كلما قاوم ذلك الخدر الشعوري وافته رؤى مخضلّة بعذوبة الحياة في حقله ذاك... وطبع سديم الحقول الخريفي الشفاف على خلفية ذاكرته خيالات هلامية حيرى... بدت في خضم ذلك السياق كله عزيزة متميزة، فهي مزيج من وحشة الواقع ولذة الإبحار في غياهب اللاوعي... رأى نفسه وزوجته وهما يجمعان بطاطا كبيرة في حجم قبضتيهما، فيما اجتمع الرعاة أعلى الرابية بين جذامات الزرع وقد جثموا على أعقابهم يجمعون عرعراً ويشعلون ناراً يديرون فيها بالعصيّ ثمار البطاطا المشوية، وتضمّخ الهواء الصاعد برائحة العرعر فاستشعره يمور داخل خياشيمه، فكأنما داخل المكان والزمان ذاتهما وكأنما هما داخلاه.

وعندما كان وقع الحمى أخف وطأة عليه... كان الخوف والتخوف يحاصرانه فيضرِّسانه بأنياب ويطآنه بمناسم شعور لم يكن يحس بمثيله غير أولئك المعذبين فوق ما يحتمله البشر... أو من كان في ألم يُحتضر.

وأنهكه الخوف حتى انكمش! إلى أن غدا في حجم حبة متناهية الصغر... وضجت في ذاته أصوات كثيرة مرعبة وهواجس رهيبة فكأنما هو يهوي إلى قاع هاوية ما لها من قرار!

وتنفس الصعداء ذات صباح لما أفاق ورأى بأن جرحه قد بدأ يندمل وبأن تلك الحمى التي اتخذت من عظامه لها مبيتاً قد استكانت نوعاً، فعاد إليه صوابه وآب إلى أرض الواقع يلقي في بحره اللجي مرساته. على أنّ تفكيره قد شهد بعد فترة لم تطل تحولاً فريداً... ناحياً منحى آخر! سالفاً... ما كان يستشعره كان نوعاً من الشفقة على الذات مصدره الرعب الضارب في روحه أطنابه، على أن ذلك سرعان ما استحال غضباً جارفاً تجاه الرجل المريض ورغبة ملحة في انتقام عاجل... وعم ذلك الشعور أولئك المرضى المساكين ممن يشاطرونه الغرفة فودّ لو انتقم منهم على حد سواء... شعور بالسَّخط جارف طوقه فما استطاع منه فكاكاً... استعر به كيانه وأحس برغبة في إلحاق الأطباء بركب المنتَقَم منهم كذلك فقد بتروا ساقه فأقعدوه، والدنى ترفل بعذب المنى والليالي بالطيبات حبالى! على أن هاجساً استبد به فهو من سابقاته أشد وأعتى، وانطلقت أفكاره كقطيع من كلاب الصيد تجدُّ في طلاب فريستها ـ في بحث دؤوب عن مصدر لما حل به من بلاء!

ولازمه ذلك الشعور بالغربة الروحية والتمزق الذاتي زمناً تضاعف من جرائه ما كان يحس به من سخط واستياء.

وذات يوم استشعر تورماً وتيبساً يجتاح ساقه السليمة، وعندما عاده كبير الأطباء في إحدى جولاته كاشفه بمخاوفه، وسارع الطبيب يعاين الساق الناحلة ثم أدخل مسباره بجوف الخراج وهاله أن بلغ العظم!

ولم يتمالك الطبيب نفسه ففرك يديه في يأس وألقى على وجه الفلاح نظرة طويلة ملؤها الحزن والأم والعطف:

ـ الحالة سيئة يا صديقي العزيز وقد نُضطرّ إلى بتر هذه الساق كذلك... على أنك ستكون أحسن حالاً لدينا من بقائك في كوخك!

سنزودك بكثير من الطعام!

واتجه مع معاونه صوب الباب على أنه ما إن حاذاه حتى عاد إلى المريض بسرعة فربت ـ في رقة ـ على رأسه بدهاء محاذراً أن يلمحه أحد.

ساعتها غداً فكر الفلاح خلواً من كل شيء، فكأنما هو في غيبوبة إثر تلقيه على حين غرة ضربة في قلب الظلام على أم رأسه بهراوة ثقيلة، وأغلق عينيه فمكث في سريره دون حراك لفترة طويلة... إلى أن وافقه نسائم الطمأنينة فملأت روحه برداً وسلاماً.

هناك موضوع ساحر غامض بعيد في ثنايا الروح دونه سبعة أقفال لا يفتحها غير المحن العصيبة.

وعبر شفاه ـ أوديب ـ ذاك الذي فقأ عينيه بنفسه ففقد نور الحياة يذكر لنا (سوفوكليس) ذلك الموضع السري ذاك الذي تنبثق منه كنوز السعادة والحكمة والرضى.

وفيما كان المسكين ممدداً على سريره تراءى له فلك نوح عليه السلام يبحر بالناجين من غضب الله، ومنذ ذلك الحين كان يسبر غور ما يخامره من ألم وحيرة... عبر الليالي الطويلة الأَرِقَة والنهارات المحملة شقاء وبلاء... من منظار بعيد بعيد من موضع آمن حيث الطمأنينة واستقرار الذات والرضى بكل ما قسمه الباري جل وعلا... حيث يبدو ما دون ذلك ضئيلاً... تافهاً أجوف.

وجاءه أخيراً صوت هامس نابع من أعطاف روحه أن: «فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

اعتراف ليلة رأس سنة

للكاتب الألماني: هرمان سدرمان: Hermann Sudermann
(١٨٥٧ ـ ١٩٢٨)

❖ **القصة:** لا يفتأ ثغر الكون الهائل يفتّر عن ابتسامات وأحداث نسجتها يد الواقع، على أنها قد تشطّ في الخيال كثيراً حتى ليخالها المتلقي أضغاث أحلام! أتريدون مثالاً؟ حسناً إليكم حواراً سمعته يوم أمس الأول... عشية رأس السنة ـ وكان يدور بين شيخين... شيخين هرمين في حقيقة الأمر، فأما الكيفية التي سمعت بها ذاك الحوار فسرّ أحتفظ به لنفسي، وأرجو أن تقفوا عند هذا الحدّ فحسب. هل أبدأ إذاً؟ حسناً...

ارسموا في خيالكم صورة تؤطّرُ قصتي... لغرفة عالية السقف... قديمة الأثاث يتدلى من أعلاها مصباح أخضر عتيق كذاك الذي يستعمله أهلونا قبل انبثاق عصر البترول، فأما المخروط الضوئي المنسكب من الوهج فيصب على طاولة مستديرة يغطيها مفرش أبيض تناثرت عليه مستلزمات الاحتفاء بالمناسبة، فيما بدت عدة قطرات من الزيت جلية على صفحة القماش، وحول الطاولة جلس الشيخان... في منتصف دائرة الضوء تقريبًا... وكأطلال بالية لاحا للناظر لطول ما تعاقبت عليهما الأيام... ظهران محنيان وأطراف أرعشها الهرم، ونواظر أطفأ فيها اختلاف الليل والنهار كثيراً من التوهج والألق!

وكان أحدهما ـ وهو المضيف ـ ضابطاً قديماً، تعكس ذلك الطريقة التي لف بعناية بها ربطة عنقه، وشاربه المدبب الحاد الانحناءة وحاجباه العسكريان الكثيفان.

وكان يجلس وقد أطبقت كفاه على مقبض كرسيه الدوّار كعكّاز، لا شيء يتحرك فيه البتة سوى فكيه إذ كان يأكل بصمت، فأما شيخنا الآخر فقد كان طويلاً كرمح... وتوج منكبيه الضيقين رأس مبدع مفكر... ونفخات من دخان غليون يوشك على الانطفاء.

ومن بين آلاف من التجاعيد التي غزت وجهه الناعم الحليق والذي أحاط به إكليل من خصلات قطنية ملتفة... تسللتْ ابتسامة هادئة لطيفة... ابتسامة لا يمكن أن تندّ عن غير ذلك الإحساس السحري الذي تبعثه الطمأنينة والهدوء والتسليم بحكم الله في القدر وبلوغ أوج العُمُرّ.

كانا صامتين... وعبر السكون المطبق... مازج الصوت الرقيق المنبعث من الزيت المحترق ذاك الناجم عن احتراق التبغ، وفجأة... ومن قلب الظلمة القابعة في خلفية الغرفة آذن صوت الساعة المعلقة الأجش بحلول الحادية عشرة.

ـ تلك هي الساعة التي اعتادت أن تُعدّ لنا فيها العصير: قال الرجل ذو الجبين المقوس... صوته كان هادئاً إلاّ من رعشة طفيفة.

ـ أجل ذاك هو الوقت ـ قال الآخر بنبرة عسكرية صارمة.

ـ لم أكن أعلم أنها ستترك كل هذا الفراغ! قال المتحدث الأول ثانية وهز المضيف رأسه وفكّاة يختلجان نوعاً.

ـ لقد دأبتْ على إعداد عصير ليلة رأس السنة لأربع وأربعين سنة خلت.

ـ أجل بعمر مجيئنا إلى (برلين) ومعرفتنا بك ـ قال الجندي القديم.

ـ في مثل هذا الوقت من السنة الماضية كانت السعادة ترفرف فوقنا

بأجنحة من ألفة وحبور ـ قال الآخر وتابع فيما يشبه النجوى: كانت تجلس على ذلك الكرسي... تحيك جوارب للابن الأكبر «لپول»، وكانت تعمل بجد قائلة بأن عليها الانتهاء منها بحلول الساعة الثانية عشرة وقد انتهت من الحياكة آنذاك فعلاً... بعدها تناولنا العصير ثم تحدثنا بهدوء عن هادم اللذات ومفرق الجماعات، وبعد شهرين حُملتِ إلى مثواها الأخير. لقد كتبتُ كما تعلم مؤلفاً كبيراً عن «أبدية الفكرة» على أنك لم تعرِ ذلك أدنى اهتمام، كما وأني شخصيّاً... لا آبه به الآن بعد إذ انتقلت زوجتك إلى الدار الأخرى... لم أعد ألقي بالا إلى فكرة الكون بمجمله، الآن فلا شيء بعد رحيلها يهمّ!

ـ أجل كانت زوجة خيّرة ـ قال زوج المتوفاة ـ لقد أحسنت العناية بي... رعتني خير رعاية وعندما كنت أصحو لعملي في الصباح الباكر كانت تستيقظ قبلي لتعد لي قهوة الصباح... صحيح أنّ بها بعض العيوب كاستغراقها معك أحياناً في قضايا فلسفية... آ....

ـ لم يتسنّ لك أبداً أن تفهمها ـ تمتم الآخر وامتعاض عفوي يرجف شفتيه، على أن النظرة الطويلة التي طبعها على محيا صديقه كانت رقيقة حزينة كما لو أن شعوراً خفيّاً بالذنب كان يقرض ذوءابات روحه.

بعد وهلة صمت عاد ليقول:

ـ (فرانز) ثمة ما أريد الإفصاح عنه... شيء أرّقني كثيراً... ولست أود أن يدفن معي!

ـ إليّ به في الحال! قال المضيف رافعاً غليونه الطويل المسجى بجوار مقعده!

ـ كان هناك مرة ... شيئاً بيني وبين زوجتك!

وترك المضيف غليونه يسقط ثانية قبل أن يحدق في زميله بعينين ملؤهما الدهشة.

ـ لا وقت للمزاح واستحداث الطُّرَف إن سمحت يا دكتور.

ـ إنها الحقيقة المرة يا (فرانز)! لقد طويتُ أضلعي على تلكم المسألة لما ينيف عن الأربعين سنة، على أنّ أوان المصارحة قد آن... الآن!

ـ أتعني بأن تلك المرأة الميتة لم تكن وفية لي؟ صرخ الزوج في غضب جارف!

ـ أما تخجل أن تقول مثل ذلك (فرانز)؟ رد صديقه بابتسامة رقيقة حزينة.

وتمتم الجندي السابق ببضع كلمات ثم أشعل غليونه.

ـ أبداً كانت أطهر من الطهر ـ تابع الآخر ـ إنما المذنب أنا وأنت ـ استمع لما سأقول... كان ذلك منذ ثلاث وأربعين سنة ... وقد استدعيت إلى (برلين) للعمل نقيباً فيما كنت مدرّساً في الجامعة... وكنت أنت يومها طائراً غرّيداً عابثاً تحط على كل فنن ـ!

ـ هم م م م ـ تنحنح رب البيت رافعاً يداً مرتعشة إلى شاربه ـ

ـ كانت هناك تلك الفنانة الجميلة ذات الشعر الليلكي والأسنان البيضاء الصغيرة... أتتذكر «يا فرانز»؟

ـ أأذكرها؟! بالطبع... وكان اسمها (بيانكا) رد الآخر فيما لاح على وجهه شبح ابتسامة باهتةٍ واهنة ـ تلك الأسنان الصغيرة كانت قادرة على العضّ أؤكد لك «قاتل الله نزوات الشباب»!

ـ لقد خدعت زوجتك... وكانت تشك فيك لكنها ما نبست ببنت شفة بل ظلت تعاني في صمت وتعاني... وكانت المرأة الأولى في حياتي بعد وفاة أمي... أضاءت سماء أيامي كنجم ساطع شع فبدد دياجير الظلمات... ورحت أرنو إليها في انبهار، ثم واتتني الشجاعة يوماً فتمكنت من سؤالها عما يكدر صفوها، فأكدت لي بأن الأمر لا يعدو كونه عدم إبلالها تماماً ـ وكانت قد أنجبت لتوها ابنكما الأكبر (پول)... ثم كانت ليلة رأس السنة... منذ ثلاث وأربعين سنة... جئت في الثامنة كالعادة... وجلست هي تحيك شيئاً فيما ظللتُ أقرأ عليها بعض الأخبار في انتظار مقدمك... ومرت الساعة تلو الأخرى دون أن تحضر... ولاحت مني نظرة إليها فرأيت كربها يزداد ويزداد حتى طفقت ترتجف من فرط الانفعال لابد للمخزون من فيضان «يافرانز» كنت أعلم مقرك وخشيت أن تنسى المناسبة وأنت في غيّك سادر... وأسقطت زوجتك ما كان بيدها فيما توقفت أنا عن القراءة ولّفنا صمت رهيب، ثم... لمحت دمعة كبيرة تنحدر من عينها فتسقط على ما كانت تحيكه، ولم أستطع صبراً فنهضت للبحث عنك وشعرت بقوة تخولني لانتزاعك من مكمنك الدني... على أنها نهضت في الوقت ذاته... هبّت واقفة من مكانها الذي تجلس أنت الآن فيه تماماً.

ـ أين تذهب؟ صرختْ في رعبٍ احتلّ ملامحها طرّاً.

ـ لأحضر (فرانز) صارحتها:

ـ كلا ابق معي أرجوك لا تتركني أنت أيضاً!

وهرعت صوبي فوضعت يديها على كتفّي قبل أن تدفن وجهها المعفرّ بالدموع في منكبي... واهتزت فيّ كل جارحة، إذ إني ما اقتربت من امرأة إلى

هذا الحد قبلاً على أني تمكنت من السيطرة على نفسي فواسيتها... وجئت أنت بعد ذلك بقليل فلم تلحظ ما خامر أحاسيسي وعواطفي... خداك كانا يلمعان بنشوة السعادة، أما عيناك فقد أثقلتهما سلافة الغرام والوجد المحرّم الممجوج... ورغم انجذابي إلى زوجتك فإني ما بعت ضميرى وصداقتي، بل إني اتجهت إلى من صرفتك عنها، فدفعت لها مبلغاً كان كافياً لإبعادها عنك:

ـ أنت هو إذاً... أيها الشرير!

ـ تمتم الجندي السابق في دهشة.

ـ فقد كنت إذاً السبب في إرسالها ذلك الخطاب الوداعي لي والذي صارحتني (بيانكا) بين سطوره بأنها ستتركني وقلبها يتفطّر ألماً لفراقي.

ـ أجل... كنت أنا سبب ذلك ـ قال صديقه ـ لكن استمع إلي هناك المزيد... أصارحك بأني ما دفعت المال (لبيانكا) إلا لأبتاع السلام والطمأنينة لروحي حينما تعود لزوجتك، على أن ذلك السلام ما زارني قط!

ظلت الأفكار المحمومة تراودني ليل نهار... ودخلت في صراع مع نفسي أمضّني الوجد وبرّح بي الغرام على أني شغلت ذاتي نوعاً حين دفنتها في عمل شاق متواصل... ذاك كان بداية تأليفي كتاب (أبدية الفكر)... ورغم ذلك فما عرفت دخيلتي للاستقرار مقاماً... ومرت الأيام... فإذا رأس السنة يؤذن بحلول... التقينا تارة أخرى أنا... وهي... وكنت موجوداً آنذاك... لكنك كنت نائماً على أريكة في غرفة أخرى بعد إذ أرهقك حفل صاخب، ولمحت وجهها الشاحب حين جلست بالقرب منها فغزتني الذكريات فجأة بضراوة، واسترجعت في خيالي تلك الليلة حين أمضّتها الأحزان والمواجع فدفنتِ في منكبيّ وجهها البريء، خلتُ أن ذلك سيحدث ثانية فـ... وليكن ما يكون...

والتقتْ خلسة أعيننا فقرأت في ناظريها تفهّما دفيناً... لمحت إجابة بارقة شعت بعفوية منهما... ولم أتمالك نفسي فدفنت رأسي في يديها!

مكثت على وضعي ذاك... دون حراك ثم أحسست فجأة بكفها تربت على رأسي برقّة فيما ترقرق صوتها العذب الهامس الحنون فكأنما كان أهزوجة نشوى... قطرات من غيث داعبت شفاه حبات الرمل العطشى في صحراء الوجد الضاربة في كياني فراسخ لا تعدُّ أو تحد... قالت في هدوء:

ـ كن شجاعاً... تمالك نفسك... أجل... تجلّدْ عزيزي حتى لا تسيء إلى صديقك الوفي... ذاك النائم في الغرفة الأخرى في طمأنينة وثقة فيمن استأمنه على بيته وأهله.

ونهضت كالملدوغ فاستقمت واقفاً... وحدقتُ فيما حولي بدهشة، أما هي فتناولت كتاباً دفعت به إليّ... وفهمتْ... فتحته فشرعت أقرأ جهراً... ولم أكن أدرك لما أقرأ صيغة أو معنى... وظلت الكلمات تتراقص أمام عينيّ على أن العاصفة التي اجتاحت كالطوفان كياني شرعت تهدأ رويداً رويداً حتى اختفت في غياهب اللاشيء، وعندما دقت الساعة مؤذنه بحلول الثانية عشرة جئت أنت تجرجر خطى أثقلتها أغلال المنام... وأحسست لما رأيتك بأن تلك اللحظة شبه الآثمة حين أوشكت أن أفقد السيطرة على نفسي قد تراجعت شيئاً فشيئاً حتى ابتلعها جوف محيط هائل سحيق لقرون مضت وتولّت، فتنهدت في سري وحمدت الله، ومنذ ذلك الحين استشعرت كثيراً من الراحة والاستقرار إذ أني أدركت بأنها لا تبادلني ذات الشعور... وبأنها لا تكنّ لي... غير الشفقه.

ومرت الأيام والسنون... دارت رحى الزمان فإذا بأبنائك وقد شبوا عن الطوق... فكبروا وتزوجوا... أما ثلاثتنا فهرمنا سوياً. وتركت أنت حياة اللهو فكرست حياتك لواحدة فقط... لزوجتك الوفية أما أنا... غير أنّ تلك العاطفة

المتأججة تجاهها قد خبت فاستحالت مع الأيام أنسًا وتوافقاً فكريّاً وصلة وجدانية لطالما ضحكت وأنت تسمعنا نفلسف الأمور على أن الغيرة كانت ستدب في قلبك لو أنك أدركت حجم التقارب بين روحينا... لكنها الآن قد ماتت وقد لا تهلّ المناسبة ثانيةً إلا وقد لحقنا بها... ولذا يا أعزّ صديق فقد ارتأيت أن أصارحك بذلك فأريح ضميري... أن أقول لك:

فرانز لقد أخطأت بحقك يوماً... ألا فاغفر لي!

ورفع إليه يداً متوسلة على أن الأخير تمتم بامتعاض:

«هراء... ليس هناك ما يستحق طلب الصفح... ما قلته للتولّي كان معلوماً لدي منذ أربعين عاماً، أما أنا فسوف أخبرك عن السبب الذي أوقعني في حبائل النساء حتى بلغتُ من الكبر عتيّاً وأعياني الزمن... لقد كاشفتني زوجتي بأنك... بأنك كنت الوحيد في فؤادها! تبّاً لكثير من عاداتنا الموقعة في براثن المحرمات!

وحدّق صديقه فيه... كأبله مشدوه فيما دقت الساعة معلنة حلول منتصف الليل!

أسطورة «ديڤاداتا»

للكاتب الهندي: سوماديڤا من التراث القديم
عاش سنة ١٠٧٠ قبل الميلاد

يحكى أن حاكمًا في قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان يكني بـ (جاياداتا)، رزق بصبي أسماه (ديڤاداتا)، وكم كان الحاكم ولعاً بفتاه شغوفاً به، كيف لا وقد كان يرى فيه امتداداً لملكه وجاهه... فأطبق عليه أجفان حنانه واختار له أينع بقاع فؤاده يرتع فيها أنى شاء.

وشب الصبي عن الطوق... وما إن بلغ مبلغ الرجال حتى شرع والده الحاكم في إعمال فكره للبحث عن عروس لابنه وفلذة كبده تكون قرة عين له... وفيئاً يستظل به من هجير الحياة ورمضائها. ظل الحاكم يقلّب الأمر على كافة وجوهه ونواحيه... من عساه يختار زوجة لابنه؟

وغاب في لجج من الحيرة والعذاب والظنون... وأعمل فكره مثنى وثلاث ورباع إلى أن اهتدى أخيراً إلى رأي سكنت له نفسه .... سيختار له ابنة أحد التجار، إذ إن ثروة التاجر ـ فكر الحاكم ـ ثابتة لا تتحول عن صاحبها، وفيّة وفاء ابنة العائلة النبيلة لزوجها لا تخذله أو تخونه!

وما إن إستقر رأي الأب الملهوف على ذلك حتى توجه من فوره إلى أحد تجار (پاتا ليبوترا) ويدعى (فاسوداتّا) فخطب ابنته لولده الأمير الهمام... وكاد والد العروس يطير فرحاً، فقد جاءه من لم يكن ليحلم به زوجاً لابنته قط! أمير ستغدو إليه الولاية بعد أبيه!

ووافق التاجر على الفور رغم محبته الشديدة لابنته التي بات فراقها وشيكاً، إذ إن مدينته كانت في منطقة تبعد عن مقر الأمير مئات الأميال.

ولم يدّخر التاجر وسعاً في إكرام زوج ابنته وودّعه محملاً بالنفائس من كل ما خف حمله وغلا ثمنه حتى تضاءلت في عين الأمير ثروة أبيه وعنفوان مجده. وعاش الحاكم مع ابنه وزوجته قرير العين لا يكدَّرُ لهم صفو.

وجاء التاجر ذات يوم لزيارة ابنته بعد أن برّح به الشوق ولواعج الفراق فاستقبلوه خير استقبال... ولمّا أزف الترحل تعلقت به ابنته بشدة ودموعها تمتزج بدموعه فتسطر في الحب أحلى الملاحم... واستأذنه التاجر أن يأخذ ابنته معه في زيارة إلى مسقط رأسها فلم يمانع الزوج وإن لمّح إلى رغبته في أن لا يطول بعدها فقد كان يحبها ويأنس إليها.

وبعد أيام عدة مات أبوه الحاكم فقاسى الأمرين وبات رهيناً للحزنين فراق أبيه وبعد زوجته، على أن أمه ـ وكانت حكيمة عاقلة سديدة الرأي ـ فرت به إلى بلاد بعيدة، إذ إن وفاة أبيه قد جعلت بريق التاج والصولجان يجتذب كثيراً من خفافيش الظلام الذين طوقوا القصر وانتزعوا منه الحكم... وما استطاع لجورهم دفعاً؛ فقد كان غضّ الإهاب قليل التجربة غرّاً صغيراً!

ولما استقر المقام بالأمير وأمه نظرت إليه مليّاً وقالت في كبرياء:

ـ إن حاكم الإقليم الشرقي كان لوالدك خير صديق... انطلق إليه واطلب منه العون لاسترداد ملك آبائك وأجدادك يابني!

لكن الأمير قال وغمائم حزن قاتمة تظل فؤاده:

ـ ومن ذا الذي سيحترمني إن أنا ذهبت دون مال أو عتاد ودون خدم وحشم.

لكن أمه تابعت في هدوء ورباطة جأش:

ـ اذهب إلى بيت عمك والد زوجتك وتزود منه بمال وأتباع قبل أن تتخذ طريقك إلى مقر الحاكم يا بني!

وأطاع الأمير مشورة أمه ومضى إلى بيت زوجته وهو لا يكاد يبصر طريقه بعد أن بلغ به الخجل والهوان كل مبلغ، ووصل إلى هناك بعد طول مسير وكان الوقت ليلاً على أن خجله ووصوله في مثل تلك الساعة من الليل قد منعاه من إيقاض أهل الدار، فأقام في ملجأ للأيتام بجوارهم... كره أن يروا دموع الحزن تنثال من عينيه بعد أن رزي في أبيه وعرش أبيه، وظلت سياط الألم والشقاء تجلده دون هوادة، وبينا هو يذرع الشرفة في جوف الليل جيئة وذهاباً لمح شبحاً ينحدر من منزل والد زوجته عبر حبل أعد لهذا الغرض وتأمله فعرف فيه امرأته! كانت تتلألأ بما يغطيها من جواهر ولآلئ ودرر تخطف الأبصار حتى بدت في انحدارها كنيزك هوى إلى الأرض من علٍ!

وأحس الأمير بالألم يعتصر قلبه وبالشك يكاد يذهب بصوابه... وكاد يتجه إليها إلا أنه آثر الانتظار لاستشراف كنه ما قد يحدث.

ومرت بالقرب منه ورغم أنها بصرت به إلا أنها لم تعرفه، فقد كان هزيلاً ناحل العود... شاحب اللون ذاهلاً وسألته عمن يكون فأخبرها بأنه عابر سبيل، على أنها لم تأبه به وشقت طريقها بين ردهات المأوى والأمير يتبعها خلسة حتى وصلت إلى مبتغاها! رآها تتجه بلهفة نحو رجل بعينه أنّبها على تأخرها قبل أن يسدد إليها عدداً من الضربات، فما ازدادت إلا تعلقاً به جرى ذلك كله على مرأى ومسمع من الأمير الذاهل الذي استعاد توازنه النفسي بسرعة قبل أن يقول محدثاً ذاته:

ـ ليس هذا بالوقت المناسب لإظهار الغضب وصب جام الانتقام!

لدي أمور أهم وأجل... لقد امتشقت حسامي هذا لأذود به عن أرض أجدادي وأستعيد ملك أبي، وإني لأربأ به أن أغمده في أجساد آثمة دنسة!

هو الدهر يختبر صبري وجلدي... حتى إذا ما جرعني كأس العذاب أترع أخرى فأخرى... على أني الملوم فقد اقترنت بمن هي دوني مرتبة وشرفاً... تلك التي تركت صقراً لتلحق بغراب!

عصفت تلك الأفكار بباله فتركها جانباً كما ترك مسرح الخديعة وهمّ بالانطلاق إلى غاية أسمى وأنبل... لم يأبه كثيراً بما حدث إذ إن مكانة المرأة في قلوب تنبض بالشجاعة وبريق الانتصار لا تساوي قشّة!

لكنه قبل أن يغادر المكان لمح أحد أقراط زوجته يسقط منها... وكان قرطاً ثميناً مرصعاً بنفائس الدرر، بصر به عن جنب ولم تلحظ زوجته سقوطه، بل ودعت صاحبها وذهب كل منهما إلى حال سبيله.

واتجه الأمير إلى القرط فالتقطه... كان قرطاً يخطف ببريقه الأبصار، حتى إنه استدل به على طريقه في غلس الدجى فأنار حلكة الظلام كالفنار يهدي الفُلك في أعالي البحار... وأدرك الأمير ارتفاع ثمنه فتوجه به إلى (كنايا كوبجا) حيث رهنه مقابل مائة ألف جنيه من الذهب، ثم اشترى بالمبلغ خيولاً. وفِيلَة واتخذ طريقه إلى حاكم الإقليم الشرقي الذي ما إن عرف أنه ابن صديقه الحميم وأدرك ما حل به حتى قدم له العون وأمده بالرجال والمال... واتجه الأمير الصنديد بعد ذلك إلى بلاده فقاتل أعداءه بضراوة وانتصر عليهم، وعاد ملكاً متوّجاً فكانت أمه أول المهنئين وقبلته في حنان وزهو.

واستعاد الأمير بعد ذلك قرط زوجته بعد أن أعاد قيمته وبعث به إلى والد زوجته كيما يجلو له أستار حقيقة ابنته. أما التاجر فإنه ما إن تلقّى القرط حتى داخلته دهشة شديدة واستغراب، ونادى ابنته فوضع القرط بين يديها بعد أن أخبرها بأن زوجها قد بعث به وداخلها شك عظيم... ولما استعادت أحداث ما وقع تلك الليلة التي ولت وولى معها شرفها ناجت في ذهول نفسها والحقائق تتكشف أمام ناظريها تكشّف الأفق لصبابات الشمس الأولى...!

ذاك هو القرط الذي وقع مني تلك الليلة الموعودة بعينه... أما ذاك الغريب الذي رأيته فلا بد أنه زوجي جاء يمتحن عفتي وشرفي، وما إرساله القرط إليّ إلا دليل على أنه قد أحاط بكل شيء! ما أشد تعسي ونحسي!

قالت الزوجة ذلك قبل أن ينفطر قلبها فتلقى حتفها، وداخل الشك والدها فاحتال حتى عرف الحقيقة من إحدى خادماتها المقربات، وأفقدته الصدمة توازنه بضعة أيام، وما إن استعاد هدوءه ورباطة جأشه حتى أمر بإيقاف جميع مراسم الحداد.

وأمّا ما كان من أمر الأمير فإنه لما استعاد عرش أبيه عمد إلى خطبة ابنة حاكم الأقليم الشرقي، فكانت نعم الزوجة المخلصة الوفية، وعاشا في سعادة وهناء.

ذات ليلة

One Night

للكاتب البلجيكي: أميل ڤيرهارين: Emile Verharen
(١٨٥٥ ـ ١٩٢٠)

ـ سأعود فوراً!

تلك كانت كلمات أعز صديق لي في الدنا.. قالها وهو يهبط مسرعاً درجات سلم النزل الكبير الذي قر قرارنا فيه أخيراً، في ضواحي إحدى المدن البالية بإسبانيا القديمة.

أمام ناظري تلاشى قبل أن تطرق سمعي كلماته الأخيرة ـ سأعود فوراً ممزوجة بصوت خطواته المبتعدة.

حينما شعرت بالوحدة اتجهت إلى الشرفة... فاتكأت على جدارها، وشرعت أتأمل من عل جمعاً من الرعاع وقد ظلوا يتبخترون بأسمالهم جيئة وذهاباً فيما غصت مداخل المنازل بالمتسولين، وتعالى نباح الكلاب كأنما ليتوج صورة المشهد الهزلي أمامي بالصوت... فبدا المكان برمته كمقبرة مهجورة وحينما التمعت حمرة الشفق قبل أن تهوي الغزالة بعدها في أحضان المدى فلا يبقى سوى خضابها تبدت المنازل كمغارات للأشباح وحل الغسق فزاد في غموض الشوارع ورهبتها، واسترقت النظر ـ عبر النافذة ـ إلى إحدى غرف ذاك النزل الذي نقطنه... فانتابني إحساس بأن حالة من القلق تعم سائر

دوره... فيما تبدت بتلك الغرفة أمامي أشباح كثيرة تموج في أنحائها وهي تدور بالشموع... وتمارس طقوساً رهيبة... غريبة حتى سالت الدماء منها غزيرة بحمرة المدى. وفجأة توهج القنديل في نهاية الممر بلون الزمرد!

ونظرت إلى ساعتي ساعة كاملة مضت على غياب صاحبي!

وتلبستني فجأة نوبة قلق مستعر، وأدركت أنني منذ اللحظة الأولى على مراقبة ما يجرى بتلك المدينة المندثرة قد أشعل القلق خيالي بجامح الرؤى! وتخيلت صديقي وقد ألقاه حظه العاثر بأيدي بضعة من قطاع الطرق... بأنه... جرح أو قتل!

لم أكن أعرف وجهته أو مبتغاه... وبدأت «أستحضر» أنماطاً من الرعب ما سبقني إليها أحد من العالمين، عازياً اختفاءه إلى مؤثر عدائي شرير!

وبدأت في تصفح أوجه العابرين فما راعني منها إلا اشتراكها في عامل الغموض والريبة... أطفال ونساء... ورجال... بعاهات شتى... وكهول يسترشدون بعصي تنتهي بأشياء لامعة.

وازداد الظلام حلكةً حتى استحال كافوراً... فيما شعت في الدورب بعض الأنوار الباهتة... ودق ناقوس المدينة دقات منتظمة زادت في رتابة المكان وغموضه، وشرعت دور العبادة في فتح أبوابها الهائلة... مبتلعة الجموع التي غصّت بها الطرقات والدروب... وبدأ القلق في الانتشار في عروقي... مع كل ذرة من دمي... انتشار النار في الهشيم... ترى تكون تلك الأمم المتراصّة قد ابتلعته... وقذفت به تحت الأقدام كيما يغيب في أعماق المجهول... وعلت أصوات احتكاك... وطحن... وسحق كتلك التي تنشأ عن احتكاك البرونز بالمعدن؟

ويبدو جلياً أن صرخة قد صدرت مني، إذ إن عابراً مسناً حدّق فجأةً في وجهي... ثم... تلكأ في محاولة لإيجاد وسيلة يتحدث بها معي قبل أن يواصل طريقه... متمتماً بكلمات لوم وتقريع، واعترتني رعشة خفيفه... وأنا أتأمل غرفتنا، كانت متعددة الزوايا والأركان فأتاح ذاك التقسيم المعماري فرصةً لاشتداد الظلام حتى لم يعد بإمكان من أخرج يده أن يراها، ولم أعد أحتمل فارتديت على عجل ملابسي وشرعت في تمشيط المدينة بحثاً عن صديقي، في تؤدة أول الأمر... ثم في بحث محموم.

ولوهلة خلت أني لمحته في ثلة من المتسكعين أعلى الجسر الحجري... ثم تخيلته وقد ظلله شمعدان هائل اجتذب وهجه الهوام وقد طرح به واقتتلت عليه الصقور والأفاعي... وغبت في جحيم تلك العذابات الدامية وكلما أطفأت ناراً أشعل الخيال لها أواراً... حتى قررت أن أعود أدراجي... على أنه... وعند أول خطوة... اتخذ الخوف مساراً آخر! أجل... تحول قلقي على صاحبي إلى خوف... على نفسي... وشرعت أرقب أبراج الليل في قلق وهي تتسرب... وتتطاول كأنما لترتقي إلى السماء سلماً... وضجت الحانات بالسباب والصخب ثم خلت قرع نعالي... يردده صدى الحارات العتيقة وزوايا المنازل الخربة المتهالكة رشق مدافع، وبدت لي أوجه المارة أكثر غموضاً وعدوانية... أكان بإمكاني أن أسترشد بهم... محال... بدوا لي سجانين قتلة! وسرت في عرض الطريق راعشاً... كنت أعلم بأني في شحوب الأموات وتمنيت ألا يلاحظ أحد ذلك، ودنا مني أحدب يبيع ثقاباً فقفزت متجنباً إياه!

واعترض متسول طريقي كانت ملابسه رثة واسعة فتفاديته وقرع أجراس المدينة يصم أذني كصليل السيوف يوم التقى الجمعان، وفجأة أبصرت مقر سكنانا فتهلّلتُ فرحاً وأدرت المفتاح وكل ذرة من جسدي لا تزال ترتعش!

ترى ما الذي يخبئه القدر لي خلف الباب المغلق؟ لقد تلاشى ظل صديقي من خيالي إلى حد لم يخطر لي معه أن أتساءل إن كان بعد قد عاد؟!

وحملت شمعة فبحثت عنه في كل زوايا الغرفة تحت الأرائك والسرير وفي خزانة الملابس حتى إن طريقتي تلك في البحث عن وسيلة لإخماد خوفي قد... أدهشتني!

ورنوت صوب الباب، ثم عمدت إلى مسدسي فألقمته بضع رصاصات واتخذت كافة سبل الحيطة!

ولم يخطر لي أن أخلد إلى النوم... فشرعت في القراءة... تسمرتْ على السطور عيناي، على أن فكري كان يصول ويجول فيما عساه يدور خلف الباب... وخارج النافذة... هناك في كبد الظلام!

وسمعت وقع خطى في الدور الذي نقطن... خطى تدق على إيقاع الرعب المتجذر في ذاتي... وفجأة توقفَتْ... فقفزت كالملدوغ من سريري... وهمست في فزع ـ لصوص... لا ريب! ودهمني خاطر مفاجئ... الشرطة... أجل... لمَ لا أستنجد بهم؟... وثانية ارتديت على عجل ملابسي... وعندما أصبحت في الشارع فينة أخرى... تملكتنى حمى الخوف ثانية... هل أشق طريقي... دافعاً بالمناكب هؤلاء المتسولين؟ أولئك الواقفين كتماثيل على قاعدة نصب؟!

فأتيه تباعاً في دوّامة الليل؟ تلك التي خرجت منها بمعجزه؟؟

أم أعود إلى دائرة القلق يعصف بي حتى يُطير صوابي. ووقفت أمام سكني وأنا أرتعد لتصور ما قد يحدث في غيابي.

وتهالكت على العتبة وقد تخدّرت يداي ونال منهما التعب كل منال، فيما دهمني شعور غامض خفي بأن مئاتٍ من الأيدي ترفعني فجأة لتلقى في خضمّ

المجهول... ونبا إلى مسامعي صخب السكان وحديثهم فيما كانوا يصعدون درجات السلم... ودنوا أكثر فأكثر فانحنيت على منبسط السلم وفكرت في أن استنجد بهم... أن أتوسل إليهم... أن أتفوه بشيء على الأقل، على أني احتميت بالجدار ثانية... وتوقفت الكلمات في حلقي... فبقيت هناك أخرس لا أنطق بحرف... محتبس الأنفاس، لا أكاد أعي ما حولي، وفيما أخفيت نفسي شعرت بأن الدم قد جف في عروقي وبأنني أنهار... انحدر بشدة في هوّة مالها من قرار... ومر الجميع بقربي دون أن يشعروا بوجودي قبل أن يغيبوا في مناحي غرفهم المتفرقه.

وشعرت بالحنق... بالغضب يمور في ذاتي؛ لأني لم أتحدث إليهم... حتى أنني ارتقيت السلم محاولاً اللحاق بآخر قاطن دخل غرفته في آخر الممر... على أني... وما إن كدت أصل حتى أطلقت لساقيّ الريح في رعب... عائداً من حيث أتيت وهبطت الدرج أربعاً فأربع حتى ألفيت نفسي أخيراً... وسط الشارع... ودنا مني حارس ليليّ فبادرته:

ـ جئت للاستعانة بك فيما يختص بسرقة حدثت في الغرفة التي أقطن فيها.

وتبعني الحارس... وكانت كلماته القليلة كافية لتبديد أشباح ذاك الكابوس الرهيب الذي دهمني... لم أكن آنذاك أستشعر تفاهة تلك الكوميديا التي أجدتُ تمثيلها!

عندما أصبحنا على مقربة من الغرفة كان لديّ من الاطمئنان والجرأة ما يمكنني من إعادة البحث في كل ركن وزاوية والخلود إلى النوم بكل أمن واطمئنان، وفتش الحارس في كل مكان فما عثر على ما قد يثير ريبة... ما

وجد أحداً! وقلت وحاولت إضافة نوع من الجدية والثقل إلى كلماتي كيما يظهر الأمر في الخطورة غاية، ادعيت بأن صندوق مجوهرات كنت قد وضعته بين الشمعدان وحقيبة السفر قد اختفى فجأة...! ورحت أصب جام نقمتي وسخطي ـ في حماس منقطع النظير ـ على أولئك المحتالين ممن تغصُّ بهم الشوارع والطرقات... ملقياً باللائمة على رجال الأمن الذين قصروا في تخليص الناس من ويلاتهم وتقديمهم للعدالة، على أنه كان يبدو جليّاً أنني قد بالغت في تقمص الدور إذ أنني لمحت الحارس يبتسم في هدوء وتناذر غضبي عندما لم أعثر في عينيه على ما يدل على أنه قد حمل قولي على محمل الجدّ:

ـ أنا متأكد ـ قلت شارحاً ـ أن ذاك الصندوق كان يحوي ميدالية مرصعة بالجواهر واللؤلؤ. ولما قاطعني الرجل مؤكداً ما يتمتع به النزل من سمعة طيبة... وبأن المنطقة التي نقطن فيها هي الأهدأ قاطبة، أجبته بأني أثناء نومي... استيقظت فجأة على صوت أقرب ما يكون إلى صوت احتكاك الألماس بالزجاج أو كمن ألقى بشيء فوق طاولة رخامية وبأني حالما قفزت من سريري... بصُرت برجل يقفز هارباً مغلقاً الباب خلفه وبأن ما سمعته من صرير أيقظني قد يكون صوت احتكاك المسامير النحاسية المثبتة أسفل الصندوق... على حافة المضندة.

وحدق الحارس في عينيّ مباشرة.

ـ اتبعني وقدم بلاغاً بذلك لدى المسؤولين.

على أني لم أوافق على ذلك واعتذرت معللاً ذلك بأن صديقي قد يطيل الغياب، وأن في الغرفة أوراقاً مهمة ينبغي الحرص عليها... وأشياء ثمينة لا

يمكن بحال من الأحوال تركها بدون حراسة... في مكان مشبوه كهذا. قلت متذرعاً.

وتبدت ثانية تلك الابتسامة الغامضة في عينيه فوددت لو طرحته أرضاً! وفجأة فتح الباب ودخل من كان السبب في كل ما حصل لي من عذابات وهموم وقلق... ذاك الذي لم أدع مكاناً ما بحثت عنه فيه... وارتميت عليه فاستحلفته أن يخبرني أين كان وما الذي أخرّه قبل أن أنتحي به ناحية من الغرفة فأسرد عليه تفاصيل كل ما حصل لي... فيما تظاهر الحارس بعدم ملاحظته لما يجري أمامه... لقد تفهم وفهم كل ما حل بي... وكانت أية بادرة سخرية قد تندُّ عنه كفيلة بتقويض كل شيء!

وأكد صاحبي على ما قاله آنفاً بضرورة تقديم بلاغ بذلك صبيحة اليوم التالي، وبأنه كيما تأخذ العدالة مجراها فإنه لابد من تفتيش الأماكن المشتبه بها في المنطقة.

على أنه... وفي منتصف ضحى اليوم التالي... والمدينة تختال في حلل من نور تبدت لي كأجمل وأهدأ... وآمن ما تكون المدائن... وداخلني لذلك إحساس بأن أهم ما ينبغي الآن عمله هو الاستمتاع حتى الثمالة بسحر روعتها وتراثها... وبتلك العظمة الجليلة... الحزينة المهيبة تنبعث أريجاً عذباً معذّباً من ثنايا آثارها الفانية التليده